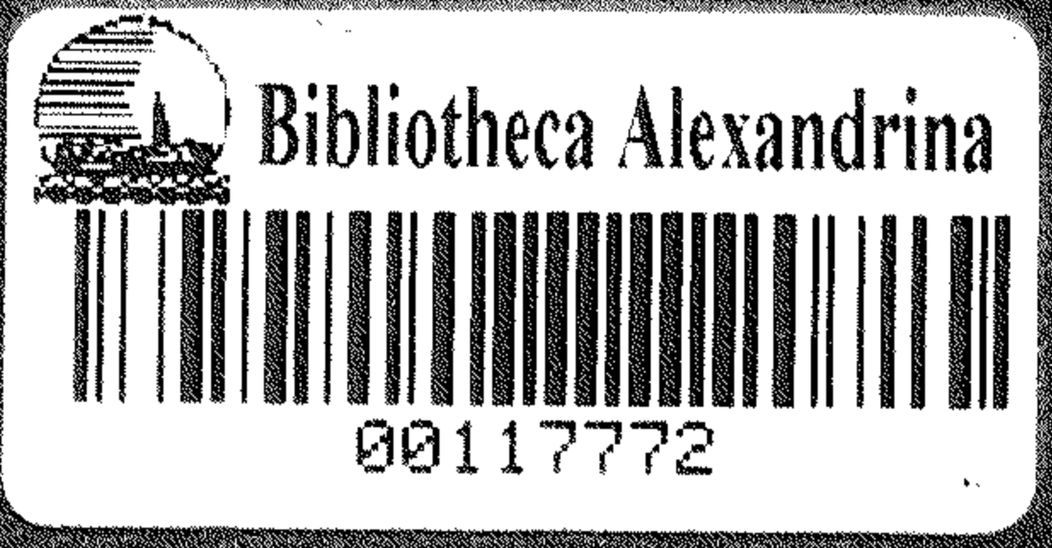
Bibliotheca Alexandrina
00117772

كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

لكيلا ننسى

أقطاب مصر بين الثورتين

محمد السوارى

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة:

موسى صبري

رئيس التحرير:

أمين محمد على

نائب رئيس التحرير:

عبد العزيز عبد العليم

مدير التحرير:

حسين فريد

العدد ١١٧

نوفمبر ١٩٧٦

ذو القعدة ١٣٩٦

الإدارة: دار أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٩٧٧٧٧٧ سبعة خطوط

الاشتراكات

البريد العادي

المجموعة الأولى ١,٥٠٠ ج ٤٠٢٠٤ اتحاد البريد العربي والأفريقي

المجموعة الثانية ٢,٣٠٠ باقي دول العالم ..

البريد الجوي

المجموعة الأولى ٢,٣٠٠ اتحاد البريد العربي والأفريقي

المجموعة الثانية ٥,٣٠٠ باقي دول العالم ..

ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ (٢) شارع الصحافة بالقاهرة ت ٩٧٧٧٧٧ / ٩٧٧٨٦٠

كتاب اليوم
ثقافة اليوم وكل يوم

لكيلانني

أقطاب مصر بين الثورتين

بقلم محمد السوادي

يصدر عن مؤسسة اخبار اليوم بالقاهرة

الغـــلاف

رسم الفنان

حسين بيكار

اهـــــــداء

- الى الجيـــل الجديد
في مصر وفى كل بلد عربى

- الى الجيـــل الجديد
الذى يعتقد خطأ أن كل ماضيه لا خير فيه

- الى الجيـــل الجديد
الذى يريد أن يبدأ تاريخه من الصفر ٠

- الى الجيـــل الجديد
مقطوع الجذور بأرضه الطيبة ٠٠ ومقطوع الصلات بآبائه الرواد

- الى الجيـــل الجديد
أهدى هذا الكتاب

المؤلف

كلمـــة لابد منها

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله يجرى هذا القلم ·· فوق هذا الورق ·· ليقول لك « شيئا » ·

وانى لأرجو ـ شأن كل كاتب ـ أن يصادف هذا « الشىء » ارتياحك ·

أريد أن أقول لك أن « الانسانية » ـ وأنت « انسان » ـ لا تعرف ذلك التقسيم الجائر الذى يجعل منها قطاعا للشباب ·· وقطاعا للرجولة ·· وقطاعا للشيخوخة

« الانسانية » لا تعرف غير كائن واحد هو ابنها « الانسان » ·· كان رضيعا وفطم ·· وكان يحبو ومشى ·· وكن صبيا وكان فتى ·· ثم أصبح شابا ·· ثم استوى رجلا ·· ثم أمسى شيخا ·· ثم تخلى عن الطريق ·

سنة الله ·· وقانون الحياة ·

وكل ما حدث لهذا « الانسان » ·· عبر تلك الحياة ·· انه كان حصيلة للتطور الذى سبقه ·· أو للاطوار التى اجتازها ·

وليس صحيحا على الاطلاق ·· أن كل « شاب » فيه ثورة وتمرد وطموح ·· وأن كل « رجل » تخطى الاربعين ·· هدأت الثورة فيه ·· وتخلى عن الطموح ·· وأن كل « شيخ » تعدى الستين ·· ظفر « بالخبرة » أو اهتدى الى « الحكمة » أو فقـــد « الهمة » ·

ولو أن الامر هكذا ·· لما عرفت الحيـــاة عباقرة من الشـيوخ ·· ولما ظل « برنارد شو » يتوهج فى نتاجه حتى مات فى الرابعـــة والتسعين ·· ولما تحول تشرشل بتاريخ الدنيا وهو فى شرخ الشيخوخة ان جاز التعبير ·

أريد أن أقول لكل شاب ·· ان المجتمع كائن حى مثلك ·· ويجرى عليه قانون الحياة كما يجرى عليك ·· وأن كل ما يجرى فيه اليوم مما يسخطك أو يرضيك ·· هو من صنع ماضيه الذى غزل خيوطه أبى وأبوك ·· ولا سبيل لعلاج هذا المجتمع الذى نحن فيه ·· الا اذا درسنا ماضيه ·· وعرفنا حقائق الذين صنعوه ·· اما أن اكون لقيطا من عرض الطريق ·· فاقف وحدى فى المجتمع لا أعرف عما ولا خالا ·· ولا أجد لى فى تربته جذورا ·· فضياع بغير حدود ·

انى أطرح هذه القضية فى هذا الكتاب ·· قضية ماضيك الذى صنع حاضرك ·· وتظن خطأ أنه من صنعك ·

ولقد فكرت فى هذه القضية من بضع سنين ·· ثم صرفنى عنهـا ما يصرف الناس عن أخطر القضـــايا ·· وفجاة رأيتنى أعاود التفكير فيهـا لالتقى بك ·· واستهل هذا الحوار معك ·

فكرت فى هذه القضية من بضع سنين ·· أثر مقال نشرته جريدة الاهرام للدكتور جمال العطيفى بعد أن شارك فى « اختبارات القبول فى الدراسات العليا لمعهـد الاعلام » لالف من الشبان تقدموا لذلك الامتحان ولم يكونوا من خريجى الجامعات فقط ولكنهم يعملون فى مجالات الاعلام والعلاقات العامة ·

ولا أريد أن أقف عنـد بعض « الاجابات » التى أدلى بها بعضهم » لقولهم عن السيدة نبوية موسى رائدة التعليم النسائى فى مصر أنها راقصة ·· وأن البرتغال دولة فى أفريقيا · وانما أريد أن أقف عند قول المفكر الكبير ـ وهو الآن وزير ـ « أن عددا كبيرا من العاملين فى مجال الاعلام لا يعرف من هـو مصطفى كامل الزعيم الوطنى الذى يقوم تمثال له فى أهم ميادين العاصمة وأن منهم من قال أنه ينتمى الى حزب الوفد ومنهم من قال أنه ينتمى الى حـزب مصر الفتاة ·· وهناك اجابات أنه حزب الاستقلال أو الاحرار أو الامة » ·

وقال الكاتب أنه تبين انه ليست لدى غالبية هؤلاء الشبان فكرة محددة واضحة عن تاريخ مصر الحديث ·· ولا يعرف من الثورات الا الثورة التى قامت فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ·· مع ان العلم بهذه الثورة يقتضى العلم بأسباب قيامها ·· بل أن الذى قادها ـ وهو جمال عبد الناصر ـ اعترف بـ « أن تاريخ مصر العظيمة لم يبدأ بثورة ٢٣ يوليو وانما قيمة ٢٣ يوليو الحقيقية فى أنهـا استطراد طبيعى لنضال الشعب المستمر وطاقاته المتجددة وآماله البعيدة » ·

ولكم كنت أود أن أحدثك عن تاريخ مصر الحـديث كله ولكنى آثرت ان اقصر حديثى عن الساسة بين الثورتين الكبيرتين ·· ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ·

وبدأت أحصيهم فزاد عددهم على المائة فاخترت منهم لهذا الكتاب ـ كتاب اليوم ـ عددا يتفق مع صفحاته ·· فاذا صادف هذا الكتاب اقبال القراء ·· فقد أضيف اليه كتبا أخرى لفريق آخر من الاقطاب والساسة ·

ولقد التزمت فى هذا الكتاب فلم أتناول سياسيا على قيد الحياة ·· ولم أتناول سياسيا من خارج البرلمان ·· فكل من حدثتك عنهم كانوا أعضاء فى مجلس الشيوخ أو فى مجلس النواب ·· وأكثر من تسعين فى المائة منهم عرفتهم أو عاصرتهم كناقد برلمانى لجـريدة « البلاغ » ·· والباقون ترامى تاريخهم الى أذنى ممن عرفوهم أو عـاصروهم ·

وانى لارجو أن تكون هذه المحاولة أكثر توفيقا من المحاولة التى قمت بها فى سنة ١٩٤٢ عندما أصدرت الطبعة الاولى من كتابى « البرلمان فى الميزان » ثم أصدرت الطبعة الثانية منه بعد الطبعة الاولى ببضعة أسابيع ·

وهأنذا أحاول أن أصل بين حاضرى وماضى ·· وان اقيم جسرا من جسور التاريخ بين حاضرك وماضيك والله ولى التوفيق ··

محمد السوادى

سـعد زغـلول

لم يجل

بخاطرى أن أتحدث اليك عن سعد ..
لقد وضعت قائمة طويلة حفلت بأسماء مائتين على التقريب من البارزين الذين رأيتهم أهلا للحديث عنهم .. وكان هدفى أن أستفتى الأصـدقاء فيهم .. ليختار كل صديق عشرة أو عشرين منهم يرى أن أبدأ بهم أو يرى أن التقدم من حقهم .. وأن أعود بدورى فأفاضل بين آراء الاصدقاء .

ولم يكن اسم سعد من هذه الأسماء ..
كنت مؤمنا بأن مثله لايمكن ـ أو لايجوز ـ أن يتحدث عنه مثلى ..
وكنت مؤمنا بأن فى وسعى أن أتحدث عن أى كبير عاصرته أو عرفته أو ترامى الى تاريخه بدءا من ثورة ١٩١٩ وانتهاء الى ثورة ١٩٥٢ .. لكن ليس فى وسعى أن أتحدث عن سعد زغلول وهو وحده الذى يعيينى وهو وحده الذى يعجزنى .

لمـــاذا ؟

لم يكن سعد رسولا أو نبيا بل كان ينطق عن الهوى كما ينطق البشر .. ولم يكن يتلقى وحى السماء .. حتى يتقيه النقاد .

كان سعد زعيما وطنيا .. وأصبح بحكم التدانى والتداعى زعيما عربيـا وأمسى من غير قصد وبحكم القدوة زعيما عالميـا .. فهل هذا الوصف له هو الذى ردنى عنه ؟

كلا .. لم يكن هذا الوصف هو السبب « الاوحد » .

لقد تزعم سعد شعبنا المصرى فى عصر من أسوأ عصور التخلف الاسلامى والعربى والمصرى ·· وفى فترة بلغت شراسة الاستعمار فيها حدا أجاز لانجلترا أن تسمى الامبراطورية بالتى « لا تغيب الشمس عن أملاكهـــا » ·· وكانت معظم الدول يومهـــا أملاكا للمستعمرين أو كالأملاك ·· وكانت معظم الدول يومهـــا أملاكا عبيدا لهم أو كالعبيد وبكل ما تحمله كلمـــة العبودية والتبعيـــة من اذلال وضياع وانحلال وعار ·

ولم يكن سعد صانعا للعظماء أو للكبار الذين أتحدث عنهم فى هذا الكتاب ·· وانما كان شيخا ثائرا على الأوضاع ·· والثورة ظاهرة تلازم الشباب ·· ولكنه علا على الظاهرة وقاد ·· وفتح أمام المواهب والقدرات كل النوافذ والابواب ·· ورصاص العدو يسدد اليها وينفذ منها الى قلب الدار ·· فمن شاء تقدم وبرز ·· ومن شاء توارى وتخلف ·· وأقدم على مواجهة الارهاب من أقدم ·· فخاضوا تحت رايته غمار الموت فى غير تردد فكان الجيل الجديد الذى أنتمى اليه ·· وكان الشعب الوليد الذى تمخضت عنه ثورته وهـــو الذى أسلمنا الى الوضع الجديد الذى نعيشـــه اليوم ·· وكلنا أمل فى غد أفضـــل ··

فهل كانت هذه الحقائق هى التى ردتنى عن الحديث عن سعد ؟

كانت من الاسباب من غير شك ·· ولكن هناك أسبابا أخرى ··

منها أنى لم أره من خلال زعامته حتى وفاته الا مرتين ·· وكنت طالبا صغيرا فقيرا فى الوعى وفقيرا فى المعرفة ·· فكيف يحق لى أن أسمى نفسى معاصرا له ؟

ولقد كتب عنه العقاد كتابا يعرفه كل من يحمل بحق لقب «قارىء» كتابا أعترف (ومعذرة للكتاب) أن كاتبا غير العقاد لا يقوى عليـــه لان العقاد كان من المريدين وكان من الحواريين وكان من المقربين ·· وكان سعد يعلو به ويعتز ·· وكان يسميه الكاتب الجبار ·· فهل أجد لى بعد هذا الكاتب مكانا يجيز لى أن أتحدث منه عن سعد؟

كـــلا ··

أقولها عن صدق واقتناع ·· ولا أتجر أبدا بفضيلة التواضـــع التى ترمى الى اكتساب القراء ·

ولمـــاذا ؟

ولماذا ــ اذن أتحدث اليك الآن عن سعد ؟

والحقيقة أن أصدقاء لى ــ أثق بسلامة آرائهم ــ أصروا على أن

يكون للكتاب فاتحة وأن يكون سعد هو هذه الفاتحة ·· حتى أن أحدهم ـ وله فى ساحة الفكر مكانة ـ قال لى فى صراحة : اسمع : اذا أعياك تصـــوير سعد أو رسم شخصيته او تحليـل زعامته ، فاكتب صفحة واحدة ، وان شئت فاكتب بضعة أسطر ·· ضمنها تحية له وسلاما عليه واسكت ·

واقتنعت ··

نعم ·· طاب لى رأى الصديق ·· واقتنعت ·

وبدأت به وفى نيتى أن أفتتح به لاحييه ·· وأتوج كتابى باسمه ولا أزيـد ··

فاذا كان الحديث قد امتد أو طال فهو مهما يطل ·· وقفة لى عابرة على هامش الزعيم ·· لا فرق بينها وبين وقفة لك أمام تمثاله فى القاهرة أو أمام تمثاله فى الاسكندرية لتقول وأنت تحدق فيـــه : ما أروعك أيها التمثال ومحال أن تقول ما أروعك يا سعد أو تقول ما أروعك يا مختار المثال ، ومحال أن تقول : ما أروعك يا ســعد كتمثال لان سعد فوق هذه الروعة التى شعرت بها وأنت تحـــدق فى تمثـاله ·

هى اذن ـ وكما قلت ـ وقفة لى على هامش الزعيم أحيى بهـــا ذكراه فى نفسى مثل وقفتك أمام التمثال جسد لك من حيث الشكل تلك الذكـرى ·

وقفة لى على هامش الزعيم وحياته · وعلى هامش الزعيم «ومماته»

أقولها وأعنيهـــا

أقول « مماته » وأعنى الكلمة ·· والموت هو الذى تتبعه الذكرى ·· والذكرى هى كل ما أعنيها ·· مات سعد ·· وكان طبيعيا أن يتبارى الشعراء فى الرثاء ، وكان فى الساحة فرسان ·· يكفى أن يكون منهم شوقى وحافظ ومطران ··

ولكن صوتا شاعريا من لبنان لامن مصر ترامى الينا على صفحات « الاهرام » يقول لنـا كلاما عجيبا فتحت عليـــه يومها كل عينى (وكنت لا ازال طالبا صغيرا أهوى الصحافة والأدب) وهو يقول :

قالوا : دهت مصر دهيـــاء فقلت لهـــم
هل غيض النيـــل أم هل زلزل الهـرم ؟
قالوا : « أشـــد وأدهى » قلت ويحـكم
اذن لقـــد مات ســعد وانطـــوى العلم

ويطيب لى أن أقف قليلا ··

وقد لا ترى فى البيتين الا جمال شعر أو خيال شاعر ـ وأكثر من أربعين عاما تفصل بينك وبين الشاعر ـ أما عن الذين عاصروه فلم يجل يومها بخاطرهم أن فى البيتين خيالا وانما رأينا فيهما قضية منطقية لها مقدمة ووسط ونتيجة ..

قيل للشاعر أن « دهياء » قد دهت « مصر » .. وتخرب فيها كل شىء .. وتخلى عنها كل خير .. ونزلت بها النازلة الى مستوى الضياع فاستنتج ـ محقا ـ أن داهيةمن اثنتين لابد أن تكون قد وقعت .. كبراهما أن يكون النيـــل قد غاض فلا ينبت بعده على أرضها نبات ، والصغرى أو الاخرى أن تكون « الاهرام » قد أصابها الزلزال فسقط عن رأس مصر تاج أمجادها واختفى عنوان عراقتها ونكس تاريخ الحضارة رأسه .

ولكنهم قالوا للشاعر ـ أبدا لا النيل ولا الهرم .. ان الدهيـــاء أشد وأدهى من النيل اذا غاض ومن الهرم اذا تهدم .

وصرخ الشاعر من غير حاجة الى أعمال الفكر : « اذن لقد مات سعد وانطوى العلم » فليس أشد وأدهى من المصابين الا هذا المصاب.

عرف المصاب من فوره : اذن لقد مات سعد .. وخيل اليه فى غمرة الفجأة أن مصر قد ضـــاعت وأن العلم قد انطوى .. وهى حساسية تغتفر للشاعر وتلازم الشاعرية دائما وان كان قد وضح ـ فيما بعد ـ أن علم سعد لا يمكن أن يطوى كما تطوى الأجســـام والايام .. لان سعدا لم يكن زعيما ثار .. وانتهت ثورته بانتهـــاء حياته .. سعد كان ضمير الجماهير تحرك .. وكان أمجاد القرون صحت .. وكان طاقة العراقة تفجرت .. وكان الفلاح فى القرية يهتف من الاعماق « يحيا سعد » .. وكان العامل فى المدينة يهتف من الاعماق « يحيا ســعد .. وكان الاثنان يقولانها بالروح والدم ويتحديان فى جنون دبابات العدو ويتلقيان فى تهليـــل رصاص العدو .. وخرجت المرأة المحجبة الى الشارع تهتف بحياة ســـعد وتمزق حجابها لتتحدى بالسفور ظلام القرون .

كان سعد هذا كله .. وفى مواجهة من ؟

فى مواجهة أعتى قوى الوحشية والشر خرجت من الحرب العالمية الاولى نشوى بخمر النصر .. تطلب الى الدنيا أن تدين اليها والا ترتفع لها صـوت .. فاذا الصـوت الذى يرتفع يجىء من الشرق المظلم .. واذا هو صوت فلاح مصرى .. أصيل لا لكنة فيـــه ولا عجمة .. واذا هو صوت شيخ جاوز الستين لا صوت فتى غض

الاهاب مشبوب الشباب ولاصوت فارس يقتحم الصعاب ليتفـوق على الاتراب ..

ولم يكن سعد في ذلك الزمن ضمير الشعب فى مصر وحدها .. وانما كان ضمير الشعوب المقهورة والمستذلة والمحتلة فى كل مكان على سطح الارض .. تراءت اليه أنباء الثورة على يد سعد .. فكان الشعلة المقدسة التى أنارت الطريق أمام غاندى .

ولقد قالها نبى الهند الجديد ـ كما أسموه ـ قال ما معنـاه ـ ولا يحضرنى النص ـ أن سعد أستاذه فى الجهاد وعنه تلقى أول درس فى مواجهة الاعداء عندما وحد بين المسلمين والاقباط وعانق الصليب الهـــلال .. فانطلق غاندى يوحـد بين الهندوس وبقيـــة الطوائف ويحرر « السيخ » و « الانجاس » من لعنة هبطت عليهم من غير أى ذنب لهم .

دراســـة سعد

وقد يسألنى أبناء هذا الجيل ـ جيـــل التخطيط العلمى وهواة الدولة العصرية ـ عن المصادر التى يستقون منها حقائق تلك الثورة أو حقائق ذلك الزعيم ..

والمصادر كثيرة .. ودار الوثائق حافلة بالكثير منها .. وبعض الصحف نشرت فصولا ضافية عنها وعنه .. ومحمد كامل سليم سكرتيره الخاص صدر شـبابه ، نشر فى احدى الصحف ، وفى « كتاب اليوم » أخيرا ، مذكراته عن اقامة سعد فى باريس ومفاوضاته فى لندن وخـلافاته مع زملائه فى الوفد وكفـــاحه المرير للادوار الرخيصة التى لعبها فريق منهم .. وكما نشر الشىء الكثـير عن الجهاز السرى الذى أنشأه ســـعد (برياسة عبد الرحمن فهمى) وأقض به مضاجع المحتل ونشر به الرعب فى جميع أرجـاء أوربا وفى قلب لندن نفسها .. وظهور شباب فدائى من مريديه يدبرون أحداث الاغتيالات للانجليز الحاكمين فى مصر .. ممـا أدى الى محاكمة أحمد ماهر والنقراشى .. فضلا عن مذكرات عند الاقربين فضلا عن كتاب العقاد وهو وحده يغنى عن الكثير .

ولى رأى

ورأيى لا يجاوز الهامش الذى أقف عنـده ولا يجاوزه الى أى تصوير أو رسم أو تحليل ، رأيى أن الذى لم يدرك سعدا .. ولم يره ولم يستمع له .. ولم يعش فى عصره سيظل بعيدا بعيدا .. سيظل محجوبا عنسر الزعامةفيه ـ أستغفر الحق ـ أقصد عنتصور الزعامة

فيه ·· مهما يعكف على المراجع والمصادر ·· ومهما يأخذ بأسباب المراجعة والدراسة سيظل بعيدا ·· بعد المترجم الذى ينقـــل الى اللغة العربية شعر شكسبير من القارىء المتمكن الذى يقرأ هــذا الشعر فى لغته الاصلية التى كتب بها ·· فأعطته جوها وعطـرها ونفحاتها ونسماتها ·· وأعطته كل ما هو مستخف ·· من أسرارها ·· وكل ما هو كامن خلف ســطورها ·· من مشاعر يثيرها سر التراكيب فى اللغة الاصلية ·

نعم نحن فى عصر التخطيط العلمى والدراسات الواعية والتخصص فى كل جزئية من كل كلمة من كل مادة ·· وكل هذه الميزات لهذا العصر مدد كبير للدارسين ولكن شيئا غامضا غير مرئى ســيظل يحلق فوق رؤوس الدارسين حتى تطوى الارض ومن عليهــا ولا سبيل للعلم الى حل هذا الغموض الا اذا حل لغز الحياة والموت ·· وخلق لنا انسانا لا يموت ·

والشىء الغامض الذى أعنيه هو سر العبقرية عند العباقرة أو سر الزعامة عند الزعماء ·· وهو سر سعد أحسه معاصروه بكل جلال وعجزوا أن ينقلوه للاجيال ·· والدراسات العلمية ـ فى رأيى أشد عجزا فى هــذا المجال ·· فالمتخصص فى أى فرع من فروع الرياضيات العليا قد « ينبغ » فى تخصصه ·· وقد يصــبح عالما فى تخصصه · وكذلك الامر فيمن تخصص فى فرع من فروع علم النفس الحديث ·· ولكن أى النابغين ·· لن يكون يوما ولن يكون أبدا ·· « انشتاين » أو « فرويد » وأى نابغة فى الموسيقى لن يكون يوما ولن يكون أبدا بيتهوفن وقد تشهد البشرية من هــو فى مستوى أى من هؤلاء العبــاقرة أو من هو أعلى مستوى منهم ويومها ان جاء ســـنعرف أنه عبقرى مثلهم وسنظل نجهـــل سر العبقــرية فيه ·

وما ينبغى لنا أن نقول « لماذا » ؟ وكل ما نملك أن نقوله ـ وهو كل ما يلوح لنا من آفاق العباقرة أن للعبقرى نظرة شمول تتخطى الجزئيات وسرا سلحته به العناية لامر تعنيــه من حيث يدريه أو لا يدريه ـ نظرة شمول يخترق بهــا الحجب ·· وسرا يرى على أضوائه الكاشفة ما لا يراه المتخصص بأجهزته الدقيقــة أو ببحوثه العميقة ·· سرا يخرج بالعبقرى عن كل قاعدة علمية أرســتها الملاحظة وأيدتها التجربة ·

والزعامة فى الشعوب وجه من وجوه العبقرية فيه سحرها من غير تعليل وفيه سرها الموهوب للزعيم ·

وقد لاحظ الكثيرون من الدارسين أن سعدا خـرج بثورته على المتعارف عليه بين الناس والثوار ·· فسعد ثار وثار معه الشعب ·· فقاد الثورة وتزعم الشعب والأصل فى الثائر ـ كما قلت ـ أن يكون شابا وكان سعد شيخا ·· والأصل فى التائر أن يكون قوى البنية موفور العافية وكان سعد مهدما ومريضا دائم التداوى ·· وشاءت العناية أن تصل بينه وبين الشعب على النحو الذى تصل به بين الوالد والولد ·· فحرمتـــه من الانجاب فلم يكن له بنت ولا ولد ·· وكان شيخا يصلح أبا ويصلح جدا فغدا كل فرد فى الشعب ابنا له وحفيدا ·· وشاءت له العناية ألا يكون غنيا يتهم أو يلوث ·· وألا يكون فقيرا يذله الجوع وتحكمه الحاجة ··

وهكذا هيىء للزعامة من هـــذه المداخل المعروفة للناس ·· ولا يعنى هذا المساس بذلك الاساس اننـــا أمطنا اللثام عن سر الزعامة فيـــه ··

ورأيتـه مرتين ؟!

قلت أنى رأيت سعدا مرتين على امتداد زعامته ··

المرة الاولى كانت سنة ١٩٢٣ وكنت قادما من الصعيد لالتحق بالمدرسة الســعيدية الثانوية وكنت مغلق العين والقلب ·· رجعى التفكير حفيظا على التقاليد ·· أحصن غفلتى وجهـالتى بكبرياء مصنوع أو موروث وأبدو ـ ولم أكن قد بلغت العشرين ـ شـيخا يمشى الى التسعين ·· ذا وقار وتزمت ·· ردائى أســود اللون محتشم ·· وأدخن لاستوفى باللفافة مظاهر الرجولة ·· وأستنكر كل خفة تبدو على أى شاب ·· وأدهش لطالب فى المعلمين العليا أو فى معهد عال يعدو خلف أى زعيم ليصفق له أو ليهتف باســمه وكنت برغم غفلتى ورجعيتى من هواة الصحافة والفن والأدب ·· أنفق نصف (مصروفى) على اقتناء ما يروقنى من الصحف والكتب ولم أكن اذن بمنأى عن الأحداث برغم ذلك الانغلاق ·

وكان سعد قد أفرج عنه بعد اعتقاله الثانى واستعدت القاهرة لاستقباله وغصت بالخلائق من ساكنيها والوافدين عليها من فجاج الاقاليم ·· واســـتطعت أن أحجـــز فى مقهى ـ كان يســـمى « بيلا قيستا » فى ميدان باب الحديد ـ كرسيا بالاجر فى الصف الاول من الكـــراسى المصـــفوفة أمامه من شـــارع ابراهيم باشا (الجمهورية الآن) وكانت القهوة تشغل مثلثا من الارض رأســه فى الميدان وضلع من أضلاعه على ذلك الشارع والضلع الثانى على شـــارع رمسيس ·

وأخذت مكانى فى ذلك الكرسى ·· واضعا ساقا فوق ساق وفى احدى يدى مذبة (منشة أسيوطى) من سن الفيـل رمز الوجاهة فى ذلك الزمن ، أهش بها على وجهى لاستلفت الانظار على وجاهتى ·· وفى اليد الأخرى لفافة أنفث دخانها ·· ليقول للناظرين أشياء فى نفسى يخجل لسانى من الافصاح عنها ·· وعلى رأسى طربوش « الزفير » سيد الطرابيش فى ذلك الحين ·· أميل به فوق الجبين ·

وصل القطار ·· وأحسسنا أن المحطة يكاد يدكها المستقبلون دكا ·· ثم بدأ الميدان يموج بالخلق ويضيق ·· فاشتعل أوار الاستقبال اشتعالا غير عادى ·· وتاه الحكمدار الانجليزى ومئات الجنـود والفرسان فيما يشبه الطوفان ·· وسقط منهم من سقط ·· وفر من فر ·· واستغرقتنى وجوه من حولى وكلهم شيوخ وكهول ·· وقد دب الشباب فى أوصالهم وجرى الدم فى وجوههم ·· ولم يعد أحد منهم يطمئن فى كرسيه أو يستقر ·· أما الشعب فى الميدان فكان خليطا من الشباب والشيوخ والرجال والنساء ·· وكان شعلة من الجنون اندفعوا الى الركب قبل أن يبلغهم ·· وكان هذا كله يجرى أمامى وأتلقاه بابتسامة ساخرة أرسمها على شفتى ·· وكأننى آت من ترينيداد أو مدغشقر ولا يربطنى بهذا الوطن أى رابط ·

فما الذى حـدث ؟

الذى أذكره الآن ماثلا أمامى بكل جزئية فيه مثيرا فى مشاعرى كل زهو قديم بذلك الزعيم ·· حاملا الى عروقى التى تيبس منهـا الكثير دفقة من دم الشباب كان يجرى فيها فى ذلك الحين ·

الذى أذكره الآن ·· أنى أطلت النظـر يومئذ ـ وقد لاح ركب الزعيم ـ فى وجه هذا الشيخ الفارع العمـــلاق ·· وهو يحيى الجماهير ·· وخيل الى أن عينيه التقتا بعينى وأن تحيته الحرى انما أرسلت الى وحدى ·· وقرأت فى صفحة الوجه المهيب الحبيب أشياء دارت برأسى ··

الذى أذكره الآن أنى فيما يشبه لمح البصر ·· رأيتنى أسبح فى هذا البحر الخضم من الشعب الثائر ·· وأتزعم الشباب من حولى يرددون ما يخرج من فمى وخرجت من فمى يومها هتافات مرتجلة ومبتكرة ·· ومنغمة وملحنة ··

والذى أنكره أخيرا ·· أنى لم أقنع من الغنيمة بالاياب كمـا يقال ·· وانما غدت مواطنا جديدا ·· دامع العينين ·· أضع يدى على رأسى فلا أجد طربوشـــا والتفت الى يدى اليمنى فلا أجـد

« المنشة » والى اليسرى فلا أجد اللفافة ·· والى ملابسى فلا أجد الا مزقـــا ··

عدت الى المقهى لاعيد الى ملابسى بعض ما يمكن أن يعود ·· ولافكر فى طريقة أعود بها الى بيتى من غير أن يقول الجيران عنى أننى خضت عراكا ضاريا وهزمت فيه هزيمة منكرة ··

ذلك هو الموقف الذى أردت أن أشرك القارىء فيه ·· ويؤسفنى أنه يشير الى سر الزعامة ولا يجليه ··

والمرة الثانيـــة ؟

قلت أنى رأيت سعدا مرتين ··

كانت المرة الثانية قريبة من الاولى ·· كانت احتفالا به بعـــد عودته من المنفى بأيام وكانت لجنـــة الوفد بشبرا هى التى أقامت ذلك الاحتفـــال ·

وكان صدى الاستقبال الاول ما زال يدوى فى أذنى وفى قلبى وكان لابد لى من أن أرى الزعيم مرة أخرى ··

واستطعت أن أكون من طليعة المتسللين الى السرادق وأن أجد مكانا فى الصف الثانى من مئات الصفوف ·

وفجأة ساد الوجوم كل الصفوف ··

جاء نبأ يقول أن الزعيم مريض ·· وأن عضوا من أعضاء الوفد سينوب عنه ·· وحلت الضجة محل الوجوم ·· ضج الشعب لان الشعب لا يعرف نائبا لسعد ·· سعد أو لا سعد ··

ثم عاد الهدوء وتهللت الوجوه ·· عندما أعلن أن اتصالا جرى بين لجنة الوفد فى شبرا وبيت الامة ·· وأن الزعيم قبل أن يجىء على الرغم من المرض ·· على أن يعهد الى عضو من أعضاء الوفد بالقاء كلمة الزعيم ·· وكان المهم أن تراه الجماهير مريضـــا أو غير مريض ·

وأخلت لجنة الاستقبال لعربة الزعيم أو (الحنطور) الذى يقله ·· طريقا عريضا بين الصفوف حتى يبلغ المنصة وعندها يترجل فى طريقه اليها ··

وجاءت العربة فعلا واخترقت الصفوف بين هدير الشعب الثائر « المجنون » ولا مهرب للواصف من الوصف المستحيل غير كلمـــة (الجنـــون) ·

وكل الذى أذكره الآن : أن سعدا ارتقى المنصة وهو يتوكأ على عصاه في اعياء ، ومندوب اللجنة يعلن أن الزعيم سيلقى كلمة شكر يعلن فيها اسم الذى أنابه عنه ليلقى كلمته ·

وكل للذى أنكره الآن : أن سعدا وقف وأن الشعب ثار ·· ثار عنى سعد فى هذه المرة ·· وهو يصرخ « نريدك أنت » ·· وامتلأت عيناه بالدموع ·· واهتز شاربه الابيض وبدأ يشد قامته شـــيئا فشيئا كأنما يقوم بتمرين رياضى مرسوم ·· حتى اذا بلغت ثورة الشعب ذراها ·· واهتزت أسلاك الحب بينه وبين الزعيم ·· بدأت شفتاه تتحركان فخفت فى السرادق كل صوت ·· وبدأ سعد خافت الصوت ·· ثم بدأ يبين · ·ثم بدأ يعلو وفى سلم موسيقى ســاحر بدأ الصوت يتصاعد فوق الدرج ·· وبدأ يسرد قصـــة منفاه ·· وما صنع به الاعداء ·· وكيف جىء به بليل يوم ساءت صـحته وأرادوا أن ينقلوه من منفى الى منفى ·· وفى سفينة حربية مغلقة النوافذ مطفأة الانوار تسبح فوق الماء وتحت السماء ·· وفى بحر لجى من الظلمات لتعبر به قناة السويس قناة مصر المغتصبة ·

وانطلق الزعيم يصور مشـاعره وكل مستمع واجف القلب كأن الاحداث جرت عليه هو ·· والشهيق والزفير يسمعان ·· والدموع فوق وجوه الرجال ·· والتأهب للثورة مرسوم على تلك الوجوه فى احتقان ·· وارتفع صوت الزعيم وزمجر ·· فتى فى العشرين أو فى الثلاثين ·· فارع العود عملاق الجسم قوى البنية ·· أربع ساعات متوالية ·· وذراعه تمتد فى الفضـــاء (كما رآه مختار المثال وهو يصنع التمثال) وكل اشارة منه كأنها عصـا المايسترو يوجه بها الفرقة الى النغم ·· وكأن الشعب أمسى رهين الاشـارة تقيمه وتقعده ··

أربع ساعات ·· تدفق خلالها الخطيب « الشاب » واختفى المريض الشيخ فنسينا مرضه وشيخوخته ولم نفكر قط فى أى اشـــفاق عليه ·· وانما هتفنا وهتفنا نطالب بالمزيد ·· وعاد يعطى ويزيد وهو ســـعيد ··

وتلك هى المرة الثانية التى رأيت فيها سعد زغلول ·

وبعـــد ··

فان أسئلة تطالعنى الســـاعة ولا أجد لهـا معنى وان كنت لا أستطيع أن أردها عنى ·· ولا معنى اذن لان أحجبهـا عنك وان كانت لا تحل من لغز الزعامة شيئا ··

أسأل نفسى مثـلا :

هل كان سعد خطيبا ؟

وأجيب ··

نعم ·· وأخطب الخطباء العرب فى القرن العشرين ··

هل كان بليغـا ؟
نعم ·· ولكن فى مصر بلغاء كثيرين ··
هل كان شجاعا ؟
نعم ·· ولكن فى الدنيا كثيرا من الزعماء الشجعان ··
هل كان مؤمنا بالله ؟
نعم ·· ولكن فى الدنيا من هم أشد ايمانا بالله ·· فى الدنيـــا عارفون بالله ·
هل كان عالما ؟
نعم ·· ولكن فى البلد من كان أعلم منه ··
هل كان ساحرا للحسان اللوانى كن يبكين بالدموع وهن يهتفن من الاعمـــاق ؟
لم يقل أحد أن الحسان الشابات يسحرن بمشيب الشيوخ ··
ماذا كان الرجـــل اذن ؟
كان زعيمـــا ··

وهكذا نفسر الماء بعد كل هذا الكر والفر فى ساحة السين والجيم بالماء ·· كان زعيما سواه الله زعيما ·· وهـــو سر كالكهرباء نستضىء بها ولا نعرف كنهها ·· لم يكن له هدف غير أن يحـــرر شـــعبه ··

لم يكن يخشى الموت ·· وهو فى سن ترتقب مقدم الموت فى أية لحظة ·· لم يكن يخشى التآمر على شخصه وانما كان يخشى التآمر على الشعب وقضـــية الشعب ·· لم يكن له ولد يريد أن يثريه أو أن يرقيـــه ··

لم يكن يتطلع الى الملك أو رياسة الدولة ·· فقد عرضوا عليـــه الرياسة ملكية وجمهورية ليحولوه عن طريقه فأبى أن يتحـــول ··
لم يكن مريضا بالامجاد يتلمسها عند الخصوم أو عند الأعداء ·· وقد ذاب مجده فى مجد شعبه ورق الخيط بين المجدين حتى تلاشى وتم الاندماج بين الاثنين ··
هل كان الشعب مجمعا على زعامته فانعدم فيه الخوارج ؟؟

ان شئت الشعب فى حقيقته فقد أجمع على هذه الزعامة ·· وان شئت الشعب بكل اسم فى دفاتر المواليد فقد خرج عليه بعض الناس خرج عليه المرضى بالتمييز الطبقى كالامـــراء والنبـــلاء ومن فى مستوى أمراضهم ·· وخرج عليه طلاب المناصب العليا كالمستوزرين والطامحين فى رياســـة الوزارة ·· وخـــرج عليه المرضى بنفوذ العائلات العريقة بعد أن توارى هذا النفوذ أمام المد الثورى ·· وخرج

عليه المرضى بالارستوقراطية الفكرية من المتعالين على جهـــالة الجماهير ـ المرضى بالزعامة ولم يبلغوها ـ وخرج عليــه المرضى بالولاء للقصر أو للمحتل ليجنوا ما يهفون اليه من الثمر ·· وخرج عليه الجبنـــاء الذين رأوا أن من الجنون تعرض الشعب الاعزل لرصاص الامبراطورية السكرى ·· وخرج عليه المرضى بالحزبيــة الكلامية التى عاشت تقول وهى تحلم « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ·· والتى كانت تطالب بزيلع وهرر ومصوع ··

كل هذه الفرق خاصمت سعدا وخرجت على زعامته ··

ومنهم من التزم حدود المعارضة النظيفة ·· ومنهم من استعدى الأعداء على سعد ·· ومنهم من استعان بالقصر أو بصــاحبه ·· وكان صاحبه يخشى على عرشه من سعد ·· بعد أن سمع الشعب بأذنيه يهتف فى ساحة عابدين « سعد أو الثورة » وانتصر ســعد على كل هذه الفرق ··

وأخـــيرا ··

هل كان سعد سياسيا بالمعنى الذى ورثناه من القرن التاســع عشر ومشى بالركب طويلا على امتداد القرن العشرين ؟

أبــدا ··

كان سعد زعيما ··

نعم كان حكيما ·· وكان بعيد النظر ·· وكان يعرف طريقه ·· وكان يستشير الآخرين ·· ولكنه أيضــا كان عنيدا ·· اذا اقتنع بشىء وأصر عليه ·· وكان عنيفا اذا تشكك فى أى « عظيم » كاشفه بالشك ·· واذا التوى هاجمه فى الوكر ·· وكما فعل مع عبد الخالق ثروت وهو رئيس للوزراء وألقى سعد خطابه التاريخى يقول لثروت فيه « أمامك المنابر فاعلها ان كنت خطيبا ·· وأمامك ·· الخ » الى آخر تلك الخطبة النارية التى رددها الشعب ترديدا ورتل عباراتها ترتيـــلا ··

لم يكن سعد ســياسيا بالمعنى الذى كان ذلك العصر يفهمه من كلمة السياسة ·· كان مصريا وكان فلاحا ·· وكان قاضــيا ·· وكان شـــجاعا ··

ثم رأى أخير

ثم لى رأى أخير أدخل ما يكون فى التعميم الذى اتخذناه طريقا للحديث عن الزعيم ·· رأى تثيره كلمة لشكسبير ·· وقد أخطىء فيه وقد أصيب ··

أريد ان أقول ان سعدا جُمع بين الانواع الثلاثة التى قســم

عليها شكسبير عظماء البشرية (ولد عظيما وصنع من نفسه عظيما وصنعت منه الظروف عظيما) ..

ولد عظيما بما أوتيه من مواهب ..

وصنع من نفسه عظيما بعد أن كان أزهريا فكافح فى تثقيف نفسه حتى عين مستشارا ووزيرا وقاوم جهارا رجلا لا يقاوم .. قاوم (دنلوب) فى وزارة المعارف .. وله معه نوادر تمشى القصة بهـا على وجه الزمن وضاءة مذهلة ..

وصنعت منه الظروف عظيما عندما وضعت الحرب أوزارها ودعا زعماء مصر الى داره .. واتجه مع عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى الى دار الحماية ليقابل سير ونجت ويطلب السـماح للوفد بالسفر الى مؤتمر الصلح فى فرساى ليطالب باستقلال مصر ..

وبعـــد ؟

لم تكن زعامة سعد خافية على عارفيـه بل كانت محجوبة عن الشعب وبنيه ، فقد عرفه نواب الامة قبل أن تعرفه الامة بموقفـه من امتياز القناة وتأسيسه الجامعـة القديمة وبمواقفه فى الجمعية التشريعية بعد أن انتخب وكيلا لها عن الشعب فى مواجهة الوكيل المعين من قبل الحكومة ثم بمواقفه وزيرا للمعارف ..

كانت زعامته معه من مطلع الشباب .. وسنحت الفرصة لهـا وهو شـــيخ لا مطمع له فكان الزعيم من غير اعداد ولا افتراض للهزيمة أو للضـياع ..

ماذا أقول لك عن سعد ؟؟

هل أؤرخ له ؟ أنت تعرف التاريخ .. وتاريخه غير مطوى ..

هل أصوره وأرسم شخصيته وأبحث عن مفتاحها ؟؟

كلا يا أخى ..

انما خضت معك كل هذا السمر على هامش العمـلاق لا أكثر ، خضته معك لنرسم معا فاتحة للكتاب ..

خضته معك لنشترك معا فى شىء واحد .. فى تحية منا اليه .. فى سلام منا عليه ..

عبد العزيز فهمى

وقـــع

اختيارى على عبد العزيز فهمى ليجىء فى الترتيب بعد سعد زغلول لا لان الرجل أولى بهـــذا المكان من الآخرين ·· وانما لانه ثانى الثلاثة الذين ذهبوا الى دار الحماية فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ··

ولقد قرأت مرة لكاتب صديق فى فصل من فصوله نشرها فى جريدة الجمهورية أنه ينكر على المؤرخين اعتبار هذا اليوم بداية أمينـــة للثورة المصرية أو للجهاد الوطنى ويرى أن اليوم الجدير بهذه البداية هو التاسع من مارس سنة ١٩١٩ عندما سقط أول شهيد ·· وليس ما يحول دون ذكر اسم الكاتب : الاستاذ حافظ محمود ·

وفى رأيى أن التاريخ عرف طريقـه الى الحقيقة وأن المؤرخين كانوا محقين عندما قدسوا ذلك اليوم المشهود ، فالثورة لا تؤرخ بسقوط الشهيد الاول فيها ·· وانما ·· تؤرخ باليوم الذى غامر الزعيم فيه فأعلن قيامها ·· والثورة المصرية التى فرشت طريقهـا بالدماء ·· وعمت كل الارجاء ·· وهزت العالم القـــديم فى كل القارات انما صنعها ذلك اليوم وحده وصنعتها الخطوة التى أقدم عليها سعد وزميلاه ··

كان كل شىء معتما ·· وكانت معظم الدول خاضعة للامبراطورية الظالمة ·· وكان المرجو أن تنهزم لينتصر كل مظلوم ·· ولكن الذى حدث أن بريطانيا هى التى انتصرت وخـرجت من الحرب مرهوبة الجانب ، ولم يدر بخلد أحد أنها قانعة بفرض الحماية علينا ··

ولاح أنها مشوقة الى ضمنا الى أملاكها أو الى تاجها ·· فى ذلك الجو المشحون بالرعب وجد فى مصر رجال يضعون رؤوسهم فوق الاكف ويجتمعون فى شجاعة ·· ويتجه الزعيم مع اثنين منهم الى السير ونجت عميد دار الحماية ليطالبوا الامبراطورية السـكرى بالنصر برفع يدها عن مصر ··

هذه المعجزة وقعت فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ ··

وترتب عليها ما جرى علينا ·· من نفى الزعماء وسقوط الشهداء وصحوة الشعب والعراك الضارى الذى ظل يواجه العدو ·· ويطوى المراحل ويكبر لينهض ·· ويتأخر ليتقدم ·· ويتعثر ليستقيم ويخطىء ليصيب حتى تحتم على آخر جندى بريطانى أن يرحل عن أرضـنا بعد أربعة وسبعين عاما من الكفاح ··

كيف لا نؤرخ لذلك اليوم وكيف لا نجل أولئك الرجال ؟

وكيف ـ لهذا السبب وحده ـ لا يجىء عبد العزيز فهمى ثانى الثلاثة ليحتل هذا المكان من هذا الكتاب بعد سعد ؟ ··

ولكن ··· ؟

هل وقف عبد العزيز فهمى عند هذه المشاركة المشرفة كما وقف عندها جهد على شعراوى أو كاد ؟ ··

كلا ·· لم يقف ·· بل امتد وامتد ·· حتى كادت حلقاته تشكل ملحمة من ملاحم الكفـاح ·· مليئة بالخطأ ومليئة بالصواب ·· شأن كل كفاح يخوضه الرواد ··

ولقد حفل الكفاح المصرى الذى بدأ بذلك اليوم التاريخى برجال ·· وهبوا بلادهم كل حياتهم وتفجرت فيهم كل الطاقات التى أوتوها وتركوا بصماتهم على كل المراحل التى قطعوها أو عاشـوها ·· وظلت أنوارهم الكاشفة ·· تنير الطريق الوعر الطويل أمام الابناء والاحفاد ·· وكان من هؤلاء ورغم كل الأخطاء ـ عبد العزيز فهمى ·

ما قلته ·· وما أقوله ؟

وحتى تعرف موجزا لماضيه ·· وحتى تفاضل بين ما أقوله الآن عنه ·· وما قلته بالأمس فيه ·· أنقل اليك فيما يلى ما كتبته عنه من ثمانية وعشرين عاما ··

« شيخ القضاة وكبيرهم ·· والبقية من جيـل انطوى بساطة أو كاد ·· وثالث ـ قصدت ثانى ـ ثلاثة ذهبوا فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ الى السير ونجت عميد بريطانيا الظافرة يومئذ للمطالبة باستقلال مصر وعضو الوفد المصرى فى تاليفه الاول وعضو بارز فى لجنـة الثلاثين التى وضعت لمصر دستورها القائم (يومئذ) ·· واحـد

مؤسسى حزب الاحرار الدستوريين والخطيب النارى فى سرادقاتهم التاريخية التى هاجموا سعدا فيها ورئيس محكمة النقض الذى انفرد بمبادىء جريئة وضعته فى مصاف المشرعين العالميين والرجل الذى اعتزل القضاء والسياسة حينا والتزم بقريته يقيم فيها المساجد ويعلم الجاهل ويطب المريض حتى لم يعد فى هذه القرية أمى واحد ولم يرتد الرجل فى أثناء وجوده فيهـا غير الجلباب والعبـــاءة مستجيبا لدعوة الطبيعة خصما لدودا لتعاليم المدينة وخليفة لمحمد محمود فى رياسة حزب الاحرار بعد أن اشتد بينهم الخلاف وكثر الطامعون فى الرياسة فلم يجدوا حلا الا اخراج هذا الرجـل من عزلته واقناعه بعد جهد جهيد بأن يرأسهم ، وعضو مجلس الشيوخ والغاضب على رياسة الحزب والمستقيل من عضوية الشيـوخ ·· هذا هو عبد العزيز فهمى الذى يتعذر على النقد أن يتجاهله ولو شـاء الناقد » ··

هذا ما قلته عن الرجل من ثمانية وعشرين عاما ··

وواضح مما قيل أن أكثر من ميدان طوف فيه ·· ولكن بعض ماضيه لم يرد له ذكر فى ذلك الذى قيل ·· ولم نقل مثلا أنه كان عضوا بارزا فى المجمع اللغوى ولم نشر الى مشروعه الجرىء الذى نادى به باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى الكتابة مما أثار عليه الناطقين بالضاد فى العالم العربى ·· ولم نشر مثلا الى ترجمته (مدونة جوستنيان) فى الفقه الرومانى وهى مدونة تدق أعناق المثقفين من الاعلام قبل أن يبلغوا من عمق الفهم ودقة الاداء ما بلغه شيخ القضاة وهو يعرض لترجمـــة المدونة بذلك الجهد وهو فى الخامسة والسبعين ··

وأشد وضوحا أن الرجل كان شيئا كبيرا وطاقة لا تكف عن العمل ·· وكان موهوبا لا تعرف مواهبه الهدوء ·· وكان يخرج عـلى أحكام السن فلا ينشد الراحة ولا يعرف المستقر ·· كان جنونا ملؤه العقل ·· أو كان عقلا يبدو لك كالجنون ·· وكان لهـــذا كله أثره على شباب جيله ·· أثر حميد وبناء فى ناحيـــة ، وأثر مدمر وهدام فى ناحية ·· فآمن به بعض الشباب وكفر به بعضهم ·· ولم يختلفوا أبدا أبدا على عظمته وانما اختلفوا على طريقته ·

علينا اذن ونحن نلم بأبعاد القضية ·· ان نطيل التأمل ·

فى تقديرى

وفى تقديرى أن عبد العزيز فهمى كانت تحكمه فى حياته كثير من الصفات والطباع والقيم لها عليه سلطان لم يكن ميسورا له

أن يتمرد عليه ·· ولعل أبرزها العنف والعدل ولعل أخفاها الاعتداد والطموح ·· وبين الظهور والخفاء نزعات كثار غير واضحة فى تفكير فلسفى ونزوع صوفى يناقض الطموح السياسى ·· فترى الدنيا مرة ملء قلبه وتراها مرة تحت قدميه ··

ونعرض أولا للعنف والعدل ـ وهمـا نقيضان فى الاغلب الاعم أو فى الظاهر على الاقل ، فالرجل العادل لا يستمسك بالعـدل فقط وانما يحبه حبا ·· ويتذوق حلاوته بكل مشاعره ولا يسمح للهوى أن يمس قداسته ولو كان فيها انتصار لخصمه (ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ·· اعدلوا ··) ولقـد ظهر الرجل صارما من فوق منصة القضاء فلم يبال عرشا ولم يبـال حكومة ولم يجامل على حساب العدل أحدا ·· ولكن هذا العدل اهتز فى يده فوق كل منصة للخطابة اعتلاها كرجل سياسى ·· باستثناء مواقف دستورية معدودة لعل العدل فيها جاء من قرابتها لروح القضاء أو بسبب الجامع بين الاثنين من روح القانون ·· كخطابه الشهير الذى توجـه به الى توفيق نسيم يهز فيه صـفة القاضى القديم عندما أشرف على وضع الدستور وذكره فيه بحق الله وحق الوطن وحق الضمير ··

ويخيل لى أن عبد العزيز فهمى كان فيه مس من جنون العباقرة ·· ولو أنه كان فنانا ونشأ فى بلد أوربى لكانت له مدرسـة فى الفن يحـار فى فهمها جهابذة النقاد ·· ولكنه خلق شرقيا ·· وولد مصريا ·· ونشأ فلاحا ·· وكان مسلما وأصـبح قارئا وأمسى كاتبا ·· وأصبح قاضيا ·· وأمسى فقيها ·· وأصبح سياسيا وود أن يكون زعيما ·· فتناهبته هذه المتناقضات فكان الذى كانه ·· بخيره الكثير وبشره القليل وبأثره الكبير ·

ومن مواقفه

ولقد يقال أن المبادىء التى أرساها وهو على كرسى شيخ القضاة ·· لم يكن الفضل فيما اتصفت به من الجرأة ·· لصفة الشجاعة فيه ·· وانما كان الفضل للكرسى الذى كان يحصنه ويحميه ·· ولكن مواقفه لا تعزز هذا الاتهام ·· وحسبك موقفه فى قضـية الشيخ على عبد الرازق ، ولم يكن الشيخ قد عين وزيرا ·· ولم يكن قد أصبح باشا وانما كان قاضيا من قضاة المحاكم الشرعية ·· عن له أن يقف فى وجه الملك فؤاد وهو يمهد لنفسه الطريق الى كرسى الخلافة بعد هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الاولى وزوال تلك الخـلافة على يد الديكتـاتور العلمانى والعقلانى مصطفى كمـال

(أتاتورك فيما بعد) وأصدر « الشيخ على » كتابه الشهير (الاسلام وأصول الحكم) ·· وثارت ثائرة الملك وصدر الامر لعبد العـــزيز فهمى ـ وهو وزير للعدل ـ الا يحميه من قبله شىء وأن يفصـل الشيخ من القضاء ويقدمه للمحاكمة ·· بعد أن سحب منه الازهر شهادة العالمية ··

وقرأ الوزير عبد العزيز كتاب الشيخ وثار هو الآخر ·· وصرخ بأعلى صوته صرخته التاريخية : كيف يطلب منى وأنا وزير للعدل أن أناصر الظلم ؟ وبأى حق فى الكتاب أو فى السنة ·· أو فى الدستور أو فى القانون ·· أصادر حرية الرأى وأعتدى على حرمة العلم وكرامة العلماء وكل كلمة فى الكتاب تستند الى شريعة السماء؟

ورفع الرأى الى الملك وجن جنونه وأصدر الى رئيس الوزراء أمره بتكليف عبد العزيز فهمى بتقديم استقالته فورا ·· وكان عبد العزيز قد أعد كتاب الاستقالة فلما قيـل له أنه مأمور بها مزقها وأرسـل صرخته الثانية ·· كلا ·· أنا والملك نحتكم الى نصوص الدستور ·· أنا لن أستقيل ·· وعلى الملك أن يقيلنى بمرسوم ·· أو على رئيس الوزراء ان يقدم استقالة وزارته ويغير أحـــد الحلين لا اقبل ··

ورفع الجـواب الى الملك ·· وهال (جلالتـــه) أن رجلا من رعاياه يرى نفسه ندا للملك باسم الدســتور الذى هو منه لشعبه ·· ورفض أن يقيله ·· وتخطى أحكام الدستور وعين وزيرا جديدا مكانه ·· ورصيت الوزارة بهذا العدوان حتى لا تقال ··

حنانيك يا نشأت

وكانت مصر كلها تعرف يومئذ أن حسن نشأت هو الذى يحكم البلد وأن كل الذى حدث من وحيه ·· فخرج عبد العزيز فهمى الى الجماهير يطرح القضـية عليها ويلقى خطابه الشـهير « حنانيك يا نشأت » وكان المساس بنشأت مساسا بالملك ·· ومس عبد العزيز الذات المصونة ولم يتردد ··

ولعل هذه الوقفة له ·· ترسم لى ولك ·· موقفا تعايش فيـه العنف والعدل ·· أما عبد العزيز فهمى فى خلافه مع سعد أو مع الوفد ·· فالعدل كان يثب من النافذة ، ولا يبقى فوق المنصة الا العنف يعربد فى فضاء السرادق ويفقده كل سيادة على أعصابه ·

السيادة على الاعصاب

قد يكون للاعصاب حكمها ·· وقد عرف الرجل عبر حياته بأنه « عصبى » ولكنك تعجب وانت تراه فوق منصة القضاء يواجه حيل

المتقاضين واستفزاز الدفاع وكل ما يعرض عليـــه من نزاع وفى مختلف الاوضاع ·· يواجه هذا كله برحابة صدر ويغير حـــدود ولا يبالى مركز أحد الاطراف مهمـــا يكن مركزه ·· وينزل الى مستوى الجاهل والفقير والمظلوم لتهيئة الجـــو له حتى يحسن التعبير عما حاق به من الظلم ··

ما هى هذه الاعصاب التى يعقد له لواء السيادة عليها قاضيا ·· ثم يفقد هذه السيادة عليها سياسيا وحزبيا ؟ ··

قال لى مرة أحـــد عارفيه ـ وهو قول يسمع ـ ان الرجل يعتقد أن زعامة الشعب كانت من حقه هو وأن سعدا انتزعها منـــه وغلبه عليها ·· ثم ازداد الموقف سوءا عندما حاول عبد العـــزيز أن يواجه الجماهير وأدرك أنه لم يؤت مواهب القيادة ·· أمام هذه المعادلة الصعبة لم يجد الرجل أمامه الا أن يهدم الرجل الذى توافرت له هذه المواهب ··

ولقد قلت ان مثل هذا القول يسمع ·· عندما ذكرت محاضر الجلسات التى عقدها الوفد فى لندن وباريس برياسة ســـعد ·· ذكرت كيف كان عبد العزيز « خميرة العكننة » فيهـــا والباعث على الفرقة بين الاعضاء ··

ولقد بدا لى وأنا أستعيد ما وعته الذاكرة من تلك المحاضر ·· أن سعدا لم يكن يحبه أو لم يحاول أن يشبع فيه تطلعاته وكبرياءه واعتداده ·· فكانت مواقف عبد العزيز أقرب الى الثأر لكرامتـــه ولوضعه منها الى خدمة القضية الكبرى ··

وخذ ـ من الاعراض العصبية ـ ظاهرة الاندفاع فى حـــالة الغضب ·· لقد كان أحد الثلاثين الذين وضعوا الدستور ·· وكان المفروض فيه أن يكون المحامى الاكبر عن أحكامه والخصم العنيف لكل عدوان عليه ·· ولكن خصومته لســـعد حلت محل الخصـــومة المفروضة فيه لهذا العدوان ·· بل ساقه اندفاعه الى أن يعتـــدى هو على الدستور وأن يحمل عليه ثم رأى أنه تورط ·· فازداد غضبه على نفسه وعلى من حوله وما حوله ولم يجد أمامه طريقا للخروج من الورطة الا أن يطلق السياسة وأن يلعن مع الشيخ محمد عبده فعل « ساس ـ يسوس » وكل ما اشتق من هذا الفعل ··

ولقد خيل الى عنـــدما اندفع و « شطح » وأبدى الآراء التى اعتبرت عدوانا على الدستور والحياة النيابية وقامت قيامة الفقهاء والكتاب عليه وأصر عليها ·· ثم طلق السياسة ·· خيل الى أنه كان يومها أخا نزوع صوفى ·· أنه شطح فى السياسة شطحات

الحلاج فى الصوفية والتقى الاثنان عند مصير واحد ·· والفـارق أن الحاكم الظالم هو الذى أعدم الحلاج وأن عبد العزيز العادل هو الذى أصدر بنفسه حكم الاعدام على نفسه بالانسحاب ··

طـــلاق رجعى

ويبدو أن الطلاق السياسى طلاق رجعى فى الاغلب الاعم ·· لان عبد العزيز اذا هو ترك السياسة ·· فالسياسة نفسها لا تتركه ·· ولقد بحثوا عنه ·· وأخرجوه عنوة من قريته ·· وانتخبـوه زعيما لهم ـ عنيت الاحـــرار الدستوريين طبعا ـ وخلفـــا لمحمد محمود ·· وكان عبد العزيز قد شاخ ·· ولكنه لم يكن قد هدأ ·· وهو حتى الموت لم يهدأ ولقد كافح بكل طاقة ·· بكل ارادة ·· ولكن الوقت كان قد فات ··

ورأيتـــه ؟!

رَأيته فى شرخ الشيخوخة ـ ان صح التعبير ـ رأيته وقد عين عضوا فى مجلس الشيوخ وكانت أول مرة أراه فيها مع الاسف ·· ومن شرفة الصحافة ترقبته حتى أقبل على القاعة ضامر الجسم ·· ·· ناحل العود ·· ورأيتنى عندها أميل الى زميلى ممثل الاهرام وأتلو على غير وعى منى « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا » ··

وبرغم هذه الحقائق التى أطلت علينا منه أو لاحت لنا فيه ·· فقد كان الرجل يهرول فى مشيته كالشباب ·· مبسوط الاسارير أحمدى البساط ·· لا أناقة فى زيه ولا يعنيه من السترة أن تكون موزونة أو مرسلة ·· ولا رباط الرقبة أن يكون من باريس أو من الحمزاوى ·· لقد احتفظ بالنظرة نارية ·· وباللفتـــة شابة ·· وكانت أمنيتى أن أستمع اليه وهو يتحدث ·· وتحققت أمنيتى عندما انفلت ذات يوم الى المنبر ·· وبدأ « يتدفق » ·

من فوق المنبر

وأقول « يتدفق » وأتحفظ ·· بعد أن لاحظت أنه فى تدفقـــه يسترسل ولا يبلغ الغاية أو يغنى ولا يطرب أو يسترسل ولا يجد لاسترساله محطا يقف عنده كما يقول أهل الطرب أو محطة كما تقول لغة المواصلات ··

كانت الحصيلة حصيلة العمر والمعرفة ضخمة ·· وكان شريط المعانى الذى يطبق على ذهنه ·· شريطا طويلا ·· طويلا ·· وكلما أراد أن يركز على معنى بعينه تراءت له حشود المعـــانى فانطلق وراءها واستطرد ·· مبهور الانفاس ·· ثائرا على الضعف وكان

وراءه ملك يأخذ كل سفينة غصبا ·· كان وراءه محمـــد محمود خليل بك رئيس المجلس يومها ـ وعفا الله عن مدرســـته القديمة ـ يطربه أن يجيـد الفرنسية وأن ينقض وهو يرأس الجلسة بمظهره العـــرنسى وشاربه الابيض على أى زعيم كبير وأن يهبط به من مكانه ·· ورأى فى شيخوخة عبد العـزيز الفرصة مواتيـة ·· فطارده بدقات الشاكوش وصلصلة الجرس ·· ليشتت أفكاره ·· فيحتج ويغضب ·· ويبارح المنبر ·· ويقال عن رئيس الشيوخ أنه افترس زعيما ·

ولقد قرف عبد العزيز من رياسة الشـيوخ فتعالى على المجلس ورئيسه ولم يتردد شيخ القضاة فى تقديم استقالته ·· وأدرك رئيس الشيوخ حروجة موقفه فارتدى ثوب الاجلال للزعيم المستقيل وأصر على رفض الاستقالة وأقر المجلس كله هذا الرفض وكان حـــزب الاحرار (وهذا هو دافع الرئيس) مشتركا يومها فى الحكم ··

وأصر عبد العزيز على الاستقالة ·· وأصر المجلس على رفض الاستقالة ·· وظلت معلقة زمنا طويلا ·· وخطا عبد العزيز خطوة خلقية أخرى ·· ورفض قبول المكافأة البرلمانية عن كل ذلك الزمن ·· وأعلن أنه لم يؤد عبره لامته أية خدمة يستحق أن يتقـــاضى عنها أجرا ·· وعبثا حاولت رياسة المجلس اقناعه بأن التقاليـد استقرت على أن يستحق الشيخ مكافأته ما دام عضوا فى المجلس أدى عملا فيه أو لم يؤد ··

وأصر عبد العزيز على موقفه كقاض ·· حتى قبلت استقالته كشيخ ··

وقصة الحروف اللاتينية

ولقد أشرت قبلا الى مطالبته باستبدال الحروف اللاتينية بالعربية فى الكتابة ولقد ظلت هه القصة تهتز فى ميزان المؤرخين والنقـاد زمنا طويلا حتى مضى الرجل الى بارئه من غير أن تحسم المشكلة ·· فمضت هى الاخرى مع بارئها وطواها النسيان ··

وأحب أن أقول كلمة قصيرة ·· مؤمنا بأن القضية قد تثـــار على مستوى المؤرخين يوما ·· أحب أن أقرر أن الرجل كان مسلما ·· وكان مصريا ·· وكان معتزا بمصريته وكان محافظا فى بيته ·· وكان مريضا معظم وقته ·· وكان زاهدا فى زخرف الدنيـــا ومتاعهـا ·· وكان يرمى بالرجعية فى عاداته وتقاليـده ·· وفجأة هاجم المجتمع العربى بتلك الحركة الجريئة التى لا يقوى على مثلها شاب ثائر فى الثلاثين من عمره الا اذا انتمى الى « الهبيز » ··

فهل بلغ جنون الفنان بالرجل المسلم هذا الحد ·· وهل بلغ طموح الزعيم الذي فاتته زعامة الشعب حدا يرج معه الشرق العـــربى كله بهذا التفجير المدمر ؟ ··

هكذا تساءل الناس ·· قال الاكثرون انه الخرف ··

وأرفض أن أقولها معهم ·· فالرجل لم يخرف قط ··

وأرجح أن تكون هذه الخطوة نابعة من تكوينـــه الشخصى ·· نابعة من شجاعته وصراحتـــه اذا هو آمن بشيء لم يكن له اتصـــال بأى نضال حزبى ··

أرجح ـ وقد قرأت ذلك المشروع ـ أن الرجل آمن بأن مشروعه يخدم أمته وينتقل بالاسلام الى عالم الحضارة الغـــربى يقتحمه اقتحاما ·· ويحقق له غزوة كبرى ·· تدك معاقل الفكر الاوربى والامريكى وتعيد الى الاسلام وجهه المضيء ومجده السابق ··

وعلى ضوء هذا الترجيح للمشروع ، أســجل هذه الخطوة فى قائمة الميزات للرجل لا فى قائمة المساوىء ··

بل أكاد أقول ـ ولا أقول ـ ان الانطلاقة التى تمد أبعادها الآن الى أرجاء العالم الاسلامى فى جميع القارات وبقطع النظر عن أهدافها الخفية ان كانت تبطن أهدافا خفية أكاد أقول ـ ولا أقول ـ ان هذه الانطلاقة انما هى أثر من آثار ذلك المشروع ·· أو أثر من جرأة ذلك الرجل ·· عندما فكر فى غزو العالم كله بالحـــرف اللاتينى ·· أو بالعمـــلة الفكرية المتـــداولة فيه ·· أو بالفكـــر العربى أو الحضارة الاسلامية مرسومين بذلك الحرف أو مصكوكين بهذه العملة ؟

وجه آخر للشـــبه

ومن المجمع عليه أن الجيل الذى أنجب عبـــد العزيز فهمى و « العظماء » الذين نتناول فريقا منهم فى هذه الفصول ·· كان جيلا رائدا ·· بكل معنى تحمله كلمـــة الريادة ·· ولم يكن كل الموهوبين من أولئك الرواد يعرفون « العلم » بمعناه الحديث ولم تكن كلمات التخطيط وزميلاتها عرفت فى السوق وكان جل القـــادة من صنع « المواهب » لا من صنع التقدم « العلمى » فى بلادهم ·· وكانت المواهب نفســـها نهبا لعوامل التمزيق بحكم الوضـــع الطبقى والتخلف الفكرى والاحتلال الاجنبى ·· وكانت أساليب التفكير فى صراع خفى مستور بين خريجى الازهر وأساتذة الجامعة القديمة ·· وقلة من أبناء الاغنياء أرسلتهم أموال الآباء الى أوربا وبدأ بعضهم

يعودون الينا ·· بمظاهر الحضارة أو بقشور السلوك ساخطين على كل شيء فى البلد ··

وفى هذا الجو وجد عبد العزيز فَهمى وأترابه ·· وأصروا على أن يثوروا وجاءت ثورة سعد فرفعت الغشـــاوة عن كل عين ·· وفتحت الطريق أمام كل ثائر وهرع اليها المتازون ·· وفى طليعتهم عبد العزيز ··

وتوالت الاجتهادات ·· وتعددت الآراء ·· وكان طبيعيا أن يولد الخلاف وأن يوجد الانشقاق ·· وأن يلتقى الاشباه والنظراء ·· فالتقى منهم فريق بفريق وابتعد منهم فريق عن فريق ··

ويخيل الى أن اثنين منهم على التخصيص ـ تقاربت فيهمـــا المواهب الى حد عجيب وباعدت بينهما الصـفات والاساليب الى حد صارخ ·· والتقى الاثنان عند الرغبة فى « الاصلاح » وأعنى بهما عبد العزيز فهمى ولطفى السيد ··

وحسبى وأنا أكتب هنـــا عن عبد العزيز لا عن لطفى أن أنكر لك أن أشهر ما خلف لطفى للاجيال ترجمته الرائعة لارسطو ·· مما حمل المعاصرين على تسـميته « أسـتاذ الجيل » كما أسمى الاقدمون أرسطو « المعلم الاول » ولم يقم لطفى بتلك الترجمة ليقال « ترجم وأحسن » فقد كان لطفى أكبر من الترجمة والاحسان فيها ·· وانما كان لطفى مفكرا حرا ·· وجد فى أرسطو الضـــالة المنشودة ·· تمهد لتفكيره الطريق ·· أمام شباب جيله وكل شباب يليه ··

نفس التفكير كان يراود عبد العزيز فهمى فى ميدان تخصصه·· فلما شدته أحداث السياسة الى ميادين أخرى ·· ظل حنينهموصولا بنفس التفكير حتى عكف وهو فى الحلقة الثامنة من عمره علىترجمة مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى لتمهد أمام المشتغلين بالقـانون والتقنين التفكير المجرد والسليم ·· رجاء أن يعم النور الطريق أمام كل جيل ·· بعد أن أصبح للبلد برلمان ودستور ·· وأصبح للشعب قضية ·· هى قضية المصير ··

والتقى الاثنان أيضا فى عملية الفكر وضآلة الجسم وحب الحرية ورفض التبعية ، عثمانية كانت أو بريطانية ·· ولكنهما اختلفا فى الوسيلة ·· فى الشكل وفى كل ما يمس قداسة الجوهر ·· حتى الزى نفسه ·· كان عبد العزيز كما قلت أحمدى البساط فى طريقة المعيشة لا يبالى الاناقة وكان لطفى السيد انيقا مفرطا فى الاناقة حتى أسماه أصحاب النكتة وهو فى شيخوخته «موديل» و«مانيكان» ·

وكان لطفى مقلا فى الكلام ·· كمفكر ·· وكان الكلام حرفة عبد العزيز كثائر · ومن الريف خرج الاثنان ·· وفى المدينة اختلف الاثنـــان ··

وكان لطفى يفكر فوق السطح وفى الاعماق ·· وكان عبد العزيز يعيش فوق السطح كسياسى وثائر ولا يلجأ الى الاعماق الا عندما ينسلخ من السياسة ليعالج قضايا الفكر والمعرفة كقضية الحروف اللاتينية أو مدونة جوستنيان ··

والتقى الاثنان أخيرا ·· فى أبرز جامع بينهما ·· فلم يترك أحد منهما مؤلفات مطبوعة تعد على أصابع اليد ·· ودع عنك العشرات ·· ولكنهما تركا أفكارا ظلت تحدو الركب فى مختلف المراحل وأثارا قضايا كانت ولم تزل كل حوار وجدل ·· وترك الاثنان على الطريق بصمات لم تستطع أقدام الرجال التى اجتازت الطريق بعدهما أن تمحوها ··

وبعـــد

فعبد العزيز كانت له جولات أخر ·· لم نشأ أن نسهب فيها ·· ولقد طالب بالغاء تعدد الزوجات وقـــوبل المطلب بالاحترام على نقيض قضية الحروف اللاتينية وكان عبد العزيز كسعد زغـــلول خصما للامتيازات الاجنبية وظل العمر يهاجمها حتى أزيلت وصمتها ·· وكان عبد العزيز كسعد زغلول خصما للمحـاكم المختلطة وظل يطالب بالغائها حتى ألغيت ·· وكان شاعرا لا يشق له غبار، وأربت آخر قصيدة له على مئات الابيات فأسماها العـــارفون « ثامنة المعلقات » ولم يتسامع بها رجال الادب ·· وكان مثلا يضرب للوفاء الزوجى فعاش عمر الزهور مع زوجته الشابة وماتت فى الشباب فاضرب عن الزواج الى أن مات !

وكان عبد العزيز صديقا وفيا ورجلا ·· وقال عنه طه حسين انه فى ابان محنته بسبب كتابه « الشعر الجاهلى » كان هناك رجل واحد لا ثانى له يلم بدارى مرات فى كل أسبوع فيتحدث الى ويطيل الحديث الخ الخ ·

ولقد أطلت الحديث أنا الآخر ·· وهو يستحق المزيد من الطول

فليغفر القراء لنا هذا التقصير ·· وليغفر الله للزعيم الكبير كل خطأ وقع فيه ··

على شعراوى

ها نحن

أولاء نواجه ثالث الثلاثة على شعراوى باشا ٠٠ وليس بين القراء ـ قراء الصحف على الاقل ـ من يجهل اسم على شعراوى الا ان جهل اسم سعد زغلول وعبد العزيز فهمى و١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨٠ ولكن هذا القارىء الذى لا يجهل اسم على شعراوى ٠٠ ما الذى يعرفه عنه ؟

كل ما يعرفه ـ باستثناء القلة العارفين من القراء ـ أنه أحد الثلاثة الذين طالبوا الانجليز باستقلال مصر فى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ٠٠

استطاع الرجل اذن أن يربح من وراء ذلك اليوم التاريخى ربحا غير مسبوق فسجل اسمه فى قائمة الخلود من غير مجهود ٠٠ ودخل التاريخ من باب واحد اسمه باب المصادفة فتح مرة ومضى مع الايام الى غير رجعة على حين أن زميليه خاضا بعد ذلك بحـــرا لجيا من الكفاح ومعارك ضارية فى الخارج والداخل وقضى كل منهما ـ بطريقته ـ بقية العمر فى العراك فكان يوم ١٣ نوفمبر بداية لتاريخه حسن ذلك التاريخ أو ساء ٠٠

وقد يكون من حقنا أن نتساءل هل كان على شعراوى عـلى ضوء هذا الوصف ظالما أو مظلوما ؟ وهل كان ظالما للتاريخ ٠٠ تاريخ المشاهير ٠٠ عندما خلد اسمه بسبب مشوار مريح فى عربة ملاكى تقله مع اثنين من عظماء البلد الى دار الحمـــاية ليقولوا

للمعتمد البريطانى ان الوقت قد حان لانصاف البلد ؟ أو هل كان شعراوى مظلوما بعد أن قام بدور جرىء من أدوار البطولة ·· ثم لم يعد أحد يذكره بخير أو بشر أو لم يعد أحد ينكـــره بغير ذلك اليوم الاغر ؟ ··

قد تهتدى الى جواب قبل أن تنتهى من قراءة هذا الفصـــل من الكتاب ··

قصة تروى

وفى تقديرى أن على شعراوى باشا كانت له قصة ، وقصة تستحق أن تروى ، ، وتستحق من كل مؤرخ معـــاصر أن يفتح لها أذنيه ··

وفى نيتى أن أكون الراوى ·· فى حدود معلوماتى ··

وهذا يعنى ــ من ناحية المنطق ــ أنى رأيت الرجل وعاصرته وقد يعنى أنى عاشرته أو عرفته ·· فأصبح من حقى أن أروى قصته ··

وقد تعجب أنت ــ وقد يغضب المنطق ــ اذا قلت لك أنى لم أر الرجل فى حياته ولم تقم صلة بينى وبينه ·· وكل ما رأيته صور نشرت له فى بعض الصحف أو فى بعض المناسبات ولكنه قدرى ··

قدرى أنى ولدت ونشأت فى قرية قريبة من قريته ·· وأن سيرة الرجل يرويها كل شيخ فى كل قرية من قرى ذلك القطاع أو ذلك الاقليم أو ذلك المركز ·· مركز المنيا ·

وحصيلتى اذن هى « الحواديت » ترامت الى أذنى من الطفولة وعبر الشباب كما كانت تترامى فى ذلك الزمن الى كل طفل والى كل شاب ·

وقد ترى أن « الحواديت » ليست وثائق وليست أسانيد ·· وليست مادة صالحة للتاريخ ·· والرأى سديد فى عالم التجربة من غير شك ·· ولكنه غير سديد عند التطبيق على هذا «الزعيم» ذلك أن هذه « الحواديت » انما رويت فى حياته ·· ومن معاصريه وعلى مسمع من ذويه ·· ·· وتواترت موصـــولة التواتر على مسمع من العدو والصديق ·· ومن الشيوخ الذين شـــهدوا مولدها ·· والرجال الذين عاصروها ·· لنتلقاها نحن الفتيان عنهم · ثم لنحملها الى العاصمة فى رؤوسنا ·· ثم لنرى ما تعنيه فى تطور الاحداث التى تتصل بزوجته وولديه من بعده ··

والتواتر ــ كما لابد أن تعرف ــ قل أن يضل ··

وحتى فى علم « الحديث » يعتبر التواتر من أقوى الدعائم وله حجيته وقد يحدث أن يخالط الخطأ أو التهويل مسيرة الحـــدوتة

المروية .. فى جزئية أو أكثر من جزئياتها .. ولكن الحدوتة فى جوهرها تظل قائمة وسليمة ..

من هـو ؟

على شعراوى من « المطاهرة » محافظة المنيا ـ و « المطاهرة » بفتح الميم والطاء وتسكين الهاء وفتح الراء اسم يطلق على أربع عشرة قرية تتميز كل منها باسم خاص بها ـ اذا لزم الامر وقريته (وقد لزم الامر) اسمها بنى محمد شعراوى منسوبة الى جده أو الى أسرته ..

واسمه بالكامل على حسن شعراوى واسم أبيه « حسن أغا » يعنى أنه ظفر من الوالى بلقب تركى ويعنى أيضا أنه كان من الاعيان البارزين وقيـــل أنه كان يملك ثلاثين فدانا .. وعـــلى شعراى على ضوء هذه الاوضاع فلاح وابن فلاح .. و

وكان أبوه حسن أغا .. رجلا طموحا ونكيا أى أنه يبحث عن طريق تؤدى به الى المسجد بلغة ذلك العصر .. وقد لاحظ أن لمحمد سلطان شقيقة اسمها آمنة وبلغـة الصعيد الاوسط « يامنة » تخلى عنها الجمال وفاتها قطار الزواج وأخـوها اذن يرحب بالفـــلاح الثرى الذكى حسن أغا زوجا لشقيقته التى لم يتقدم لخطبتها أحد .. مع أنها طريق الى المجد من غير شك .. وتقدم حسن أغـا فخطب لنفسه شقيقة محمد سلطان .. أما كيف كان محمد سلطان طريقا الى المجد .. فأمر لا يمكن أن يخفى على مثل حسن أغا .. محمد سلطان كان يمشى الى العلا بخطى سريعة مذهلة .. ولم يفشل أبدا فى أى خطوة خطاها .. وكان يومهـا فى منصب يكاد يعادل منصب « مأمور المركز » أو « مدير المديرية » والطريق أمامه كما قلت سلطانى مفتوح ..

ومحمد سلطان كان فى نشأته جمـالا ـ بفتح الجيم وتشديد الميم ـ يحمل الاحجار التى تقطع من المحاجر فى الضفة اليمنى للنيل فوق جمله ـ أو فوق جماله لقاء أجر معين واستطاع أن يكون شـــيخا للبلد .. ثم عمدة لها .. وأن يصـل حباله بأسرة الشريعى باشا وأن يأخذ الشريعى بيده الى المناصب الرفيعة بسبب كفايته وذكائه ورغم جهالته وأميته ولم ينتظر حسن أغا حتى يصبح محمد سلطان وزيرا أو باشا فيتعذر النسب وانما خطب آمنـــة ومحمد سلطان فى بداية الطريق ..

محمد سلطان هذا هو أخيرا محمد سلطان باشا رئيس المجلس النيابى فى عهد الخديوى توفيق .. وخصم الثورة العرابية اللدود

.. وقائمقام الخديوى عندما احتجز فى الاسكندرية تحت حماية الاسطول البريطانى .. والرجل الذى كانت نريته تباهى الآخـــرين بأنه « قعد على كرسى الخديوى سبعة أيام » .. والفلاح الـذى أثرى بسبب خصومته لعرابى .. وعندما مات محمد سلطان ترك اثنى عشر ألفا من الفدادين ..

ثراء شـعراوى

والمؤكد أن على شعراوى باشا مات هو الاخر عن تسعة آلاف من الفدادين فكيف حصل عليها وكان رجلا صالحـــا ولم يكن يرضى حراما ؟ ..

واذا كانت الفلوس تجىء بالفلوس كما يقولون فكيف حصل على الفلوس الاولى التى أحسن استثمارها حتى أثرى ؟ ..

فى قرى المنيا رواية متداولة تعززها الاسانيد .. وان كانت متواترة .. قيل أن الخديوى أراد يوما أن يمسح أرض مصر أو ما يســـمونه « فك الزمام » ليحتفظ بمـــا يشـــاء ويهب ما شـــاء للمقربين والعبيد من أرض المصريين فتكونت لجان أو لجنة عليا ـ لا أدرى ـ عهد برياستها الى محمد سلطان فلما بلغت اللجنة مركز المنيا ـ وكان ابن أخته على شعراوى طفلا صغيرا ـ سارع حسن أغا فأرسله الى خاله فى الغيط ليراه أو يفرح بمرآه .. وكانت اللجنة تنظر فى قطعة أرض لا مالك لهـــا وتبلغ مساحتها خمسمائة فدان فمال محمد سلطان على أعضاء اللجـــان وقال لهم مازحا انها أرض سبخة ولا خير فيها .. وأحسن لكم تخلصـــوا منها وتدوها للولد ده يمكن أبوه يقدر يصلحها وضحك الاعضـــاء وأقروا الهدية .. وشب على شعراوى الطفل وهو يملك خمسمائة من الفدادين .. كانت الاساس لكل ما أدرك من ثراء ..

وهدى شـعراوى

شب على شعراوى وفى فمـــه هذه القطعة من الارض أو هذه الملعقة من الذهب وكان فلاحا بكل ما تعنيه الكلمة وكان على الجادة من حيث الشعائر وتزوج من فتاة تناسبه وأنجب منها ولده الاكبر حسن (حسن باشا شعراوى فيما بعد) .. ولكن خاله محمد سلطان باشا قد بلغ ذروة المناصب .. وكان الخديوى قد أهدى اليه جارية بيضاء أنجب منها عمر (عمر سلطان باشا فيما بعد) وهدى (هدى شعراوى فيما بعد) .

ورأى على شعراوى أن يتشبه بأبيه فى البحث عن الطريق الى المجد فتقدم الى خاله يخطب ابنته هدى .. كان على شـــعراوى

يومئذ رجلا جاوز الشباب وأحرز الثراء وحمل رتبة البكوية ·· وأبا لحسن وزوجا للريفية ·· ولكن خاله رأى أن من حق عـــلى شعراوى أن يتزوج هدى ابنة خاله الفتاة الفاتنة المثقفـــة نزيلة القاهرة ·· لتفتح أمام ابن عمتها طريقه الى المجد ··

وتموج قرانا بالروايات والاقاصيص عن ذلك الزواج العجيب ·· ولكن الذى يعنينا من حقائق مسلم بها أن هدى رفضت ذلك الزواج رفضا وأن أباها أرغمها عليه ارغاما ولما كان للوالد فى ذلك العصر كل « الحق الالهى » فى اختيار الزوج لابنته ·· فكل ما استطاعت هدى الصغيرة أن تفعله ·· اشتراطها أن تقيم فى القاهرة ·· وأن تكون الكلمة العليا لها ·· وألا يطالبهـــا الزوج « العجوز » بما يسونه طاعة الزوجة ··

وضحك محمد سلطان الوالد وابن أخته الخاطب ·· واتفقا على أن يقولا لها « موافقون » والزمن خير كفيل بترويض الجموح ··

ولكن الزمن لم يروض هدى لسلطانه ·· وانهار على شعراوى ·· ولم يجد بدا من الرضوخ ·· ومضى أبوها الى بارئه فأصبحت هدى غنية ·· فاذا أضفت الى غناها ثروة زوجها وقد وضـــعها شعراوى تحت تصرفها ·· فنحن اذن أمام سيدة مثقفة وجميـــلة وثرية ·· ومن حقها أن تبحث هى عن الطريق الى أمجادها ·· بل شاء القدر ما لم يدر لها بخلد ·· فعين على شعراوى وصيا على شقيقها الصغير « عمر » فكأن هدى قد دانت لها الحسنيان فوق ثروة أبيها وثروة أخيها وثروة زوجها ·· واســـتقرت فى قصرها الساحر على ناصية شارع قصر النيل ··

وتسألنى لم كل هذه التفاصيل وما علاقتها بثالث الثلاثة ؟ ··

والجواب : لها كل العلاقة ، لها علاقة بكل تاريخ الرجل ·· بل لها علاقة بعضويته فى الوفد ·· وباليوم الاغر ١٣ نوفمبر ·

لكيلا ننسى

ولكيلا ننسى فضـائل الرجل الـذى أحب زوجته على مسـتوى العبادة ·· عمل على تحقيق كل مجد هفت اليه ·· لكيلا ننسى هذه الفضائل أجب لك أن تعرف أن على شعراوى كان رجلا مهيب الطلعة جليل المشية تقيا صالحا ·· عرف فيه معاصروه صـفات الطهارة والاستقامة من بدء حياته حتى نهايتهـا ويروون عنـــه أقاصيص تكاد تلحقه بركب العارفين بالله ··

ولقد شاء القدر أن يكون وصيا على عمر ـ شـقيق هدى كما قلت لك ـ ثم شاء القدر مرة أخرى أن يموت عمـر بعد الثلاثين

فيعين على شـــعراوى وصيا مرة أخرى عـــلى أولاد عمـــر ..
وقد يروقك أن اختار لك من أقاصيص المنيا نادرة من النوادر التى تروى عن على شعراوى التقى الصالح لعلك تعجب لتشـــابك الاجيال وعنف المتناقضات التى بدأت تتعايش على مطامع القـــرن العشرين تحت سقف واحد ..

طهارة الرجل

مات عمر سلطان باشا فى عمر الزهور كما قلت وأقيم له فى مدينة المنيا مأتم تاريخى لم تشهد مصر مثيلا فى تاريخهـــا ظل قائما أربعين يوما واجتمع فيه مشاهير القراء من الاقاليم والقاهرة .. وذات ليلة من لياليه كان من المعزين فيه رجل من العارفين بالله لعله الشيخ أبو العيون الكبير ـ اذا لم تخن الذاكرة ـ وفجـــأة أصاب الاعماء أحد الاعيان من المقربين وكان محبوبا من كل الناس فاتجهوا جميعا الى ولى الله أو العارف بالله وابتسم الشيخ الوقور وقال للحاضرين عبارة وجموا لها وساد السرادق المهيب وجوم رهيب وقال العارف بالله للحاضرين ما معناه :

ـ ان كان منكم رجل لم يرتكب فى حياته جريمة الزنا ولا اللمم المحيط بها . فليخلع سرواله وليطرحه على المريض ليشفى باذن الله.

وكانت اللطمة قاسية لآلاف المعزين من خلاصة القاهرة والاقاليم.

رجل واحد تقدم الى ولى الله فى ثبات وهو يهمس فى أذنيـــه « أنا يا مولاى » وقال ولى الله : « نعم أنت .. وأنت الذى أعنيه ».

وكان ما قاله العارف بالله .. وفتح المغمى عليه عينيه ومن الله بالشفاء العاجل عليه .. تلك لمحة عن شهرة الرجل بالتقـوى بين معاصريه ..

وسيان عندى أن يكون الحادث قد وقع على هذا النحـــو وكما رواه لى بعض معاصريه أو كان مبالغا فيه أو لا أصل له كمـــا يحلو لنا أن نعلق فى عصر العلم على مثله ..

ومع هذا

ومع هذا .. أو برغم هذا .. ومع اسراف هدى زوجتـــه أو برغم اسرافها .. فقد كان ذلك الرجل التقى الغنى شحيحا مسرفا فى الشح أو هكذا شاع عنه ..

لم يكن بخيلا فى بيته لان هدى هانم كانت سيدة البيت وكانت كريمة .. ولكنه كان بخيلا على الناس الذين يتعامـــلون معه ويطمعون فى بره .. وكان بخيلا على الفقراء الذين يفدون عليه ويطمعون فى كرمه ..

وبالغ الخلق فى التشهير بذلك العيب فيه ·· ولم يصدق معه رأى الشاعر الذى قال في مثله « كفى المرء نبلا أن تعد معايبه » ··
وضاعف العيب أن عمر سلطان باشا كان كريما الى حد السفه ·· وكانت له هارونيات شاعت بين الجماهير ·· فلم يكن أمام على شعراوى سبيل الى اثبات كرمه حتى لو أراد أن يثبته ·

قصة الوفد

برغم ذلك التشهير كان على شعراوى محترما من الجماهير فى المنيا ، فلما جاء دور الجمعية التشريعية اختارته الجماهير نائبا عنها فى الجمعية ثم أعلنت الحرب العالمية الاولى وعطلت جلساتها وعلى مطلع الهدنة بدأ التحرك السياسى بين الزعماء فى بيت سعد، بدأوا يجتمعون ويتناولون الرأى ووجهت الدعـــوة الى كثير من أعضاء الجمعية التشريعية ليدلوا بآرائهم وكان من بين المدعوين على شعراوى بوصفه من النواب الصعايدة البارزين والمثرين ··

وكان المفروض ألا يلبى الرجل هذه الدعوة لو أنه ترك لطباعه وميوله كان رجلا مسالما وكان معنيا بمزارعه وشعائره ·· لم يكن من الصنف الثائر على أحد ، فدعوته الى الثورة على المحتـــل المنتصر ·· مغامرة أغلب الظن أنها لا تساير طبيعتـــه ولا تماشى ميوله ·· ولكن المجد يطل برأسه على بيته ·· مجد الزعامة ومجد السياسة ومجد التفوق وفى بيته تحفة أوتيت شبابا وجمالا ومالا وثقـــافة ··

فى بيته هدى التى ظلت طويلا تتطلع الى هذه الفرصة ·· وهى تعرف أن أبرز ميزة فى زوجها يرنو اليها الداعون هى المال فمـا ضرها أو ضره اذا سخا بهذا المال فى سبيل الوطن ؟ لو أنه فعـل لشق طريقه الى المجد ولعرفت هى كيف تتابعـــه ودقت اذن ساعة النصر ··

وتم الاتفاق بين على شعراوى وهدى على أن يسجل لها هـــذه الخطوة الجريئة فى الطريق الى المجد ··

ولبى على شعراوى الدعوة ·· واتجه الى بيت سعد ··

وقال أحد أصدقائه وأقربائه ان أول كلمة قالها ·· سؤال توجه به الى المجتمعين معناه أن الحركة عايزة فلوس ·· انتم مستعدين ؟ وقبل أن ينتظر الجواب أعلن أنه من ناحيته يفتتح التبرع بمبلغ كبير فاق كل تقدير لسعد ··

ويؤكد محدثى أن ذلك الموقف المشرف كان سبب اختياره ليكـون ثالث ثلاثة يذهبون الى سير ونجت يطلبون باسم الوفـد والشعب

الترخيص لهم بالسفر الى باريس لتقرير مصير البلد وأن هـــذا الاختيار ملأه عزة وشموخا فكان أطولهم لســانا على ســير ونجت وأشدهم عنفا فى المطالبة باستقلال مصر ..

أما الساسة المعاصرون فيقولون ان التبرع حصل ولكن الاختيار لم يكن بسبب التبرع وانما روعى فيه تمثيل الوجه القبلى به كما روعى تمتين الوجه البحرى بعبد العزيز فهمى غير الاقطاعى ..

ولا أستطيع فى تصورى أن أسقط من حسابى أثر التبرع بالمال .. وكان فى وسع المجتمعين اختيار رجل مثقف مثل محمد محمود باشا مثلا ليمثل الوجه القبلى .. وأيا كان الرأى فقد شاء القـــدر أن يكون على شعراوى ثالث ثلاثة وأن يدخل التاريخ من ذلك الباب العريض .. وليس عيبا ـ بل لعله الشرف كله ـ أن تكون زوجة الرجل وراءه فى تلك الخطوة الكريمة التى خطاها ..

لقد كانت وراءه .. ثم وقفت معه .. ثم أمست أمامه ..

كان قدرها .. أن تكون هذا .. وكانت قدراتهـــا تؤهلها لكل تلك الخطى ..

وثار الشعب وثارت هدى

كانت وراءه يوم دفعت به الى رفقة الثوار والرجل من أنصـــار السلام وكانت معه عندما ثارت معه بعـــد أن ثار الشعب وثارت الزعامة ..

لقد دقت ساعة النصر كما قلت ..

ورأت هدى أن الوقت قد حان لكسر السوار الذهبى الذى كبلت به المرأة وخرجت هدى على رأس المظاهرة التاريخية تتحدى هى وكرام العقائل والعذارى حراب الإنجليز وضرب الجند من حولهم الحصار وتقدمت هى فى ثبات الى كبيرهم تمزق نقابها وتعلن فى صوت جهورى أنها حرم على شعراوى باشا وأنها مستعدة لاستقبال رصاصهم الغاشم فى سبيل استقلال مصر ..

وخجل قائد الجند وأمر بفك الحصار ..

وفى هذه اللحظة ولدت حركة التحرير للمرأة ولدت النهضة النسوية.

وفى هذه اللحظة طويت صفحة العبودية للمرأة وبدأت صفحة الحرية

واختلت الصفوف

وحدث الخلاف المعروف بين سعد وفريق من أعضاء الوفد ووقع الانقسام وكان السعديون ومعهم الشعب كله وكان العدليون الذين تطوروا الى «حزب الاحرار الدستوريين» ..

ولاذ طـــلاب السلامة بالعدليين وكان على شعراوى منهم ..

وكان انحيازه مقدمة لانسحابه من الكفاح السياسى كله واعتصامه بمزارعه المربحة وهى ما يسر له أصلا ..

ولكن هدى لم تنسحب .

لقد غدا تحرير المرأة هدفا لها بعـــد أن ارتفعت راية صـــفية زغلول « أم المصريين » على سارية السياسة .. وتركت هدى للساسة مهمة تحرير مصر أو تحرير الرجل وأصبحت هى أى هدى زعيمـــة لنهضة المرأة وكان ثراؤها سلاحا لا يفل ..

ومن عجب أن سيزانبراوى كانت سكرتيرة لها من نصف قـــرن مضى كانت أحـــد الرمـوز الى التقدميـــة التى رفعت هـــدى رايتهـا ويدور الزمان ونسـمع فى ســـنة ١٩٧٠ أن سيزانبراوى منحت وساما روسيا رفيعا يجعل منها رمزا معاصرا « للتقدمية » الجديدة وكما يفهمها النصف الثانى من القرن العشرين ..

كانت هدى قد أحسنت اسـتخدام المال فى الدعاية لاهدافهـا وازدادت قوة بعد وفاة زوجها ، وفى عملية تعويض عما فات شبابها من حرية وانطلاق .. فتحت كل الابواب أمام الخير وأفاد كثيرون من النابهين الذين طرقوا بابها الخير .. وليس من العيب بل لعـــله من الشرف أن نقول للقراء أن الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد صاحب « ما قل ودل » سافر الى السوربون ودرس على نفقة هدى شعراوى واستطاع أن يبرح وظيفة تناهت فى الصغر وبضعة قروش فى مصلحة البريد ليعود الينا كاتبا كبيرا يشار اليه بالبنان .. وأخيرا ..

وأرانى أخيرا فى حاجة الى الاعتـذار عن هـذا الاســـتطراد .. ولكنه استطراد عضوى فى حقيقته ولا خروج فيه على موضوع الفصل وهو على شعراوى .. فذهاب على شعراوى مع سعد وعبد العزيز فهمى الى دار الحماية كان بداية لكل ذلك الاستطراد .. لزعامة هدى .. لسفر الصاوى .. للمعان سيزانبراوى .. لانشاء الاتحاد النسوى .. للمشاكل التى أثارتها هدى .. لصوت المرأة الذى اجتاز البحر على يديها .. لتلتقى بصوت المـــرأة فى أرجاء العالم المتحضر .. لكثير وكثير مما تم على يد هـــدى ولا محل للافاضة فيه لان الحديث هنا عن زوجها وليس عنها ..

بل لعل من الاستطراد اللطيف أن نقيد لحساب على شعراوى أثر سلوكه على ولديه حسن شعراوى ابنه من الزوجة الاولى ومحمد شعراوى ابنه من هدى هانم وان يسترعى انتباهنا قانون الوراثة وما صنع بهذه الاسرة ..

ورث حسن شعراوى عن أبيه خلة البخل أو الشح ..

وورث محمد شعراوى عن أمه هدى بل عن خالة عمـــر باشا سلطان خلة الكرم وحصل محمد شعراوى على ليسانس الحقوق وخاض غمار السياسة والتوت عليه الطريق حتى التقينا به عضوا فى مجلس الشيوخ « قرفانا » بعد أن أصـــلته السياسة طموحا واستخدم حسن شعراوى المال كما استخدمه أبوه فرشحه الوفد مرة فى احدى دوائر الشيوخ فى المنيا .. وعاد فتركه ليحصل عـــلى الباشوية ثم قعدت به همته عن مواصلة السير فلاذ بقصره من غير أن يترك على ميدان الشهرة أية بصمة ..

وأسرف محمد فى « القرف » حتى أغرق نفسه فى الشراب .. وتزوج فى صدر شبابه من مطربة المسرح الاولى فى زمانه ـ فى مسرح الازبكية السيدة فاطمة سرى وطلقها بعد أن أنجب منهـــا فتاة وكانت قضايا .. وكانت أحاديث ..

بل لعل الشائعات وأعتقد أن ذويها بالغوا فيها ـ لم تعف هدى نفسها من القيل الذى يلحق بالمشاهير من باب التشهير .

وتعب قانون الوراثة فى مجابهة العصر الحديث فاخلى الطريق أمام الابناء يشرقون ويغربون .. ولم يرث أحد منهم عن عـــلى شعراوى العارف بالله أية صفة من صفات التقوى .. أو لم يجن اية ثمرة من ثمارها ..

وهكذا دخل على شعراوى التاريخ فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ وتاه فى سراديبه فلم يتتبع أحد من المؤرخين مسـاره حتى ذهب الى بارئه رحمه الله ثالث ثلاثة ..

طلعت حرب

رأينا

أن ننقل فيما يلى ما قاله سير ويليامز لامبسون السفير البريطانى عن طلعت حرب فى تقريره السرى المرفوع الى وزارة الخارجية البريطانية ليقارن بين رأى السفارة فيه ورأيى كمواطن ٠٠ قال سير ويليامز لامبسون من ثلاثين عاما عن طلعت حرب :

« عضو مجلس الشيوخ ولد حوالى سنة ١٨٨٠ انه رئيس مجلس ادارة شركات بنك مصر وغيرها من المنشآت الصناعية والمصرفية التى يبلغ عددها الان ١٦ منشأة ، تلقى تعليمه فى مدرسة الحقوق ، وكان لفترة ما وكيلا لدائرة سلطان باشا حيث بدأ يجمع ثروته ـ أحد مؤسسى صحيفة (الجريدة) لسان حال حزب الامة من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١٤ عين لتدريس الشئون المصرفية فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٧ ـ واشتعل حماسا للدعوة لتنفيذ مشروع ظل يحلم طويلا بتنفيذه وهو انشاء بنك مصرى مستقل عن رأس المال الاجنبى ، وأثرت دعاياته فى تصورات المصريين وانشئت شركة بنك مصر فى سنة ١٩٢٠ وقد تعرضت الاساليب التى استخدمها البنك الى النقد ووصفت بانها غير مامونة الجانب لكن الفضل فى استمرار البنك يعود بلا شك الى جو الشعور الوطنى الذى مارس فيه أوجه نشاطه ، ويقتضينا الانصاف ان نضيف ، أن الاحترام الذى يلقاه طلعت حرب قد قطع مدى بعيدا فى تعزيز الثقة بين المصريين فى هذه المخاطرة وقد عين طلعت حرب عضوا بمجلس الشيوخ فى سنة ١٩٢٣ ، وحاول عبثا ان يستقيل من

منصبه في سنة ١٩٢٧ فاستقال من بنك مصر سنة ١٩٣٩ متذرعا بسوء صحته ولكن الحقيقة أن استقالته كانت بسبب تصرفات متعلقة بالبنك » ٠

هذا هو كل ما كتبه السفير العتيد مايلز لامبسون عن طلعت حرب ٠٠ كتبه بعقلية المستعمر وبمشاعر المحتل ٠٠ وليس فى نيتى أن أناقش هذا الرأى وحسبى أن يطالع القراء رأيى كمصرى ورأيى كناقد ٠٠ على أن خطأ ماديا وتاريخيا وقع فيه السفير ويحسن أن يصوب ، فقد ذكر أن طلعت حرب ولد فى سنة ١٨٨٠ والصحيح أنه ولد فى سنة ١٨٨٥ ٠

وننسى السفير والتقرير لنبدأ نحن فى ابداء الرأى أو فى رسم الشخصية كما كانت وكما عرفها معاصروه ٠٠

طلعت حرب مرة أخرى

اذا كان لا بد للامة الثائرة من زعيم يقود ثورتها ويتزعم بنيها ٠٠ أو كان لا بد للامة التى تريد أن تثور من زعيم يفجر طاقات الثورة فيهم وفيها ٠٠ واذا كان سعد زغلول هو الزعيم غير المنازع لمصر الثائرة فى سنة ١٩١٩ فان التاريخ قد يتردد عندما يطلب اليه أن يقرر أن تفرد سعد بالزعامة حقيقة تاريخية لا شك فيهـا ٠٠ أقول « بتردد » لان المؤرخين لم يجمعوا على هذا « التفرد » فكان منهم من آمن به ومنهم أشرك ٠٠ منهم من رأى أن لسعد شريكا فى الزعامة ـ وأن لهـذه الزعامة جناحين وما كان لهـا أن تحلق فى سماء الكفاح بغير الجناحين معا ٠٠ جناح اسمه سعد وجناح اسمه طلعت ٠٠

وقد أخالف المؤرخين المشركين عن هذا الرأى ٠٠

وفى تقديرى أن طلعت لا يمكن أن ينازع سعدا زعامة الشعب وانما يدعمها ، يمشى من خلفها ومن حواليها ٠٠ وكلمـا اجتاح الزعيم عقبة من عقبات الطريق ٠٠ حفر طلعت من خلفـه أو من حواليـه الخنادق وأقام المتاريس حتى اذا رد الزعيم على عقبه فى احدى المعارك أو ارتد لخطة موضوعة ٠٠ حارب من خلف هذه المتاريس أو اعتصم بتلك الخنادق وعلى ضوء هذا التقـدير ٠٠ يصبح فى وسعى أن أحدد مكان طلعت ٠٠ من حيث الاهمية الاول مكرر (بلغة الامتحانات المدرسية) أو الرجل الثانى فى الامة لا فى الدولة ، فان ضاق المؤرخون المشركون بهذا التشبيه ففى وسعهم أن يتفقوا على أن سعدا كان زعيم مصر السـياسى وأن طلعت كان زعيمها الاقتصادى وأن لا غنى لاحدهما عن الآخر ٠٠

اهميـــة العصر

على أن اهمية طلعت حرب انما ترجع فى الحقيقـة الى العصر الذى عاش فيه ·· لان قصة التلازم بين السياسة والاقتصاد هى فى عصرنا من المسلمات ·· أو البديهيات ·· أما فى عصر الثورة الزغلولية ، فكان المنادى بهذا التلازم لا يجد سميعا ولا أقول يعتبر معتوها ، وكان ذلك معقولا ·· لان الاقتصاد المصرى لم يكن له وجود أصلا ·· كان كله فى أيدى الاجانب ·· وكان كل المصريين على كل المستويات قد فقدوا كل ثقة بأنفسهم فى هذا المجال ولم يكن هناك من يتصور أن مصريا يمكن أن ينافس أجنبيا فى عوالم البورصة أو المصارف أو ما اليها من شئون للمال والاقتصـاد ، وكانت مهمـة المستشار المالى الانجليزى فى الحكومة المصرية أن يظل هذا الوضع دائما وقائما والا يفكر مصرى (اذا أعوزه المال) فى غير الاستدانة من البنوك الاجنبية أو فى غير التردى فى هوة المرابين من اليهـود ·

فى ذلك العصر ·· وفى ذلك المناخ ·· عاش طلعت حرب ·· فى تلك التربة المكدودة ألقى بذوره وغرس المشاتل ·· بين سـخرية الاجانب منه ·· وترحم العلية من المصريين عليه ، على رجل منهم كان عزيزا فيهم وكان رشيدا ·· وأصابته اللوثة ·

ولوجه السـمر

وأحب أن أستأذنك فى سمر خفيف عابر فأقص عليك واقعـة قد ترى منها أننا اذا أردنا أن نترك المقارنة بين الزعيمين فى أمر الثورة أو الصحوة ·· فان المقارنة لا تتركنا واليك القصة البريئة السـاذجة ··

فى سنة ١٩٣٠ أصـابتنا نحن محررى الصحف الوفدية بطالة فرضها علينا صدقى باشا عندما ألغى بجرة قلم رخص تلك الصحف واتخذت مكانى فى أحد المقاهى وتردد الزملاء من الشباب عليه ·· وكان لاحدهم قريب ريفى من (مغاغة) ·· يعرف القراءة والكتابة وكان خفيف الظل كثير الدعابة وكنا نحتفى بقدومه ليتحفنا بنوادره ·· وحدث ذات يوم أن خضنا أحاديث السياسة وعرضنا لبعض الساسة ·· ولم يرق لذلك الريفى ثناؤنا على بعض المجاهدين فاعتدل فى كرسيه وشمر أكمام قفطانه عن ساعديه واتجه الى جادا وغاضبا وهـو يقول :

ـ تحب تسمع رأى واحد فلاح ؟

ـ أوى

ـ طيب صلى على النبى
ـ عليه الصلاة والسلام
ـ البلد دى من يوم سيدنا آدم لغاية النهاردة ..
ـ مالهـــا ؟
ـ ماطلعتش غير ثلاثة مافيش غيرهم
ـ مين همـــــه ؟
وأمسك بيدى واختار الاصبع الصغرى وبدأ يعد عليها :
ـ سعد زغلول
وقال الجميع :
ـ تمـــام
وقال صاحبنا :
ـ وطلعت حرب
وقال الجميع :
ـ مضـــبوط
وقلت أنا أسأله :
ـ والثالث يبقى مين ؟
وقال فى بساطة :
ـ وأم كلثوم
وضج الجميع بالضحك وغضب الريفى وانفلت الى الشارع وعبثا حاولنا أن نرده الى مجلسنا ..
هذا الحادث على براءته وبساطته له أبعاد ذات دلالات ..

ضحكنا لانعـدام الصلة بين زعيمين كبيرين وبين مطربة كبيرة الا أن تكون الشهرة هى الجامع .. ولم يكن الحديثدائرا حـول الشهرة .. وذكر المطربة الكبيرة لم يكن اذن طبيعيا .. ولكن الذى كان طبيعيا وكل الاجماع معقود منه ومنا على ســـواء .. ذكر الزعيمين بالترتيب الطبيعى لهما .. وعلى لسان ريفى ساذج .. واذن فقد كان هذا الترتيب حقيقة وكانت الحقيقة مسلما بها وغير مختلف عليها .. ومحل الاجماع من المثقفين وغير المثقفين ..

ونعـــود

نعود الى أوجه الشبه بين الزعيمين ..
وطفـا سعد على سطح الموجة يمسك بالدفة ويوجه السفينة سنة ١٩١٩ وثبت أن سعدا كان أقدم فى الجهاد من ذلك التاريخ .. ثبت أنه وقف بالمرصـــاد لدانلوب ديكتاتور التعليم فى مصر ونازله بشجاعة عندما ولى سعد وزارة المعارف حتى جعل التعليم باللغة

العربية ، وثبت أن سعدا قاوم مد امتياز قناة السويس وهو ما أصر عليه بطرس غالى باشا فاغتاله الوردانى سنة ١٩١٠ وثبت أن سعدا تزعم الجمعية التشريعية بعد أن انتخبته وكيلا لها يمثل الامة فى مواجهة عدلى يكن الذى عينته الحكومة وكيلا للجمعية يمثل الحكومة ، وثبت أن سعدا كان له الفضل الاول فى قيام الجامعة المصرية (الاهلية القديمة) فى سنة ١٩٠٨ فانتخب رئيسا لمجلس ادارتها وكان المجلس يضم الصفوة الذين اختيروا بعد عشر سنين أعضاء فى الوفد المصرى ليقودوا ثورة مصر على المستعمر ..
وثبت وثبت .. وانما نذكر ولا نحصى ..

ونفس الوضع من زاوية الاقتصاد كان وضع طلعت ..

طفا طلعت على سطح الاقتصاد المصرى لاول مرة عندما أسس بنك مصر فى ٧ مايو سنة ١٩٢٠ وثبت أن هذا البنك لم يكن فكرة طارئة أوحت بها الثورة الى الرجل .. وانما كان طلعت أقدم بكثير من ذلك التاريخ .. أقدم بأربعة عشر عاما على الاقل .. عندما فكر فى انشاء البنك وكان شابا فى السادسة والعشرين وان كانت رسالة الانشاء هبطت عليه من سماء الثورة وهو فى الاربعين .

فمـا الذى كانه ؟

كان طلعت حرب بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعانى .. كان وطنيا .. وكان مشبوب الوطنية .. ولكنه كان مفكرا وكان عميق التفكير .. ولم يكن قائدا .. ولم يكن زعيما ولم يكن ثائرا .. ولم يكن خطيبا .. ووقعت مأساة دنشواى سنة ١٩٠٦ وهاله أن تساق بلاده الى الهوان وعلى ذلك النحو الذى كان .. وأن تظل ترسف فى قيودها .. من غير أن تجد من بينها من يفك القيود عنها ، وكان مصطفى كامل يتزعم الشباب فى ذلك الحين زعيما سياسيا نارى العواطف يبحث عبثا عن أسباب النهوض ويفتح بعض المدارس تنويرا للاذهان وأدرك طلعت أن مصر فى حـاجة الى قرون لكى تنشىء المدارس للملايين ..

فى تلك العام ـ عام دنشواى ـ عصفت بمصر أزمة اقتصـادية عاتية .. علت من خلالهـا صرخات الفلاحين فى ريف مصر .. ورفضت البنوك ان تمدهم بالقروض فاشرفت مصر عـلى الهـاوية عندما وقف الشاب طلعت حرب يخطب فى أحد المؤتمرات ويقول بالحرف « ان اقتصاديات البلاد تحتاج الى نهضة شاملة مفتاحهـا هو انشاء بنك وطنى يديره مصريون بأموال مصرية وبلغة عربيـة يعمل على تشجيع وتمويل النشـاط المصرى فى نواحى الصناعة والتجارة والزراعة » ..

المجنون أهو !

وذهل السامعون للرجل الرشيد ·· هل أصابته اللوثة ؟ ·· ولولا أنهم أشفقوا عليه لزفوه الى داره وهم يهتفون وراءه (المجنون أهو) كما يفعل صبية الشوارع مع أى مجنون فى الشارع ··

بنك مصرى؟؟ وبأموال مصرية؟؟ وبلغة عربية؟؟ ويمول الصناعة ؟ أى صناعة ؟ نحن ننتج قطنا طويل التيلة ناعم الملمس ·· فهل يريد لنا أن نغزله وننسجه وننافس مانشستر ولانكشير وقد درج أجدادنا على التزام الحدود فأداروا المغازل بين أصابعهم وأقاموا الانوال داخل دورهم ؟؟ هكذا قال يومها عليــة القوم وكانت تلك هى اللحظة التى ولد فيها بنك مصر ·· ولد فى رأس طلعت حرب ·· واستقر فى سويداء قلبه ·· وجرى مع الدم فى عروقه قبل أن يرى النور أو يواجه الجمهور بأربعــة عشر عاما ·· وظل يردده نشيدا لا يمل فى كل ناد وفى كل حفل ·· ويحاول أن يقنع به كل حزب وكل هيئة ·

بنك وطنى بمال مصرى يمول ؟ وباللغة العربية يتعامل ؟؟ وأكاد أتخيل أن سعدا عندما جعل العربية لغة للتعليم فى المدارس المصرية انما تأثر بطلعت وهو ينادى بها لغة للتعامل فى المصارف ··

وقال مايلز لامبسون أن طلعت حرب كان أحد المؤسسين لصحيفة (الجريدة) مع لطفى السيد لسان حال حزب الامة ·· وفات السفير أن يقول أن طلعت حرب لم يكن يهمه حزب الامة انما كان يتســلل بماله الى كل حزب ليدفع الساسة الى المساهمة فى تحقيق حلمــه الذهبى ·· والدليل أنه جاهد تحت راية (الحزب الوطنى) ·· وكان الرجل الثانى بعد سعد فى حملته الشعواء على مد امتيــاز القنــاة بوصفها عصــبا من أعصاب الاقتصاد ·· واشتغل بالفكر والفن لتغذية الحلم الكبير وخاض معركة ضد قاسم أمين ورأيه فى اشتغال المرأة بكل عمل يشتغل به الرجل حتى لقد قال المؤرخون أخيرا وهم يعجبون بأنه كان تقدميا فى كل شىء الا فى قضية المرأة كان رجعيا ·· وفى تقديرى أن الرجل كان حكيما ولم يكن رجعيا ·· فى تقديرى أن الرجــل لم يكن يريد احداث فتنــة فى بلد لم يتعلم شبابه ·· والذين تعلموا على قلتهم لم يجدوا أعمالا جادة · لانهم لم يؤهلوا للعمل الجاد ·· والمناداة بتشغيل المرأة قبل تشــغيل الرجل قلب للاوضاع يعصف بالنهضة ولا يحقق الا الضياع ·· ويثير المسلمين فى « البلد المسلم » وفى وقت يريد فيه هو أن يستعين بهم فى تحقيق حلمه الكبير ··

وفى يدى الدليل على صحة ما أقول : ودليلى أن الرجل لا يمكن أن يؤسس الشركات التى تنهض بالمسرح والسينما والاستديوهات وتسهم المرأة فيها ممثلة وغير ممثلة وعندما أنشأ دار الترقية للتمثيل العربى فى حديقة الازبكية كان قد ودع الشباب وكان أولى به لو أنه رجعى أن يحارب تلك الفنن ..

أنشأه لمصر لا لشخصه

والسؤال الذى يتبادر الى الاذهان هو : (هل كان طلعت يحلم بانشاء البنك ليربح من ورائه الاموال الطائلة التى تنشأ من أجلها البنوك ؟)

والجواب بالنفى .. وانما أنشأه لتربح مصر وحدها .. ومصر وحدها كانت كل أهدافه وكان يماشى السياسة فى خط مواز لها من غير أن يلتقى بها التقاء الاغراق فيها حتى لا يثير ثائرة المحتل على مشروعه وان كان المحتل قد ثار بعد أن تحقق المشروع وظهر خطره ..

ولم يكن طلعت يحلم بالمشروع ويمد ساقيه ويغمض عينيه ليواصل الحلم .. وانما صحا منه صحوة لم ينم بعدها ابدا .. من اللحظة التى بدأ يدعو فيها الى المشروع من سنة ١٩١٠ وعندما أصدر كتابه الباقى على الزمن برغم جهل الشباب المعاصر به بل لعنوانه ، وحسبك أن يكون عنوانه (علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك مصرَ أو بنك الامة) .

ولقد كدت أكتفى بهذا العنوان عن كل بحث .. ففيه وضح الهدف كله ..وضح أنه كان يريد انشاء البنك ليكون فيه (علاج مصر الاقتصادى) وفى العنوان أسمى مشروعه (بنك مصر) .

وهكذا ولد البنك باسمه كاملا وفى رأسه وحده قبل أن يقوم بعشر سنين وقال أو (بنك الامة) لينبه الامة الى أن المشروع ليس له وانما هو لها .. ولها وحدها ..

تحرك والناس نيام

وبعد ذلك الكتاب بأربعة أعوام نشبت الحرب العالمية الاولى فجمد كل نشاط .. وخفت كل صوت .. الا دوى المدافع فى الميادين .. ولكن نشاط طلعت حرب لم يجمد وصوته لم يخفت وساعده اعتقاد الانجليز ـ خطأ منهم أو غفلة ـ أن الرجل رجل طيب .. ومسالم ولا ضرر من محاضرة يطيب له أن يلقيها ، أو كتاب يطيب له أن يصدره ، وهو من خريجى الحقوق وحريص على التزام الحدود.. ولعله داخل هذا الاطار ينفس عن الثوار ولايثيرهم

بل لعله بهذا التنفيس يؤخر عقارب الساعة الثورية ولا يعجل بها ·· وعلى ضوء هذه الفلسفة استجابوا له فى سنة ١٩١٦ فالفوا اللجنة التى اقترح تاليفها ورأوا فيها نرا للرماد فى العيون ·· لجنة لبحث الصناعات التى يمكن أن تقوم فى مصر لتساعد على تنمية اقتصادها ، واختاروه عضوا فيها فعكفت على وضع تقرير جاد عجب له المستشار المالى الانجليزى ولكنه هش له ورحب به وأودعه درج مكتبه ولم ير النور أبدا ·· بل جاء النور على يد طلعت فى سنة ١٩٢٠ قبل أن يتحرك التقرير الذى نام فى مكتب المستشار أربعة أعوام ··

ومعنى هذا ؟

معنى هذه الواقعة أن نشاط طلعت قام والناس نيام وعلى امتداد الحرب الضروس نما وزاد ·· فماذا كانت الصحوة وكان النمو وكان الازدياد ؟

انها الحرب نفسها وما صنع الانجليز بمصر خلالها ·· لقد رأى بعينيه كيف نهبت محاصيل البلد ·· وكيف غدونا عزبة مستكينة لمالك مفترس ·· حتى رؤوس الماشية انتزعوها من الفلاح انتزاعا ·· حتى رؤوس الآدميين ساقوها اكراها الى ساحات الحروب وأطلقوا عليهم زورا اسم « المتطوعين » ·· وحتى مال البلد وعصب الحياة فيها وضعوا أيديهم عليه وصرفوا لنا سندات تقابله وأودعوا السندات خزانة بنكهم فى لندن فأمسينا كلنا غلالا وأموالا وماشية وآدميين رهائن فى الخزائن ··

يومها أدرك طلعت حرب أن ثورة الشعب قد جاء حينها ·· ثورة دموية سياسية عارمة ولكن هذه الثورة لا تلبث أن تخبو وتنطفىء اذا لم يكن خلفها وقود يغذيها ·· ولا وقود غير المال والاقتصاد ··

وفى هدوء الباحث ـ لا فى جموح الثائر ـ أعلن مواطنيه أنه « لكى يتم الاستقلال السياسى فانه من الضرورى أن تتوافر للوطن امكانات التحرر الاقتصادى التى ترسى دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها الاختناقات التى سوف يجتازها فى مراحل نضاله مع الاستعمار ·· تغذى كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود » ··

« قوة الصمود » ·· لعلك لاحظت معى أن كلمة الصمود التى تنادى بها قوى الثورة الحاكمة فى مصر الآن · جرت على لسان طلعت لنفس الهدف من خمسين عاما خلت ··

ودقت الســاعة

كان طلعت يومها نمرا يتحفز للوثب ·· وينتظر دقات الساعة ·· ودقت الساعة فى التاسع من مارس سنة ١٩١٩ وسـقط أول شـــهيد ··

ولم تكن الوثبة مريحة ولا مأمونة ·· وثب فى هذه المرة لينقض على العدو ·· لم يثب وثبة الثوار بالدم المراق الذى كان يجـرى يومها غزيرا فى الطرقات ·· وانما وثب بحصيلة الدعوة عبر أربعة عشر عاما ·· وبحصيلة الثورة التى فجرت فى القلوب ينـابيع الوطنية ثورة دفاقة ·· خرج يدعو الى قيام البنك لدعم الثورة ·· خرج تحت راية سعد ليقول للاعيان اسهموا وليقول للعمال اكتتبوا·

كانت تلك الفترة ·· أشرف الفترات فى تاريخ الكفاح ·· لكم صده الاصدقاء عن أبوابهم ·· ولقد صارحه الذين استقبلوه بأن ما هو مقبل عليه خيال وخبل ·· وأن العقل كل العقـل أن يطوى مشروعه قبل أن يطويه الفشل ·· وقبل أن يمسه السوء ويعتقل ·· وقلة من أصـحاب الملايين جاملوه بجنيهات لم تجاوز المئات وفى المصارف الاجنبية أموال ســـائلة لهم تعد بمئات الالوف ·· ولم يرفض طلعت قرشا قدم اليه ·· ولم يتصبب عرقا ولا عرف اليأس له طريقا ·· ومشى رابط الجأش الى الهدف ··

وترامت أنباء نجاحه البطىء واصراره الكبير الى المستشار المالى فاستشاط غضبا واستدعاه اليـه ـ ولم يكن البنك قد قام ـ وقال له : « كنت أظنك رجلا عاقلا ولكنك كما يبدو لى أصبت بعـــدوى الجنون المنتشر فى البلد هذه الايام » وسكت قليلا ثم واصل حديثه ثم قال له : هل تتصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكا ؟ انكم لا تصلحون لاعمال المال ·· انها صناعة الاجانب وحدهم ·· والدليل انكم عندما توليتم شئونكم قبـــل أن نجىء اليكم جعلتم مصر تفلس ·· »

واستطرد المستشار بلهجة تجمع بين التهديد والامر ··

« أنت تعرف أن فى وسعى أن أمنع قيام هذا البنك ولكنى وافقت على قيامه لاعطيكم درسا عمليا فى الفشل ·· ولكن فى وســعى أيضا أن أنصحك ·· وكل ما أنصحك به أن تشرك معك بعض الاجانب حتى تعطى المصريين شعورا بالثقة فى هذا البنك » ··

ورد طلعت فى هدوء الواثق : « لقد قررت أن يكون هـذا البنك مصريا مائة فى المائة » ··

وابتسم المستشار المالى وقال : « انك تتكلم بلغـــه مصاهرات الشوارع ·· والذى يصلح للشارع لا يصلح لاعمال المال والبنوك وقد استدعيتك لانصحك فأنت رجل طيب لا يشتغل بالسياسة » ··

هذه العبارة كانت مفتاح الموقف كله ·· لقد اســتطاع طلعت بسلوكه أن يقنع الانجليز بأنه رجل طيب ·· ولا يشتغل بالسياسة ·· وكان ذلك سر اغضائهم عن المشروع وسر ايمانهم بأن البنك لابد أن يفلس فى طفولته ·· قبل أن يبلغ مرحلة الحبو ·· واذا هو حبا ـ لسبب أو لآخر ـ فالمقطوع به أنه لن يعيش حتى يقف على قدميه ويشنف أذنى طلعت بكلمة « بابا » ·· أو أذنى مصر بكلمة « ماما » ··

ولكن ما الذى حدث ؟

الذى حدث خالف تماما كل ذلك الغباء الانجليزى ·· وحدث أن ولد بنك مصر فى السابع من مايو سنة ١٩٢٠ وبرأسمال متواضع من حصيلة القروش قدره ثمانون ألفا من الجنيهات ·· وحدث أن تحرك الزعيم السياسى سعد فأيد قيام البنك فاندفع العمال الكادحون يشترون أسهمه بقروشهم وهكذا ارتبط بنك مصر بثورة مصر ·· وأمسى قضية هادئة وهادفة من قضاياها ··

أقول « أمسى قضية هادئة وهادفة » وأعنى العبارة ·· فقــد كان فى وسع سعد أن يتحرك نحو التأييد بحرارة وثورية وأن يعزف فى خطاباته المثيرة على أوتار البنك الوطنى ·· ولكن سعدا كان بعيد النظر ·· فأدرك أن مثل هذا السلوك يعرض البنك لغضــبة المحتل ·· فلا يتردد فى هدمه مالا ومبنى ·· وفى اعتباره وكرا من أوكار الثوار الخارجين على القانون ··

وقد حدث أن أحس سعد باتجاه نية الانجليز الى اعتقاله وكان حمد الباسل وكيل الوفد على خلاف معه فى الرأى ويقيم فى بيت يواجه بيت الامة فأرسل سعد قبيل اعتقاله فى ٢٣ ديسمبر ســـنة ١٩٢١ ورقة الى حمد فى بيته نصها :

« عزيزى حمد : الاتجاه الى الاعتقال ·· واجبك أن تعود الى الوفد وتنسى الخلافات التى بيننا ·· الموقف يستوجب الاتحاد ·· رد الامة هو المقاومة السلبية عدم التضامن مع الانجليز ـ مقاطعة البنوك والشركات الانجليزية ـ تشجيع بنك مصر ، الامتنـــاع عن تشكيل أى وزارة » ··

والهدوء واضح ·· جاء اسم البنك فى السياق ·· بنـــدا من البنود ·· وتشجيعا لا اكثر ·· والتشجيع فى غير صالحه ، التركيز عليه لانه نتيجة محتومة لمقاطعة البنوك الاجنبية ··

واعتقل سـعد ·· وعاد حمد الى الوفد ·· وبدأ ينفذ أوامر سعد ·· ولكن بطريقة شـبابية أو بعاطفة مشبوبة ·· لم يتردد طلعت فى استغلال هذه العاطفة لدعم البنك الوليـد ·· وفى أقل من عامين ذهل الانجليز من نجاح البنك الوليد يديره شـبان مصريون ·· وباللغة العربية ··

دفعـة قوية

لقد كان لثورة الوفد بعد اعتقال سعد أثر كبير فى نجاح البنك فبعد شهر واحد من الاعتقال أو على التحديد فى ٢٣ يناير سنة ١٩٢٢ أصدر الوفد بيانه التاريخى المثير يقول فيه :

« وعلى المصريين أن يسحبوا ودائعهم من المصارف الانجليزية ومن الواجب على جميع المصريين أن يقبلوا على شراء أسهم بنك مصر حتى يصل رأسماله الى مبلغ يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية وبذلك يتسنى له أن يساعد المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة وعلى كل مصرى أن يقـاطع شركات التأمين الانجليزية وكذلك السفن وتفضيل المصنوعات الوطنية والاعلان عنها وتشجيع الاقبال عليها ويجب أن يبشر بهـذا النظام ويذاع فى الجـوامع والكنائس والنقابات والهيئات » ··

ووقع القرار حمد الباسل ـ ويصا واصف ـ جورج خيـاط ـ مرقس حنا ـ علوى الجزار ـ مراد الشريعى ـ واصف غالى ··

وقد يمر قارىء هذه الايام بلغة ذلك القرار وعلى فمه ابتسامة ·· ولكن الذى يحسن بهذا القارىء أن يعرفه ·· ان قارىء تلك الايام لم يكن يبتسم ·· وانما كان يتلقى كل قرار للوفد كما يتلقى الجيش أمر قائده ·· ولقد تأهب الشعب أثر القرار لجو معركة رهيبـة يقاطع فيها كل ما هو انجليزى ··

معركة جـديدة

وفزعت انجلترا لبيان الوفد ·· واعتبرت « بنك مصر » قلعة من قلاع الثورة الامر الذى كان سعد حريصا على تجنبه حرصه على البنك الوليد ·· وأصدر لورد اللنبى نائب ملك بريطانيا وقائد القوات البريطانية فى مصر أمره بتعطيل الصحف التى نشرت ذلك القرار وبالقبض على أعضاء الوفد الذين وقعوه ·· وبتشكيل محكمـة عسكرية انجليزية لمحاكمتهم ·· وانعقدت المحكمة الرهيبة محوطة بكل مظاهر الارهاب العسكرى وجىء بالمتهمين الى قفص الاتهام ووجهت اليهم التهمـة التى تستوجب الحكم بالاعدام ·· ورفض أعضاء الوفد أن يعترفوا بهذه المحكمة ورفضوا أن يجيبوا على أى

سؤال يوجه اليهم ·· ووقف كبيرهم حمد الباسل يقول فى ثبات وشجاعة لاولئك القضاة : « لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحاكمونا ، وردت المحكمة باصدار حكم الاعدام عليهم جميعا وهتفوا بصوت واحد وهتف الشعب معهم « نموت وتحيا مصر » ··

وزغردت ألسنة الثورة من الشلال الى البحر ··

وكان بنك مصر وقودا لهذه الزغاريد ·· أو يكاد ··

وأعد اللنبى قراره بمصادرة البنك والاستيلاء على ما فيه من ودائع ·· ولكن مستشاريه نصحوه بالقضاء على البنك بوسائل أكثر مهارة تؤدى فى النهاية الى افلاسه ··

أمر المستشار المالى حكومة مصر بسحب أموالهـــا من البنك وحرمت على الوزارات والمصالح أن تتعامل معه ··

وثبت طلعت فى وجه الحرب الرخيصة ·· وخاض ضد المستشار المالى معركة الرجولة ·· وراح يقتحم معاقل الوطنية من كل أبوابها ·· ولم يضعفه نفاق بعض الاغنياء وجبنهم ·· ولقى استجابة من كل الجهات الشعبية ·· وعاونته الصحافة فكانت تسمى أى مصرى يضبط متلبسا بدخول أى بنك انجليزى « خائنا » ·· وظل طلعت صامدا فى الميدان حتى أطلق سراح سعد ووضع الدستور وجرت الانتخابات وشكل سعد وزارة الشعب الاولى وعين طلعت فى أول مجلس للشيوخ فى مصر ، واعتدل الميزان وشمر الرجل عن الساعد وتوالى قيام الشركات من قلب البنك روافد رائعة تصب فى النهر الكبير ··

وبانت الملامح

نجح البنك اذن على حساب الثورة ولحسابها ·· وما كاد يقف على قدميه حتى بدأ ينشىء الشركات التىكانت وقفا على الاجانب ·· وكانت شركته الاولى هى « مطبعة مصر » وفى هذه الخطـوة بانت ملامح طلعت حرب وبان أسلوب عمله وبانت طريقة تفكيره ·· لقد ادرك أن ثورة الاقتصاد يجب أن تقترن بثورة الفكر ·· وانشاء جريدة يثير الثائر بغير كسب كبير ·· لان الصحف موجودة ومهيأة بدافع من الثورة لتأييد البنك ·· والبنك مهيأ لتشـــجيعها بنشر اعلاناته فيها ·· وتأليف كتاب عن البنك تصرف ساذج ·· أما انشاء مطبعة فمشروع تجارى فى ظاهره ولكنه مصدر اشـــعاع فكرى خطير يلقى أضواء على الطريق الطويل بما يبثه فى حنايا النفوس من شعور من غير أن يحمل طابع الدعاية ··

وهكذا فكر طلعت ‥ وكان يقول دائما « ثمار الفكر وثمار الفن جناحان للبنك بهما يحلق فى سماء الثورة العملية لدعم الثورة الشعبية » وهكذا اتجه الى الفن بدار ترقية التمثيل العربى « مسرح حديقة الازبكية الآن » ‥ وعندما أنشأ ستوديو مصر أصبحت الشركة تضم التمثيل والسينما معا وتوالى انشاء الشركات المادية الى جانب الفنية لحلج محصول القطن وغزله الى آخر الشركات التى أنشأها ‥

ولعل فى البيتين اللذين كتبا على واجهة مسرح الحديقة بماء الذهب لامير الشعراء ما يفسر اهتمام طلعت بالفن والفكر كجناحين للبنك ‥

هذا هو الحجر الدرى بيتكمو — فابنوا بناء قريش بيتها العالى
دار اذا نزلت فيها ودائعكم — أودعتمو الحب أرضا ذات أغلال

بين البداية والنهاية

طال الحديث عن طلعت ‥ أحس هذا الطول ولكنى راغب فيه وعندى استعداد للاعتذار بعد أن أستوفيه ‥

وفى تقديرى أن طلعت حرب لم يكن يطلب مجدا لشخصه وانما كان يطلب مجدا لمصر كما قلت وظل فوق المسرح يقوم بدوره عشرين عاما ‥ من غير أن يمل ‥ مات سعد ونكص عن الكفاح السياسى كثيرون ‥ وانتقل الكثيرون من الساسة من أقصى اليسار الى أقصى اليمين وظل طلعت يواصل كفاحه ‥

وبين البداية والنهاية أرسى الاساس فى استقلال مصر الاقتصادى.

وقصة البداية تثير الاعجاب بغير حدود ‥ وقصة النهاية تثير الاسى بغير حدود وبعدهما يجىء دور التاريخ بغير تزييف ‥ ليقول لنا وللناس ‥ ان الثورة قامت وقادها سعد ‥ ودعمها طلعت ‥ وقدس الناس سعدا وهو جدير بالتقديس ‥ ولم يقدس الناس طعت حتى يقدسه التاريخ ‥

وبعد عشرين عاما من العرق المتصبب من جبين طلعت ‥ بنى به الصرح المغرد ‥

عرفت بريطانيا كيف تنتقم من طلعت بعد أن عجزت عن الانتقام من الصرح ‥ وكان أمام طلعت طريقان ‥ أن ينجو البنك ويذهب هو ‥ أو أن يذهب البنك وينجو هو وكان طبيعيا أن يذهب هو ويبقى البنك ‥ وقد ذهب ‥ فى صمت تاريخى رهيب ‥

بعد عشرين عاما من الهزائم التى منى بها المستشار المالى ‥

جاءت اللحظة التى انتهزها المستشار المهزوم ليشرب من دم طلعت أكبر الخصوم ·· جاءت الحرب العالمية الثانيـة وكانت المؤامرة الرخيصة ·· وأصدر المستشار كمـــا قلنا أمره بسحب كل قرش للحكومة من البنك وكل أموال صندوق التوفير البريدى ·· واهتز البناء المشمخر وحدث العجز فى السيولة النقدية وكان فى وسـع البنك أن يدخل سوق الاوراق المالية بائعا لما قيمته أربعـة ملايين من الجنيهات ولكن هذه النجاة للبنك كان من الممكن أن تهز الشركات التى أنشأها ورفض طلعت أن يعرض أموال المساهمين فى هـذه الشركات للضياع مقابل توفير السـيولة للبنك ورأى أن يلجأ الى الطريق المصرفى الطبيعى والذى هو حق لكل مصرف وتقـدم الى البنك الاهلى ·· بنك الاصدار يومئذ يرهن عنـــده محفظة أوراقه المالية لقاء قرض يعيد للبنك استقراره ويوفر له السيولة المنشودة بعد أن تزاحم الناس من حوله ومن حول كل مصرف يســـحبون ودائعهم بسبب اعلان الحرب العالمية ، ولكن البنك الاهلى ـ بنك الاصدار ـ رفض بأمر من المستشار اقراض بنك مصر ورهن المحفظة وانكشفت المؤامرة ·· بعد ان كانت مغطاة ··

وكان مما قاله البنك الاهلى مبررا لهذا الرفض العجيب ان بنك مصر لم يلتزم الاصول المصرفيـــة وان طلعت حرب غلبته أهواؤه فعرض البنك والشركات لهذه الهزة بالقروض التى سخا بهـا على أعوانه العارفين بأخطائه مثل فؤاد سلطان وبركات وفلان وعلان وان الشركات تواجه بسبب هذه الديون مصيرا ميئوسا منه لانها ديون معدومة ويستحيل تحصيلها ··

وكان البنك الاهلى يعرف أنه يوجه تهما رخيصة ولا شرف فيها الى أشرف رجل فى مصر وكان البنك فى الحقيقة مظلوما ·· وكان كبش الفداء للثأر البريطانى وانتقـــام المستشار وكان المستشار جبانا عندما توارى خلف البنك وطلب الى محافظه أن يمثل « نذل الرواية » ·· والدليل أن المستشار الجبان استقبل بعض أصدقاء طلعت وقال لهم فى صراحة ما معناه : « اذا استقال طلعت فمن الممكن معالجة الموقف » ونقل الاصدقاء رأى المستشار الى طلعت والاسى يقطع نياط قلوبهم ·· وما كان اشد عجبهم اذ يرون اسارير الرجل وقد انبسطت والسعادة وقد غزت هذه الاسارير ·· وهو يقول « الحمد لله » ·· فليبق بنك مصر لمصر ·· وليـــذهب الف طلعت حرب » ··

وكان على ماهر يومها رئيسا للوزراء ··

وكان قد ولى الحكم ثم اعلنت الحرب العالمية بعد توليه بايام ..
وكان قد بدأ يستعد لمواجهة المتاعب والتحديات .. من جانب انجلترا ..

وترامى اليه رفض البنك الاهلي لرهن المحفظة والاسباب العجيبة التى تعلل بها البنك وخشى على ماهر أن تكون هذه الاسباب صحيحة وأن يزداد موقف البنك سوءا ـ اذ هو ترك لمواجهة انجلترا والبنك الاهلى الذى يديره الانجليز ـ فسـارع على ماهر الى اعـداد مشروع قانون لدعم بنك مصر تحل الحكومة فيه محل البنك الاهلى وتقول له بلسان المشروع « أنا حكومة مصر أنقذ بنك مصر » ..

ودعى البرلمان للاجتماع لعرض المشروع عليه ..

وتبين للمجلس أن طلعت حرب .. لم يزل كما كان دائما مشرق الصفحة وضاء الضمير وان كل ما قيل عنه من جانب البنك الاهلى مفتريات أملاها الحقـد الدفين . على نجاح البنـك وعلى نجاح الشركات .. وكان من بين الاراء .. الكشف عن حقيقة الموقف ..

وقيل يومها أن طلعت قدم استقالته وألح فى قبولها .. كما ألح على النواب الثائرين أن يهدأوا حتى يمر بالمشروع وينجو البنك .. وأن يذكروا البنك وينسوا طلعت ..

ورأى على ماهر أن طلعت على حق وأن البنك هو الذى ينبغى أن ينجـو ..

ويبدو أن البرلمان أدرك حروجة الموقف فسارع الى اقرار المشروع وتم الدعم .. وخلف حافظ عفيفى .. الزعيم الاقتصادى طلعت فى الاشراف على ذلك الصرح .

مطـاردة

لم يقنع المستشار بما فعل ..

وساءه أن يتصدى البرلمان لانقاذ البنك وان كان قد سره الانتقام من طلعت وكحلقة أخيرة فى الانتقام طلب من الرياسـة الجديدة لبنك مصر أن تقصى كل أعوان طلعت وأن تطلب اليهم دفع الديون التى عليهم .. فورا ونقدا .. وأن تتخذ الاجراءات القانونيـة ضدهم اذا لم يسددوا هذه الديون ..

وكان يعلم ان مطلبه مستحيل وغير معقـول .. وأن أى مدين فى مثل تلك الظروف لم يكن يملك من النقد ما يسدد به الدين ..

ولكن الرياسة الجديدة ـ لاسباب رأتها ولا أملك أن أدينها كما لا أملك الدفاع عنها ـ هذه الرياسة الجديدة رأت أن تتخذ الاجراءات

القانونية المرغوب فيها ·· ضد كل عضو منتدب ·· وكل عضو فى مجلس الادارة ·· وكل عميل قديم وكبير ·· وكان من بين هؤلاء اثنان من بلدى ·· أعنى من المنيا همـــا فؤاد ســلطان ويعقوب بباوى ·· وقد بيعت الدور التى كان فؤاد سلطان يملكها فى مدينة المنيا بالمزاد العلنى وسددت كل الديون ··

وســـقطة

ونسى المستشار أن تسديد هــذه الديون هدم للدعوى التى بنى البنك الاهلى عليها رفضه اقراض بنك مصر ، وثبت اذن أن الديون التى أكد البنك الاهلى أنها « معدومة » لم تكن معدومة وأن المدينين كانوا يملكون أكثر مما استدانوا ·· وكانت سقطة ·· ولكنهـــا سقطة محتل محارب لا يهمه أن يسقط ويسقط ·

ويعـــد

فقد نجا البنك ·· وشق طريقه الى المجد ··

وشقت مصر طريقـــا آخر ·· طرد منه ذلك المستشار ·· شر طردة بحكم المعاهدة · وشقت مصر طريقا ثالثا ·· فألغت هــذه المعاهدة سنة ١٩٥١ فأحرقوا لنا القاهرة فى سنة ١٩٥٢ فطردناهم من مصر كلها سنة ١٩٥٦ ·

وازداد بنك مصر شموخا ··

ومات زعيم مصر الاقتصادى بعيدا عن عرينه فى البنك والشركات·

مات قرير العين بالحجر الدرى الذى أرساه فى الصرح الشاهق ·· مطوى الضلوع على ما لقى من جزاء ولكن مصر لم تنسه ·· ولن تنساه ·· ولا تملك أن تنساه ··

ولسوف يزداد تاريخه التماعا كلما ازدادت مصر وعيا ··

لقد أقمنا له تمثاله العالى فى ميدان سليمان باشـــا وطويت صفحة سليمان الفرنساوى بكل تاريخه المفروض علينا ·· ليصبح شارع سليمان باشا ·· شارع طلعت حرب ··

وفى رأيى ·· يجب أن يقام له تمثال فى كل العواصم والمراكز والبنادر ·· لا كزعيم جدير بالتكريم فحسب ·· ولكن كدرس يلقيه التمثال على الاجيال ·· وعلى امتداد التاريخ ··

مصطفى النحاس

لم

أتردد فى الكتـــابة عن النحـــاس كما ترددت فى الكتابة عن سعد ..
والتردد فى الكتابة عن النحاس لا يقوم فى تقديرى على أى أساس ، لان النحاس كان خليفة لسعد .. ولم يكن ســـعدا .. ولم يـــكن من الممـــكن ان يكـــونه .. ولقـــد مضى النحـــاس الى بارئـــه ودخل التاريخ مغفورا له ومرضيا عنه من الله ومن الناس .. مرضيا عنه فيما أصاب ومغفورا له فيما أخطأ وكانت له دنيا يصول فيها ويجول .. وأصبحنا ولنا دنيا غير دنياه نخب فيها ونضع .. دنيا جديدة أو كالجديدة .. وان كانت فى حقيقتهـــا وليدا لدنيا النحاس والمجاهدين من معاصريه ..

ولقد عمر النحاس .. فمات من بضع سنين وهو يطل على التسعين وتزوج فى العاشر من يونيه سنة ١٩٣٤ وكان يومها فى الخامسة والخمسين .. فظل يرسف فى هذا « القيد الذهبى » أكثر من ثلث قرن بعد أن عاش حرا من ذلك القيد كل ذلك العمر كما ظل رئيسا للوفد أكثر من ربع قرن .. بعد أن حمل الراية مع سعد منذ تأسس الوفد حتى مات سعد ..

وقبل أن يقوم الوفد كان القاضى الشـــاب مصطفى النحاس فى طليعة العاملين مع الحزب الوطنى فى حقل الكفاح السياسى .. أو المؤيدين لمبادئه على الاقل .. بحكم حروجة الوضع أو حيدة القضاء.

تلك هى قائمة الاعوام التسعين ترسم الخط البيانى لحياة الرجل ·· لتلقى على هذا الخط نظرة عجلى أو مستأنية تنبئك فى الحالتين أن تلك الحياة كانت كلها كفاحا لا هدوء فيه ·· وكأن الله قد سواها ليكون صاحبها مكافحا على طول الطريق ·· وليكون زعيما « متفرغا للزعامة » لا يرضى أن ينازعه عليها أحد ·

زعيم متفرغ

أقول « زعيما متفرغا » وأعنى القول ·· فقد تزوج وهو قوى البنية موفور الصحة وتزوج من فتاة حسناء تصغره كثيرا ·· والمفروض فيها ·· وفى مثل سنها أن تملأ البيت أولادا ·· وأن تظل ولودا حتى ترى فى البيت أحفادا ·· ولكنها لم تحمل ولم تضع وعاش النحاس محروما من الاولاد كما عاش سعد ·· فلم يصرفه عن الشجاعة والاقدام خوف على بنت أو ولد ·· ولم يصرفه عن العفة طمع فى مال يتركه لهم ·· ولم يصرفه عن المغامرة ذلك الضعف العاطفى الذى يشعر به كل والد حيال كل ولد ·

ولقد أشار الى هذه الحقيقة فى الاربعينات أحد الصحفيين الفرنسيين فى احدى زياراته الكثيرة لمصر ـ حقيقة « التفرغ للزعامة » ـ فذكر أسماء غاندى وسعد والنحاس فقال له صحفى مصرى كبير لا يزال على قيد الحياة ان مكرم عبيد لم ينجب أيضا فابتسم الصحفى الفرنسى وقال : « مبلغ علمى أن أحدا من أعضاء الوفد لم ينازع النحاس زعامته غير مكرم ·· وهذا يقوى الظاهرة ولا يضعفها فيما أظن » وقال الصحفى المصرى « ولكن مكرم أسس حزبا وتزعم ·· فلماذا لم يستطع أن يكون زعيما ؟ » وضحك الصحفى الفرنسى وقال ما معناه : « أنتم أدرى بالاسباب ·· وكل الذى أعرفه أن الزعيم يكون واحدا ولا يكون اثنين » ·· ثم أضاف مبتسما « فى الاغلب الاعم ·· أو فيما رواه لنا التاريخ على الاقل »

ويبدو أن الصحفى الفرنسى كان محقا عندما قال « فى الاغلب الاعم » لان بعض العباقرة من الزعماء يخرجون أحيانا على كل قاعدة ولا يبالون أية ظاهرة ··

ومن هؤلاء العباقرة « جواهر لال نهرو » ·· فقد كان زعيما وأنجب ·· بل كان زعيما وأنجب « زعيمة » ·· ولقد كان نهرو بالنسبة لغاندى ·· كما كان النحاس بالنسبة لسعد ·· مع الفوارق فى الثقافات وفى المواهب ··

مفتاح شخصيته

والتاريخ التفصيلى للنحاس لا يعنينى ·· وانما يعنينى أن

أرسم لك شخصيته ·· ورسم الشخصيات من أهداف الكتاب ·· وتاريخه معروف ·· والشاب الذى يجهله يستطيع أن يسـأل أياه الذى عاصر النحاس ··

ويعنينى قبل كل شىء حيال شخصية أمسك صاحبها زمام البلد أكثر من ربع قرن ·· وفى ظروف بالغة التعقيد ·· يعنينى قبل كل شىء أن أبحث معك عن مفتاح هذه الشخصية ··

ومفتاح شخصية النحاس فى تقديرى هو « الايمان » ··

الايمـــان

شب النحاس من صدر الفتوة ومطالع الشباب ومـــلء قلبـه « الايمان » بالله ·· وكل نجاح أحرزه الرجل على امتداد زعامته لا يفسره الا هذا « الايمان » وكل خطأ تردى فيـــه كان مرده الى « الايمان » بسلامة هذا الخطأ ··

وكان هذا اللون من الايمان زعيم كل الالوان فيه ·· ولقد صنع منه الايمان بالله مخلوقا عفا ونظيفا ·· وشجاعا لا يتهيب محتلا ولا ملكا ولا أميرا ولا وزيرا ··

« عليه توكلنا » ·· لا على أحد سواه ··

و « به استعنا » ·· لا بأحد سواه ··

و « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » ·· والرحمة اذن آتية لا شك فيها · ودبابات بريطانيا ومطامع القصر ومؤامرات الاحزاب ·· لا تستطيع أن تحرمه من رحمة كتبها الله له ··

« وما يمسك فلا مرسل له من بعده » وليس فى وســع قـوى الارض كلها أن تعطيه رحمة أمسكها الله عنه أو ترد عنه محنة كتبها الله عليه ·

هكذا كانت تمضى الحياة بالنحاس مرئية من كل الناس لاسيما فى الصدر الاول من زعامته ··

ظهر هذا المفتاح واضحا لنا على طول امتداد زعامته كما قلت ·· فلم يتخلف النحـاس عن الصـلاة يوما ·· بل لم يتخلف عن صلاة الفجر مرة فى حيـــاته الا مكرها ، وكان له « ورد » يتلوه من صغره ·· وكان له مصحف يقرأ فيه بعد صلاة الفجر ما تيسر منه ·· وكان اذا ضاق بدسائس الخصوم فكر فى « الله » قبل أن يفكر فى الوفد ·· وكان كما قال لى أحد المقربين يردد شعر العارف بالله ابراهيم الدسوقى كلما نزل به خطب :

وعدا العادون وجـاروا ورجـــونا الله مجـــيرا
وكفى بالله وليـــــا وكفى بالله نصـــــيرا

فاذا ضيق المتآمرون عليه الخناق صاح ويده الى السماء ..

ان أبطأت غارة الارحام وابتعدت فأقرب الســـير منا غارة الله
يا غارة الله جـدى السير مسرعة فى حـــل عقدتنا يا غارة الله

وكان فى ذلك على النقيض من سعد ..

كان سعد يهاجم خصمه حتى يدك معاقله فاذا فرغ منه ردد أمام الشعب فى احدى خطبه قول الشاعر :

جزى الله الشـدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

ذلك هو مفتاح شخصية النحاس .. جعله عنوانا على عـــدل القضاء وجرأة القضاء .. فازدان تاريخه وهو قاض جزئى صغير ومصر تحت الحماية بأحكام لم يزدن بهـــا تاريخ الفحـــول من المستشارين وفى عهد الاستقلال .. استقلال مصر واستقلال القضاء. والايمان بسعد

وبنفس المفتاح .. انفتح أمامه باب الزعامة ..

وكما آمن بالله على مستوى العقيدة .. آمن بسعد على مستوى الوطن ..

نفس المفتاح هو الذى تنبه عليه سعد فضم النحاس الى الوفد .. وأولاه الثقة كاملة غير منقوصة .. وبلا شك أو تردد اختـــاره سكرتيرا للوفد .. وأدى النحاس فرائض الولاء لســـعد كما لم يؤدها أحد .. ولم يكن النحاس ليضن بحياته نفسها اذا ما جد الجد .. فلم يبال المعتقلات عندما سيق اليها .

ولقد حورب النحاس ـ بعد أن أصبح رئيسا للوفد ـ من كل الجبهات وحورب من داخل الوفد ومن خارج الوفد .. وحورب من الصديق ومن العدو .. وخرج عليه من أسموهم « السبعة ونص » وكان الثمانية كلهم عمالقة من حيث القدر .. وخرج عليه ماهر والنقراشى والفا حزبا نسباه فى التسمية الى « سعد » .. وخرج عليه أخيرا سكرتير الوفد وساعده الايمن وكاتم سره .. « مكرم » وألف هو الآخر حزب « الكتلة » وقال انه « الوفد مطهرا » .

وحورب النحاس ـ فوق هؤلاء ـ من بريطانيا بكل أنيابها الزرق .. ومن القصر وبكل سراديبه المظلمة .. ومن الاحـــزاب وبكل مؤامراتها الغريبة .. فما وهن النحاس وما ضعف وما هدأ النحاس وما استكان .. فقد ظلت تتوهج فى يده الشعلة القدسية الرائعة .. شعلة الايمان .. وكبر النحاس وتقدمت به السن .. وقال بعض الخصوم انه « انتهى وهو على قيد الحياة .. بعكس سعد الذى لم ينته الا بالموت » .. وفرحت انجلترا بهذا الذى قيل لها ..

ولكن تقديرهم ساء ·· ووقف النحاس فى أكتوبر سنة ١٩٥١ شابا فى شرخ الشباب وثائرا فى عنفوان الثورة ·· يعلن الدنيا فى جلسة تاريخية من جلسات البرلمان ·· وفى صورة رهيبة تعيد الى الاذهان بعض الملامح من سعد زغلول ·· وقف يعلن الدنيا أن حكومته قررت الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ·

لم يلغها بقوة جيش جرار جديد أنشأه ·· وانما ألغاها بقوة « الايمان » وحده ·

لم يكن يهدأ

كان « يؤمن » بالشىء ·· فيندفع كالسيل ·· فى قوة عارمة ·· تجرف أمامها كل عائق ·· فاذا انتصر سجل النصر لمصر والشكر لله ·· واذا طوقوه ·· وأقالوه من الحكم عاد الى الشارع يستعدى الشعب على الظالمين ·· فاستجابت له الجماهير ·· حتى تعيده الى الحكم بعد حين أو بعد سنين ·· أو عاد الى مكتبه ـ مكتب سعد فى بيت الامة ـ يستقبل الزوار ويحاضر الوافدين ويكشف لهم أفاعيل الخصوم ويمدهم من جديد بشعلة الغضب أو بشحنة الثورة ·· فاذا جاء يوم الجمعة من كل أسبوع اختار مسجدا من المساجد يؤدى فيه الفريضة ·· فيهتز الكرسى من تحت وزير الداخلية ·· ويهرع رجال الامن الى المسجد يحاصرونه بحشود من الجند يخيل اليك معها أننا فى ساحة حرب فاذا دخل النحاس المسجد هلل المصلون وكبروا ·· فاذا انتهت الصلاة وبارح ركبه المسجد ·· هتف الشعب من حوله أمواجا تتلاطم ·· ورددت جنبات الحى هتافاتهم وأعمل الجنود هراواتهم فى أجساد المتظاهرين ·· وقد يسفر الالتحام عن دماء تجرى واصابات لا حصر لها ·· ويظل الكفاح محتدما شهورا أو أعواما ·· حتى اذا رأى الانجليز شبح الثورة يقترب أمروا القصر باجراء انتخاب حر ·· وكان الانتخاب يعنى عودة الوفد الى الحكم ·

وقصة الاسلوب

كان النحاس خطيبا بالصدق والحرارة والاخلاص ·· ولم يكن خطيبا بالفصاحة أو بالبلاغة كما كان الخطيب مكرم ·· وكان الكثيرون يتندرون بصرخاته وهو يقطع خطابه ليأمر واقفا بالجلوس او لاغطا بالسكون ·· وكان الرجل مفتوح القلب ولم يكن يحفل بأناقة العبارة ·· كان « درويشا » ان صح ان للزعامة « دروشة » ·· كان يرسل ما فى قلبه بطريقته وكانت الجماهير مريدين لشيخها مؤمنين بكل ما يقوله لها ·· ولم يكن تندر الخصوم بهذه «الدروشة»

فى الطريقة أو فى الاسلوب ليجد مكانه الا فى نواديهم ومقاهيهم وكان هذا التندر كل بضاعتهم ·· ولم يترك أبدا أى أثر فى زعامة الرجل ··

وقصة الســاعد

ولست أدرى هل كان من ميزات للرجل أو من عيوبه ·· حاجته دائما الى ساعد أيمن ·· الى رجل يصطفيه ويثق فيه ·· ويأتمنه على كل سر ·· ويشاوره فى كل أمر ·· ويلقى له الحبل على الغارب ··

ولعله أحس أنه كان هو المصطفى من سعد ·· فأراد أن يمشى على السنة فاصطفى بدوره مكرما ·· وقال الخبيثون يومها أنه آثر مكرم بذلك التكريم لان مكرم لا ينتمى ـ عقيدة ـ الى أغلبيـــة الشعب فلا مطمع له فى الزعامة ·· وفى تقديرى أن هذا التعليل ضعيف وسخيف ·· فما فكر أحد يومها مثل هذا التفكير ·· والدليل أن النحاس اختار بعد مكرم مسلمين لهـذا المنصب ·· وما طاف بذهنه مثل ذلك الهاجس ··

فى تقديرى أن شعور النحاس بحاجته الى رجل يصطفيه وعـلى ذلك النحو الذى كان يعتبر عيبا يشوب كمال الزعامة ·· ولا تعليل عندى الا الرجعة الى مفتاح الشخصية الى « الايمان » أيضا ·· الايمان بأن الله دائما يرعاه ·· ولا يملك الضر أحد سواه ·· فما ضره أن يثق ·· وما ضره ان خابت الثقة ·· تعليل مقبول من هذه الشخصية وان لم يكن مقبولا فى عالم السياسة ··

وقصة الزواج

قصة الزواج ·· يقف المؤرخون حيالها حيارى من غير شك ·· والخوض فيها كالخوض فى حقل ملىء بالشوك ·· وساحاول أن أقترب من الحقل ··

والنحاس لم يضعفه الا ذلك الزواج ·· لا لان النحـــاس كان يعرف شيئا مما يجرى حواليه ·· وما جره الزواج عليـــه ·· ولكن لان الخصوم الذين أعياهم أن يعثروا على عيب فيه سرهم أن يجدوا مثل هذه الثغرة لينفـــذوا منها الى الانتقاص من قـــدر الرجل ولقد استطاعوا أن يحدثوا فى الجرة خدشا ولم يستطيعوا أن يحدثوا فيها الثقب الذى أرادوه ··

ولقد قيل عن التاريخ الانسانى انه ما من عظيم الا وامراة وراءه ·· ولقد صدق هذا القول فى بعض العظماء ·· ولكنه لم يكن صادقا على طول الخط·· أو بغير قيد أو شرط·· صدق مثلا فى نهرو

•• كانت وراءه « كمالا » ـ زوجته المثالية الفضلى ـ كان يخرج من السجن الى صدرها الحانى وقلبها الكبير وعقلها الواعى وتشجيعها الذى لا ينضب •• وكان يعود الى السجن وهو على ثقة أن كفاحه يزيد « كمالا » زهوا به وحياله •• وكانت تحتمل المحن فى صبر عجيب حتى ثقل عليها المرض ونقلت الى المانيا لتعالج •• ولقد طار اليها بعد خروجه الاخير من السجن ليلحق بها فى احدى مصحاتها •• وكان أقسى ما لقيه فى الحياة أنها شاركته كل الشدائد والمحن •• ولم تشاركه أيام المجد بعد أن دانت له الهند •• ولقد قال مرة وهو يذكرها ويغص بالذكرى : « ترى ماذا كانت قيمة الحياة لو لم تكن « كمالا » فى حياتى تهدئنى وتمنحنى الراحة والسعادة وتساعدنى على أن أزود جسمى وعقلى المنهوكين بما يجددهما » •

ولكم كان العارفون يتمنون أن يهب الله النحاس « كمالا » مصرية •• أو أن يبقى بغير زواج كما كان مصرا ••

ولقد ظللت أحد عشر عاما ـ من ١٩٣٤ الى سنة ١٩٤٥ ـ أجهل الوسيط الذى لعب دوره فى هذا الزواج •• حتى التقيت به بالمصادفة واستمعت الى قصة الزواج من فمه هو •• من فم مكرم عبيد •• وفى بيته بمنشية البكرى •• وفى أول وآخر مرة رأيته فيها •• أعنى تلاقينا ••

مسار وشخصية

ولا شك أن زواج النحاس انتقل بمساره الحزبى والسياسى ـ وعلى غفلة منه ـ من مرحلة الى مرحلة •• وان كان هذا الزواج قد عجز تماما عن أن يتحول بشخصيته عن مكانها قيد أنملة كما عجز تماما عن أن يلتوى بخطه الخلقى عن مساره ••

كان يلتزم صراطه المستقيم التزاما لا هوادة فيه •• صلة بالله •• وصلابة فى الحق •• وشجاعة فى الكفاح •• وكانت كل الخيوط من حوله تتشابك فى اخطبوط مخيف يحاول أن يلتوى به عن الطريق ولا يدرى ووقعت أخطاء لا تخلو من خطورة •• وهو لا يراها •• ولا يعرف شيئا عنها •• كبابا روما الذى يتندرون به وحاجبه يطرق بابه ليصحو فى الصباح على قول الحاجب « الشمس مشرقة والسماء صحو » فيرد عليه البابا « أعلم ذلك أعلمنى به الرب » والبابا لا يدرى أن المطر يهطل بوحشية وأن روما تسبح فى بحر من المطر ••

ولقد تسربت الى النحاس بعض الاقاويل •• ولكنه مات وهو

مؤمن بأنها أباطيل هكذا قيل له ومن حقه أن يصدق هذا الذى قيل ·· لان أكاذيب الخصوم التى واجهته عبر الزعامة كانت كلها أباطيل ·· وعليها كان يقيس كل ما كان يتسرب اليه من القال والقيل ·· وهذا التعامل لا ينفى أنه المسئول ··

وزعامة نسائية

فى بداية الزواج كانت السيدة حرمه مبهورة بالزعامة وأمجادها ·· غارقة فى الاضواء التى تملأ المسرح ·· أكثر مما بهرت تاريمان عندما وقع عليها اختيـار الملك لتكون « ملكة » والبون بين الملك والزعيم شاسع ·· فالملك بحكم الدستور ذات مصونة لا تمس ·· وقد ود الكثيرون أن يمسوه ـ بل أن يلغوا فيه ـ ولكنهم لم يجاوزوا حدود التمنى بحكم ذلك الدستور ، أما الزعيم فعرضـة للمساس من كل الناس ولاكثر من المساس ·· وليس له من الدروع الواقية غير سواعد الشعب ·· وقد جاءت الحسناء الشـابة الى قلب العاصمة من فجاج الاقاليم ·· لترى بعينيها كيف يثور الشعب اذا مس الزعيم ولتشهد الملايين فى الطرقات والميادين يهتفون باسـم الزعيم بحناجر المجانين ·· ولترى كيف اجتمع بها فى نقـابة المحامين باسم كبار المحامين وأقطاب الوفد وذوات البلد فى حفل رائع أقامه يومها نقيب المحامين (مكرم) احتفالا بزواجها بالزعيم وأحيت الحفل أم كلثوم ·· بل ترى العروس الحسناء كيف ينحنى أمامها رئيس الوزراء يومها ـ توفيق نسيم ـ وكاد بعض وزرائه يخرون بين يديها ساجدين ··

هالها كل ذلك المجد ·· وهال آلها من شباب آل الوكيل العاطشين الى المجد والى الثراء وبدأت تفهم وتدرس ـ وكانت موهوبة ـ وتعد نفسها هى الاخرى لزعامة من نوع آخر ·· كانت ذكية ·· وكانت صاحبة شخصية ·· وكانت نزاعة الى السـيطرة وعنيت بزوجها حتى لقى الراحة على يديها وذاق طعم الاسرة على مستوى الحنـان ·· وأحب النحاس حرمه ·· حب الزوج المحروم ·· وحب الزوج الوفى ·· ولم يجد عيبا فى أن يحبها مع فارق السن بينهما ·· وكان يتمثل بالرسول وحبه لعائشة أم المؤمنين واندفع النحاس فى حنوه على بيته الى آخر المدى الذى تتسع له عاطفة تمشى الى ستين وكان أول خطأ له أنه بدأ يرى بعينيها لا بعينيه ·· وبدأ يحب كل من تحبهم ·· واتخـذ من أخوتها أبنـاء له واولاهم كما أولاها ثقة بغير حدود ·· ولم يكن فى وسعهم بحكم وضعهم وشبابهم أن يرتفعوا الى مستوى حبه النقى الخالص ··

وانما أحبوه على مستوى الامانى والمطامع ·· وبدأوا يحلمون ··
كان النحاس يومها ·· يخوض المعارك ·· ويصرع الخصوم ·· وكانت هى تتابع المعارك وتناقش أبطالها ·· وتزحف على مهل الى الاسهام فيها من داخل بيتها ·· ولقد لاحظت أن سيدة ذكية وجريئة ومغامرة من بنات جنسها بطرت معيشتها وتجاسرت على خصومة الزعيم بعد أن نجحت جريدتها اليومية (روزاليوسف) نجاحا كبيرا ·· وببيان من الوفد ·· وبخطاب من الزعيم ·· وبمقالات من مكرم ·· ذهب المجد ·· وفلست الجريدة ·

ورأت الحسناء كل الاحداث وهى تتوالى ·· جبهة الشباب من مختلف الاحزاب تدعو الى الوحدة ·· والملك فؤاد يدعو الى قيام الجبهة ·· والانجليز يسعون الى عقد المعاهدة ·· والنحاس يصر على اجراء الانتخابات ·· وعلى ماهر يجريها والنحاس يعود الى الحكم ويعقد المعاهدة ·· ويلغى الامتيازات ·· ويجلس فوق أعلى قمة جلس فوقها زعيم ·· وعاد النحاس الى مصر فدخلها دخول الغزاة الفاتحين ·· ولم يكن أحمد ماهر والنقراشى قد انشقا عن الوفد ولم تكن جريدة (البلاغ) قد خرجت على الزعامة ·

عبر تلك الاحداث ·· كانت السيدة زينب الوكيل قد عرفت طريقها الى الامجاد كما تراها وتتمناها ·· وعرفت أن الهالات التى كانت ترسمها الصحف من حول الوزراء لا وجود لها فى الحقيقة ·· وأن أى وزير يسعده أن يعرف أن (لرفعة الهانم) رغبة ·· وأن يسارع الى قضائها ·· حتى ترضى ·· وحتى يرضى ·· وانطلق آل الوكيل الى (جلائل الاعمال) فى مختلف الوزارات والشركات ·· وحدثت الاخطاء والرجل لا يعرف منها شيئا ·· والشارع يلغط بها ·· والخصوم يبالغون فى تصويرها ·· وان كانت فى حقيقتها لم تجاوز بعض الاستثناءات فى التعيينات والترقيات ·· مما أسماه الخصوم (المحسوبيات) ولكنها ـ على تفاهتها ـ أساءت الى سمعة الوزارة الوفدية ·· فلما أقيلت فى آخر يوم من سنة ١٩٣٧ لم يدر بخلد النحاس باشا أن لهذه الاخطاء أى وزن ·· بل لعلهم اقنعوه بأن من حق الوفدى المخلص أن يكافأ على اخلاصه لقاء ما يلقاه من اضطهاد فى العهود الاخرى ·· بعد أن أرسى سعد زغلول هذا الاساس عندما أعلن أن حكومته يجب أن تكون زغلولية لحما ودما ··

هدنة وصراع

واعبقت اقالة الوزارة الوفدية هدنة طويلة فلم يعد الوفد الى

الحكم الا فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ بعد ان جـــرب الدستوريون والسعديون كل وسائل التزييف وأقصوا عن البرلمان كل الوفديين باستثناء اثنى عشر نائبا ـ يتزعهم عبد الحميد عبـــد الحق ـ خاضوا العراك ضد المجلس المزيف بجرأة وبراعة وتوالت الاحداث بسرعة مخيفـــة ·· ولم تجد كل التجـارب التى أجراها القصر والمحتل ·· ووثب على ماهر الى الحكم وأعلنت الحرب العالميـة وأبعد على ماهر وجاء حسين سرى ·· وهدد روميل الاسكندرية وتعرضت بريطانيا للضياع ·· ولم يكن لها الا النحاس ·· فجىء به ·· وأملى شروطه وتسلم الحكم ·· وأعطى سلطات الحكم العرفى ·· وطال فى هذه المرة حكمه ·· بحكم الحرب وأحداثها ·

ولم يقل التاريخ كلمته حتى الآن فى وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ التى قيل انها جاءت على أسنة الحراب ·· وثار عليها الكثيرون ·· ·· بعضهم لاهداف حزبية ·· وبعضهم باخلاص وحسن نية ·· ورفض التاريخ وما يزال يرفض أن يقول كلمته ·· لان النحاس امتد به الاجل ·· وكان مجرد وجوده على قيد الحياة ثقلا يحسب حسابه حتى وهو يمشى الى التسعين ويرفض أى حديث فى السياسة والى أن يقول التاريخ هذه الكلمة أحب أن اغامر برأى لى ـ وقد عاصرت تلك الاحداث ـ ليكون مع مختلف الآراء تحت انظار المؤرخين بعد عام أو بعد مائة من الاعوام ··

أريد أن أقرر أن التهمة التى وجهت الى النحاس كانت تهمـــة ظالمة ·· ولا أريد أن تقنع بالقول بأنها كانت حقا أريد به باطل ·· لانها لم تكن حقا ·· وانما قامت الوزارة فى ظروف غلفت قيامها بقشرة من الحق ·· وخدعت عن الحق الكثيرين ·· دبابات تحيط بالقصر ·· انذار بخلع فاروق عن العرش اذا لم يشـكل النحاس الوزارة ·· توسلات من الزعماء للنحاس أن يشـكل منهم وزارة ائتلافية وأن يرفض الانذار البريطانى وأن يدافع عن كرامة العرش بوصفه رمزا لكرامة البلد الى آخر ما قيل يومها ··

كلام معقول فى ظاهره ·· ولكن الامر فى حقيقته كان عـلى النقيض تماما ··

كانت الحقيقة ان هؤلاء الزعماء ـ وعلى رأسهم أحمد ماهر ـ هم الذين أبعدوا الوفد عن الحكم أربعة أعوام بغير الحق وحاربوا الشعب عبرها حربا لا رحمة فيها ·· وزيفوا الانتخابات تزييفـا جرد الاحرار منهم من كل التراث الثورى الذى خلفوه وراءهم ·· والتقى المتخاصمون منهم على وضع غير طبقى ليتعاونوا بأرخص الوسائل على أن ينجحوا فيما فشل فيه صدقى باشا بكل وسائله

·· وكان القصر معهم وأمامهم ووراءهم فى كل ما ارتكبوه ضد الوفد والشعب ·· ولم يكن الملك فى تصرفاته مصريا ولا وطنيا ·· فاذا نشبت الحرب العالمية بعد ذلك كله وتحرج موقف انجلترا ذلك الحرج ·· ورأت أن الشعب الغاضب عليها لا يمكن أن يهدأ الا اذا ردت اليه حقوقه وتسلم مقاليد الحكم زعيمه ·· فاقترحت لتأمين ظهرها عودة النحاس ·· ثم علمت أن الملك يلعب دوره فى الخفاء ليشكل أحمد حسنين وزارة للقصر ·· فهددت الملك بعزله اذا لم يشكل النحاس وزارته فذلك حق من حقوق انجلترا كدولة تحارب ·· وليس ذنبا للنحاس أن تطلب انجلترا رد حقوقه اليه ·· وانما الذى يحاسب عليه النحاس الموقف الذى يختاره هو لنفسه وللوفد وللشعب وهو ما أريد أن ألقى عليه بعض الاضواء ··

ولم يكن النحاس غرا الى الحد الذى يخدع فيه بالزى الوطنى الذى ارتداه يومها أحمد ماهر وزملاؤه ·· فيمد يده اليهم بعد أن أذاقوا الشعب كأس الذل مترعة أربعة أعوام متوالية ·· فيقدم اليهم كراسى الحكم فى لحظة تاريخية يستطيع الشعب فيها أن يسترد حقوقا سلبت منه طوال ذلك الزمن ··

ولم يكن النحاس غرا حتى يناصب بريطانيا العداء وهى تطالب بعودته الى الحكم فيعرض مصر كلها للضياع وتضطر الى حكم مصر حكما عسكريا تأمينا لظهرها كما تحكم المستعمرات التابعة للتاج ··

والذى صنعه النحاس هو الذى كان ينبغى أن يصنع ·· لقد رفض الانذار البريطانى ورفض أن يشكل وزارته بناء على طلب انجلترا ·· وانما هو يشكلها كالعادة باسم الشعب الذى تمثله ·· ويشكلها وفدية لحما ودما ·· ويشكلها على أساس من الانتخاب الحر الذى يثبت أن الشعب ما يزال يؤيد الوفد ·· ويشكلها فى الدرجة الاولى ليكون الحامى لمصر من بطش دولة تحارب ·· ولا تتردد أمام كارثة روميل فى هدم مصر كلها من الشلال الى البحر اذا كان فى هدمها انقاذ لانجلترا وبعد أن ثبت أن الملك وعلى ماهر وغيرهما يؤمنون بفوز هتلر ··

وجاءت الاحداث موافقة لرأى النحاس ، واستطاع أن يجتاز الحرب كلها بسلام · والدليل على أن انجلترا انما قبلت حكومة النحاس كارهة ·· ان الحرب العالمية ما كادت تطل على نهايتها وما كادت بوادر النصر المحقق للحلفاء تلوح على الافق حتى تخلصت انجلترا منه ·· وأذنت للملك أن يفاجئه بالاقالة فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ والنحاس فى مصيفه الرسمى ببولكلى وأن

يكلف بالوزارة خصمه اللدود الذى ثار عليـه فى أوائل فبراير سنة ١٩٤٢ أحمد ماهر باشا ..

بين الهدم والبناء

كان النحاس يخوض تلك المعارك .. فى الحكم وخارج الحـكم .. وفى الوزارة وفى الشارع .. بنفس « الايمان » الذى حـداه فى كل المراحل .. وكان بيت النحاس ـ على غفلة منه ـ يخوض معارك أخرى .. كان نفوذ السيدة زينب الوكيل قد استشرى .. وكان أشقاؤها وأعوانهم قد بدأوا يمارسون نشـــاطهم على كل مستويات الاسواق .. وكانت البلاد تحت الحكم العرفى وكانت الصحافة ووسائل الاعلام تحت الرقابة .. وكان تجار الحـروب يحومون حول هؤلاء .. وملأت الشائعات كل مكان وترامت الى كل الآذان .. واذن واحدة ظلت وحدها لا تسمع شيئا مما يقـال .. هى أذن النحاس .. فاذا قرعهـــا صراخ عال من شاك أو مستغيث وبطريق المصادفة (اما بطـــريق البرق أو البريد أو من النوع الذى يضل الطريق) وصرخ الرجل فى أحد السكرتارية : « ايه ده ؟ » فالفرقة كلها ترد على الفور « دسيسة يا باشا » فاذا عاد الى البيت مهتاجا .. تلقفته الفرقة العاطفية الاخرى لتثبت له أن كل ما ترامى اليه كذب ومن صنع القلة والمعارضين ومن صنع الحسـاد والحاقدين .. ومن ذيول (الكتاب الاسود) وواضعيه .. وانتهى هذا كله باقالة النحاس فى آخر سنة ١٩٣٧ ..

وعاد الى الحياة

ماتت وزارة النحاس وظن بعض الناس أن لا قيامة للرجل بعد ذلك الموت .. ولكن النحاس كزعيم لم يلبث أن عـاد الى الحيـاة واسترد كل ما فقد .. من الارض .. وهى ظاهـــرة يحسن أن تسترعى انتباهك لها .. ظاهرة تكرر حدوثها .. على طول طريقه .. وعلى طول حياته .. كل وزارة وفدية كانت تقوم على اكتاف الشعب ويستقبلها الملايين بمظاهرات رائعة تكاد تدنو من الجنون .. ثم لا تلبث هذه الوزارة ـ اى وزارة نحاســية ان تمشى الى الشيخوخة بفعل التخريب من داخلها حتى تستقيل او تقال .. فاذا عاد الرجل الى الشارع يقاتل وبريء من المخربين الذين كانـوا يتوارون عن العيون بعد زوال الحكم .. عاد اليه ايمـــانه .. واستعاد كل شعبه وفجر كل طاقاته .. ونسى الشعب كل ما قيل عن عائلة الوكيل او غير الوكيل .. ولم يعد امامه الا « النحاس .. النحاس » .

وهذا ما حدث بعد أن أقيل .. ووثب الى الحكم احمد ماهر ..

وكانت « أخبار اليوم » قد صدرت للاجهاز عليـــه ·· وبدأت تنشر ما أسمته أسرار الخلاف بين القصر والوفد ·· وكانت جريدة فنانة وبارعة ·· وكانت أدواتها من القصر والاحزاب بغير حدود ·· وكانت حملاتها ضارية وهادفة ·· وكانت ترفع راية التشهير بالوفد غير مبالية بأى قانون ·· وكان الصف طويلا خلف حـامل الراية ·· صف الخفافيش من كل الخصوم يزحفـــون الى دار الجريدة تحت ستار الظلام ، ويتوارون النهار يعـــدون الوثائق ويزيفونها ·· ويفبركون « الاخبار » ويجيدون سبكها ·

وأغتيل أحمد ماهر وجاء النقراشى وســـقط النقـراشى وجاء اسماعيل صدقى وعاد النقراشى الى الحكم واغتيل النقراشى ·· وجاء ابراهيم عبد الهادى واستقال ابراهيم عبد الهادى ·· وجاء حسين سرى الى الحـكم وأجرى الانتخـــابات وفاز الوفـد وعاد النحاس من سنة ١٩٤٤ الى سنة ١٩٥٠ ـ أمد طويل لم يبق فى جعبـة الخصـــوم سهم لم يسـدد الى الوفـــد ـ أمد طويل يئس صناع التخريب من الوفديين من عودة الوفـد الى الحكم فانضم فريق الى الخصوم وأكرم الباقين لانوا بدورهم ونفضوا من الحزبية أيديهم وبقى النحاس وحده فى الميدان ·· النحـــاس وصحفه ـ وكانت « البلاغ » قد عادت الى حظيرته ـ وشىء آخـــر أبقى من النحاس وأقوى من الصحف ·· الشعب ·· شعب الشارع ·· ظل معه فى كل مكان يوجد فيه أو يتجه اليه ·· استجاب له وخاض كل المعـارك من جديد تحت رايته حتى أرغم الملك الى اجـــراء الانتخابات وعاد النحاس ··

ولم يعد النحاس الشيخ الى الحكم ليستريح فى كرسيه ناعم البال هذه المرة وليرتع من خلفه المخربون ·· كالعادة فى كل مرة ··

وانما عاد الشيخ شابا هذه المرة ·· عاد ليرج المحافل الدولية بالغاء المعاهدة من جانب واحد ·· عاد ليرخص للشعب والفدائيين فى مهاجمة الانجليز فى القناة ·· عاد ليسحب عمـــال مصر من معسكرات بريطانيا فيقف نبض الحياة فيها ·· وعاد ليمنع الغـذاء اليومى عن جنود الاحتلال فاستغاثوا بالبحر والجو حتى يجدوا الغذاء ·· وعاد ليأمر رجال البوليس فى الاسماعيلية أن يدافعوا عن كرامتهم حتى آخر طلقة معهم ·

وأطل التاريخ الحديث بوجهه السافر على مصر الجديدة لاول مرة بعد ثورتها القديمة فى سنة ١٩١٩ ·

وجن جنون الخصوم ·· وتآمروا بليل ·· وأحرقوا العاصـمة ·· واقالوا النحاس ··

أقيل بعد الحريق وهو فى أوج الزعامة ·· وكان هذا آخـــر عهده بالحكم ·· وبعد أن قامت الثورة فى ٢٣ يوليـــو من نفس العام وحلت الاحزاب ·· نفض النحاس يده من السياسة بعد أن أدى الرسالة ·· وتسلم غيره الراية ·

وظل محل الاجلال كل السنوات التى عاشها بعد الثورة ·· لم يستطع أحد أن يوجه اليه اتهـــاما ·· ولا ارتضى حاكم أن يمس كرامته ·· كان الجميع يعرفون أن كرامة مصر ماثلة فيه ·· وأنه عاش لها بكل جلاله وبكل كفاحه وبكل قطرة من دمه بل وبكل أخطائه فى سبيلها ·· وعلى طريقها ··

كل سياسى سئل ·· وكل من اتهم حوكم ·· حتى حرمه كانت موضع المساءلة ·· وكانت تثور وتهدر محتمية بانتمائها اليه ·· وكرم ذلك الانتماء ·· وكفوا عنها المساءلة ·

ويعـــد

وعلى الرغم من تلك الصفحات التى كتبتها عن النحـــاس فى هذا الفصل ·· فانى أشعر شعورا عميقا بأنى لم أقل عنه شيئا ·· وان فى أعماقى صوتا يقول لى صادقا ان أتفه فصل فى هـذا الكتاب هو هذا الفصل ··

النحاس ليس هو ما كتبته بقلمى هنا ·· وانما النحاس فىقلبى وكما عرفته طوال عمرى ·

حتى الاحداث التى شاركت بشخصى فيها ·· عففت عن الاشارة اليها حتى لا يقال انى أعنى من ورائها شيئا يخص شخصه ·· ولعلها كانت أدنى من كل ما كتبته الى تجسيد هذه الزعامة ·· حادث فصـــل عربته عن القطار أيام صـــدقى ومحاصرته فى طنطا وكنت يومها أمثل (كوكب الشرق) فى المعركة ·· وحادث أمجاده يوم عهد صدقى باشا الى ستة آلاف من الجيش المصرى بقيـــادة اللواء عبد العظيم على باشا باغتيال النحاس وهو يزور المنصورة ويقتحمها اقتحاما ·· وأصيب يومها سينوت حنا بك الجالس الى جواره ·· وكنت أمثل (كوكب الشرق) · أيضا فى الرحلة ·· وطلبت أمام النيابة العامة لادلى بشهادتى فى تلك الاحداث ··

خفت من هذا اللون من الاحداث ·· وأحسست أن النحاس الذى يعيش فىقلبى ليس فى حاجة الى هذا اللون من الكتابة ··

وفى سجل الشهداء ·· أسماء الخالدين الذين استشهدوا فى ساحات كفاحهم ··

ولكن النحاس مختلف عنهم جميعا ·· فلم يمت مثلهم شهيدا

·· وانما عاش العمر كله شهيدا ·· حتى الامانة ·· وهى أخص صفاته سددوا اليها طعناتهم ·· فلفقوا قضية الوثائق أو قضية سيف الدين وما تقاضاه كمحام من الاتعاب فيها وقدم الى القضاء ·· وأصدر القضاء حكمه ببراءة النحاس ·· وسقط خصومه من فوق كراسى الحكم ·· واتهموه باغتيال أموال من وقف عبد العال الذى عين ناظرا عليه ·· وبرأه القضاء ··

وأطل النحاس على التسعين وهو فى أتم عافية ·· وفى مثل تلك السن زحف الوهن الجسدى والعقلى الى لطفى الســـيد ولم يزحف أبدا الى الرجل المؤمن مصطفى النحاس ·

سر الشـــباب

وتساءل الكثيرون عن سر الشباب الذى احتفظ به الزعيم الشيخ الى آخر يوم من حياته ·· والمقطوع بصحته أن النحاس التزم العفة والاستقامة طوال أيام حياته ·· وكان حريصا على سلامة بدنه فكان يتردد دائما على أطبائه ليطمئن الى هذه السلامة ·· وكان حريصا على الغذاء الصحى وظل فى سنواته العشر الاخيرة حريصا على غدائه ـ بالدال ـ لا بالذال مكونا من دجاجة مسلوقة وجساء وفاكهة ولا يزيد ·· ولم يعرف فى حياته مكيفا أو منبها ولا دخن لفافة ·· وكان من هواة رياضة المشى الطويل يوميا ·· وظلت هذه العادة تلازمه الى آخر أيام حياته ·· وكان ينـــام فى وقت مبكر ليصحو قبل صلاة الفجر ·· شتاء وصيفا ·· ولعل أهم سر فى شبابه أن القلق لم يسيطر عليه يوما ولم يستهلك جهازه العصبى حتى وهو يثور على الخصوم ثم يأتى المساء ويصلى العشاء ·· ويقول (عليه توكلنا) وينـــام ملء جفنيه مؤمنا بأن الله ناصره وحاميه ·· وقد يكون لحب الجماهير أثر فى الاحتفاظ بذلك الشباب ولم يحدث بعد سعد أن سمع أحد من الهتاف باسمه قدر الذى سمعه مصطفى النحاس ·· ولاشك أن هتاف الجماهير كان يجدد فيه الخلايا ·· وكان يبعث فيه الشباب ·

وللامانة ·· كان النحاس الزعيم الاكبر ·· بعد سعد ··
ولم يستطع أحد أن يزاحمه على الزعامة ··
ولم يكن فى وسع زعيم محترف أن يزاحم الزعيم المؤمن ··
وكان خليفة لسعد ولم يكن سعدا ··
ومضى الى بارئه مغفورا له ومرضيا عنه من الله ومن الناس ··
ومشى وراءه الى مثواه الاخير قرابة مليون من البشر ··
ولعل هناك ملايين ودوا لو ودعوه ·· ولم يكن لهم نصيب ··
للمرة الالف لا أمل القول : كان مؤمنا ··

مكرم عبيد

قبل

أن مكرم استهل حياته السياسية بثورة سنة ١٩١٩ وانتهت حياته السياسية عند ثورة سنة ١٩٥٢ وأعتقد أن حقائق التاريخ ترفض هذا التأريخ ٠٠ فلم يكن مكرم من الثوار فى سنة ١٩١٩ بل وانما عين أستاذا فى مدرسة الحقوق فى هذه السنة وظل يمارس هذه الأستاذية عامين كاملين بعيدا عن الثورة التى كانت قد روت خلالها أرض مصر بالدم الغزير ٠٠ وكل الذى فعله فى سنة ١٩٢١ أنه اشترك مع غيره من كبار الموظفين فى اقامة مأدبة لسعد زغلول ففصلوا من وظائفهم وفصل معهم أو مثلهم وسارع الى الوفد فانضم اليه ٠٠ سنة ١٩٢١ وليس فى سنة ١٩١٩ ٠

ومن حق القارىء أن يسأل : وأين كان مكرم قبل أن يعين فى الحقوق ؟

والجواب أن مكرم ـ أو وليم مكرم عبيد وقد تعنى التسمية شيئا بعيدا أو أشياء ـ تلقى تعليمه فى كلية الامريكان بأسيوط ثم سافر الى لندن فالتحق بالكلية الجديدة فى اكسفورد سنة ١٩٠٥ حيث حصل منها على درجة امتياز فى القانون سنة ١٩٠٨ ، ثم واصل دراسة القانون حتى حصل على ما يعادل الدكتوراه سنة ١٩١٢ ثم عاد الى مصر فعين سكرتيرا للوقائع المصرية (بوزارة العدل) سنة ١٩١٣ ولم يكن هناك غبار حتى ذلك العام على خط سيره تعليما وتوظيفا ٠

ولكن الانجليز أرادوا أن ينتفعوا به ـ أو أن يلتووا يه ـ فاختير سكرتيرا خاصا للمستشار القانونى (الانجليزى) فى سنة ١٩١٥ وظل سكرتيرا خاصـــا لكل مستشار يشغل هذا المنصب الخطير طوال مدة الحرب ٠

وثارت مصر ٠٠ بزعامة سعد فرأى وليم أن ينصح لانجلترا فى شخص رئيســه وأن يخلص لها النصــيحة ٠٠ فكتب وليم مذكرة رفعها الى المستشار ـ سير موريس ايموس ـ يقترح فيها لانهــاء الثورة ـ وكان موظفو الحكومة قد اضربوا فى ذلك العام ١٩١٩ ـ عقد « تحالف » بين انجلترا ومصر يحـــل محل « الحماية » ٠٠ ودرس الاقتراح ثم عين مكرم أستاذا فى الحقوق ولا أستطيع أن أقول ان الاقتراح أغضب المستشار فأقصاه ٠٠ أو أنه أرضــاه فرقاه ٠٠ وكان ذلك الاقتراح هو « النشاط السياسى » الاوحد الذى قام به مكرم من سنة ١٩١٩ الى ١٩٢١ ٠

وعلى امتداد ثلث قرن كامل ـ فيما بين الثورتين ـ اســتطاع هذا الصعيدى النابه أن يغطى من كتاب الكفاح المصرى صفحات وصفحات ٠٠ جانب منها ازداد اشراقه حتى ملأ فجـــاج الشرق نورا ٠٠ وجانب منها اشتد ظلامه حتى أنسانا البحث فيه قصــة ذلك النـــور ٠

أين ســـعد ؟

وعلى قدر ذكاء مكرم ٠٠ كان حظه عبر شبابه ٠

لقد عرف وحده ـ ودون سائر المفصولين من كبار الموظفين ـ كيف يستغل حادث الفصل الذى أصابه فى سنة ١٩٢١ واتجه الى سعد باللسان الفصيح والقلب المفتوح ٠٠ يعاهده على أن يعطيــه كل شبابه وقدراته وكل حياته بغير حدود ٠ وكان سعد بعيد النظر فرأى أن من الخير للثورة أن تتبنى هذا الشاب ٠٠ فهو أولا صعيدى صلب العود ٠٠ وهو ثانيـــا قبطى يشد أزر الزعيم فى توحيــد الصفوف ٠٠ ورفع شعار الصليب مع الهلال ٠٠ وهو ثالثا خريج اكسفورد ورجل قانون وخطيب مدره ٠ ويحسن الكتابة بالانجليزية ٠٠ فهو اذن خير رسول لسعد فى لندن وخير داعية للثورة على أرفع المستويات وقرر سعد أن يشبع غرور الشباب فى الشاب على أن يحذر الزعيم فلا يخرجه عن الزهو الشعبى الى نطاق المسئولية حتى يتسبين المجهول من أمره بعد أن عمل سكرتيرا خاصا لكبار المستشارين الانجليز بضع سنين وهكذا أرسله الى لندن داعيــة للوفد ٠٠ وفى الفترة التى كان عدلى يكن يفاوض الانجليز فى لندن

بغير توكيل من الشعب ·· ونجح مكرم نجـاحا كبيرا ·· وملأ فجاج الصحف الانجليزية بالمقالات الرائعـــة والتقى بالاحرار من حزب العمال لكسب تأييدهم ·· فلما انتهت مهمته وعاد الى مصر رأى سعد أن يرفع من شأن هذه المهمة ويسترعى انتباه العالم لها ·· فذهب بنفسه الى المحطة لاستقبال مكرم فذهب الشعب كله خلف زعيمه يهتف باسم مكرم ·· وقال سعد أن مكرم ابنـه ·· فهتف الشعب بحياة « ابن سعد » ·· وأصبح هذا اللقب علما عليه أضفاه عليه الزعيم وأقره الشعب وكان فاتحة لألقاب أخر ·· استمتع بهـــا مكرم ··

مصاهرة سـياسية

وأحس مكرم أن ليلة القدر قد فتحت طاقتها أمامه ·· وأن كل دعاء له مستجاب ·· فسارع الى الزواج ·· ومن ؟ من « عايدة » ابنة مرقص حنا باشا عضو الوفد المصرى ونقيب المحاميين وأحد الابطال الثوار الذين حوكموا أمام المحكمة العسكرية البريطانيـة العليا هو وحمد الباسل واخوانهما فوقفوا فى ساحة المحكمـــة أشداء بواسل يرفضون الاجابة عن أى سؤال يوجه اليهم ويصيحون فى القضاة الانجليز تلك الصيحة التاريخيـــة الخالدة « لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحاكمونا » ·· قالوها وكانوا على ثقة بأنهم سيعدمون ·· وصدر بالفعل ضدهم الحكم بالاعدام وان كان قد خفف فيما بعد ··

وهكذا اسـتطاع مكرم أن يسـجل بهذا الزواج الوطنى ـ أو « السياسى » فى الحقيقة ـ من ابنة الثائر الكبير مرقص حنا باشا ·· ضربة بارعة ألحقت مكرم بقائمة الثوار ·· ولم يكن منهم ·

ابن سعد فى المنفى والسجن

كان فى جعبة الحظ أو القدر ·· شىء رائع آخر ·· يدخـره لمكـرم ··

ما كاد يصل الى المحطة ويجد سعدا فى استقباله ·· ويدوى هتاف الجماهير بحياة « ابن سعد » ـ وبعد ثلاثة أيام من ذلك المجد الشعبى المفاجىء حتى ألقى القبض على سعد زغلول وعلى مكرم ـ ونفى مكرم مع سعد الى سيشل ·· فدخل الشاب الى تاريخ الثوار من أوسع الابواب ·· فلما عاد الى مصر سنة ١٩٢٣ وجرت الانتخابات لاول مجلس نواب ·· انتخب مكرم عن دائرة قنـا بالتزكية ولم يستطع أى كبير فيها أن يفكر فى منافسة « ابن سعد » ·

وبعد مقتل السردار واستقالة وزارة الشعب ـ لاحظ أن سـعدا

لم يختره وزيرا فيها ولا اختاره لاى منصب وزارى طول حياته ـ ألقى مكرم بعض الخطب النارية فى جماهير الشعب فألقى القبض عليه وزج به الى السجن ثم أفرج عنه بعد التحقيق معه ·· وازدان تاريخه بالنفى والسجن معا ·

على أن مكرم ـ برغم هذا كله ـ لم يستطع أن يقاوم وسـائل الارهاب والتزوير عندما أدار صدقى دفة الانتخابات فى سنة ١٩٢٥ فسقط مكرم فيها وان كان عاد الى المجلس فى سنة ١٩٢٦ بعـد ائتلاف الاحزاب وعودة الحكم الى الشعب ·· ومات سعد ·

تحت ظلال الطيبـة

وظن الكثيرون ـ بعد وفاة سعد ـ أن الحظ قد تخلى عن ابن سعد وكانوا واهمين ·· لقد كان فى جعبة الحظ ـ أو القدر ـ مزيد من التصعيد لابن سعد على يد خليفة سعد ·

كان الرجل الطيب ـ مصطفى النحاس ـ يشغل منصب السكرتير العام للوفد أيام سعد ·

وكان النحاس يعتقد أن مكرم شىء كبير وصديق صـادق ·· ومخلص وأمين ··

كان النحاس يؤمن بسعد ايمانه بالقدر ·· وكان سعد فى ميزان النحاس فوق الخطأ وقد رآه بعينيه يعـامل مكرم معاملة الوالد للولد ·· وسمعه بأذنيه يسميه (ابن سعد) وكان مكرم قد عـرف مواطن الضعف فى عاطفـة النحاس فعرف كيف يحتل مكانه فى قلبه ·· فلما مات سعد ·· عرف مكرم كيف يلعب دوره فى اختيار النحاس ـ رغم عواصف الخلاف ـ خليفـة لسعد ·· فكان من الطبيعى أن يقع اختيار النحاس على مكرم سكرتيرا عاما للوفد ·· وهكذا وثب الشاب الذى لا علاقة له بتشكيل الوفد سنة ١٩١٩ الى مكانة لم يستطع أن يدركها قدامى الثوار وفحول المجاهدين ومدبرو الاغتيالات وأعضاء الوفد·· وان كان قد وثق علاقته بهم فلميغضبوا لاختياره أو لم يجهروا بهذا الغضب ·

ويومها أدرك العارفون أو هكذا قيل أن مقاليد الزعامة كلهـا قد انتهت الى يد مكرم وخشى أولئك العارفون أن يحدث فى مقبـل الايام ـ وعلى يد هذا الشاب ـ كل ما حدث فعلا فى مقبل الايام ·

أخذ النحاس بمظاهر سعد فى موقفه من مكرم وفاته أن يبحث عن دوافع سعد الى ذلك الموقف ·

ولم يسأل النحاس نفسه : لماذا ارتفع سعد بالمحامى الاقليمى

الصغير محمد افندى نجيب الغرابلى « باشا فيما بعد » الى منصب الوزارة ولم يعين مكرم وزيرا ..

وفى ظلال هذه الطيبة .. تم لمكرم على يد النحاس ما فاته على يد ســـعد ..

لقد شكل النحاس وزارته وعين مكرم وزيرا للمواصـلات .. أصبح وزيرا أيضا ..

المجـاهد الكبير

أصبح مكرم لسانا للنحاس .. وكان النحاس فى حاجة الى ذلك اللسان المدره المفوه حتى يملأ المكان الشاغر والفراغ المخيف ..

واتجهت سياسة مكرم فى تلك المرحلة الى الارتفاع بخليفة سعد .. الى شىء يشبه سعدا .. وبدأ يضفى على النحاس لقب « الرئيس الجليل » وتابعته صحف الوفد فحفرت كل منها « كليشيها » يحمل اللقب وأفردت له مكان الصادرة . رأسا لنهر يناطح رأس النهر المجاور الذى يحمل كليشيه « جلالة الملك » أو « المقابلات الملكية » وأحست صحافة الوفد أو أوعز اليهـــا أنه يجب البحث عن لقب مماثل لمكرم .. أقل بقليل من « الرئيس الجليل » .. وفوجىء الناس بكليشيه آخر يحمـل لقب « المجاهد الكبير » وبهذا اللقب تخلص مكرم من بنوته لسعد وأصبح أخا أو يكاد لخليفة سعد .. وتلقى الشعب هذه الالقاب بالهتاف والتأييد .. وكان لقب « المجاهد الكبير » أقرب الى نطق الجماهير فى تلك المرحلة .. فالثورة بعـد بها العهد .. والثوار أصبحوا وزراء .. وكلمة « الجهاد » أشد انطباقا على الاوضاع الجديدة .

مفتاح شـخصيته

وفى تقديرى أن هذه الشخصية الغنية بالعقد .. والتى تتشابك فى داخلها الخيوط كما تتشابك الاذرع فى الاخطبوط .. تستحق منا أن نحاول البحث عن مفتاح لها نديره فى بابها .. لكى ندخل .

وفى تقديرى أيضا أن مفتـاح شخصية مكرم هو « الطمع فى غير مطمع » فان كان لابد من تفسير أو ايضاح لهذا المفتاح فلنقل : « الطمع فى الزعامة المستحيلة » .

وفى نيتى أن أترك بين يديك هذا المفتاح لتديره أنت فى الباب وأنت تقتفى خطى هذا القلم كلما حاول أن يصور أو يرسم أو يحلل .. وذكاؤك كفيل بهذه المهمة .

ميزاته ومواهبـــه

امتاز مكرم بحشد من الميزات والمواهب .. عرف معـاصروه الكثير منهـا ..

امتاز خطيبا ـ وكان العصر عصر الخطابة ـ فكان هدارا فى الالقاء مشبوب العبارة ·· ساحر السجع ··

وكان يحفظ القرآن ـ أو الكثير منه ـ يجنح دائما الى « التضمين » أو الاقتباس من آياته ويحسن اختيار السور الحافلة بألوان النغم ·· وبما يحب أن يسمعه من وقع أو « رتم » وكان هو فنانا ـ أو ذواقة للفنون ـ بل كان يغنى ويطرب للغناء ·· يغنى بصوت جميل فى سهراته الخاصة ·· وبين خلص الاصدقاء ·· ويعرف الكثير من قواعد الموسيقى ·· وكان أصدقاؤه ممن يلتقون به فى هذه الميزات فاذا اعتزم أن يقضى أياما للراحة والطرب ·· سافر الى قنا وصاحب صديقه من المحامين والساسة عبد الحميد عبد الحق ··

هل زاحم سعدا ؟

واستقر فى أذهان الجماهير أن مكرم أخطب خطيب فى الجيل ·· فهل استطاع كخطيب أن يقترب من سعد فى الخطابة ؟ أبدا لم يقترب ·· فما هو السبب ؟

السبب أن سعدا ـ وهو أزهرى النشأة سليم اللغة واسع الاطلاع ـ لم يكن يقتبس من القرآن ولم يكن يتجمل للجماهير ·· وانما كان عبقرى الخطابة ـ الهاما والقاء ـ يستمد من قواه الخارقة من شىء « خارق » فيه ·· هو نفسه لا يدريه ·· ويرسل كلاما يخرج من قلبه المشبوب ·· ليأخذ فى طريقه بمجامع القلوب ·· حاملا اليها حرارة تملؤها دفئا ·· وحاملا اليها صدقا لا يصادف منها الا تصديقا ·· أما مكرم فكان غانية مجيدة على مسرح الخطابة ·· وكان يتجمل للنظارة ويطرب السامعين كما تتجمل لهم وتطربهم فنانة قادرة ·· كان وكأنه يضع المساحيق والاصباغ ويلبس الشعر المستعار ·· وينتفع بقواعد الاضاءة ويندمج فى دوره المسرحى كما يندمج أبطال المسرحيات فى أدوارهم ·· فكان أقرب الى توفيق دياب الذى ذهب الى لندن ليتلقى أصول الخطابة والالقاء وعاد الى مصر يلقن الشباب هذا الفن الجديد ·· ولكنه أولا وأخيرا فن مصنوع ·

استطاع مكرم اذن أن يزاحم توفيق دياب عندما ظن أنه فى طريقه الى مزاحمة سعد ·

مكرم وصدقى

ولعلك تدهش لهذا الانتقال من مكرم الخطيب وظل الزعيم الى اسماعيل صدقى وأنت تعرفه ولا محالة وفى ميزانى لا ظل لاى

دهش ·· فالمفاضلة التى أطلت على برأسها هنا ·· انما أثارها التناقض الصارخ بين موهبة فى مكرم وموهبة فى صدقى ·

لقد قلت عن صدقى « كان ذكاؤه يتوهج اذا وجه الى الهـــدم والردم ·· فاذا وجــه هذا الذكاء الى البنـــاء تخلى الفن عن الذكاء ·· الخ الخ » ·

وأحب أن أقول عن مكرم كل مايمكن أن يقال فى النقيض : «كان ذكاؤه يتوهج اذا وجهته للدفاع عن الشعب والاشـــادة بالزعامة واضرام الحماسة فى القلوب ·· فاذا وجه هذا الذكاء الى الهدم والردم لتلك القوى الثائرة ·· تخلى الفن عن الذكاء ·· وســقط هو تحت الانقاض » ·

ونخوض الصــعاب

وندع الآن تلك المقارنات والمفاضلات بينه وبين الآخرين لنواجه شخصيته المعقدة بكل مميزاتها ونقائصها ، كان مكرم من هــواة « التكتيكات الحزبية » ومن هواة « الاستراتيجية الشعبية » وهذه مزايا وكان من حق الهواتين عليه ·· أن يوفر لهما أدوات الحماية والحراسة من بعد فى النظر الى سلامة فى الاعصاب ·· ولكنه لم يكن بعيد النظر فى كل موقف ولم يكن سيد أعصابه فى كل المواقف وكان سريع التأثر وسريع الغضب ·· واذا ثار لا يقف عند حــد ·· وهذه مساوىء ·

لقد ضل طريقــه من البداية ·· عندما اســـتهدف « الزعامة المستحيلة » ·

وكان برغم غضبه السريع ·· ماكرا وساحرا ويعيد الغور بعد الزعامة عنـــه ··

قلت أنه بدأ مراحله ببناء النحاس ·· ولم يكن ـ على ما يلوح ـ مخلصا فى هذا البناء ·· كان يعتقد أن البناء من ورق ·· وأنه ينقض عندما يريد له هو أن ينقض وأن الشعب انما التفحول الزعيم بسبب دعايته هو لهذا الزعيم ·· وكان مكرم مخطئا فى حسابه ·· وكان خطأه واضحا ·· وعلى أساس هذا الخطأ ·· ظل يبنى ويعدل فى البناء على امتداد خمسة عشر عاما ·

فكر مكرم وقدر ·· وقتل حيث قدر ·

زواج النحــاس

فكر فى احـــكام الحصـار حول الزعامة ·· توطئة لتصــفيتها والاستيلاء عليها ·· وهداه التفكير الى الاسرة ·· فلو أن مكرم

استطاع أن يقنع الرجل بالزواج قبل الخامسة والخمسين (حتى يحق للزوجة أن ترث معاش زوجها بعد عمر طويل) ولو أن مكرم استطاع أن يختار هو هذه الزوجة ·· مدينة له بمجد الزعامة ·· لامسى الزعيم خاتما فى أصبعه ·

والنحاس كان بينه وبين الخامسة والخمسين بضعة شهور ·· وهو سليم البدن موفور العافية معنى بالغذاء الصحى ·· عريض المنكبين أقرب الى المصارع ·· فاذا هو تزوج أنجب ·· فاذا أنجب أصيب بمرض الابوة فاتجه الى منفعة البنين ·· فاذا أصيب بهذا المرض تخلت عنه أسرار القوة فيه (ومنها الايمـان بالوطن كله لا بالاسرة ·· ومنها الاستهانة بالغذاء فى سبيل هذا الوطن) · وتخلت عنه الصلابة التى عرف بها واشتد حرصه على الحياة وزينة الحياة ·· وتخلت الزعامة عنه أخيرا فأفسح الطريق اليها أمام مكرم الذى لم ينجب ·· كما لم ينجب سعد ·

كان النحاس يومها يعيش فى بيته عيشة التواضع ·· يحنو على أبناء شقيقته ويربيهم ويرعاهم ·· ولا يعنيه من الحياة أى زخرف أو أية زينة ·· ولا يعرف له بيتا الا « بيت الامة » ·

هذه الوطنية المثالية ـ أو « الوثنية » ـ يجب أن تتحطم ·

ونجح مكرم ·· وقال الزعيم لصديقه أخيرا : « اللى تشـوفه يا مكرم ·· أنا سايب لك الحكاية دى » ورد مكرم « لا أنا ولا أنت ·· احنا نسيب الحكاية دى لعايدة » ·

وكانت (زينب الوكيل) هى الفتاة التى وقع عليها اختيـار مكرم وعايدة ·· وهو الذى خطبها وهو الذى قام بكل شىء حتى تم كل شىء ·· وتم الزفاف فى العاشر من يونيه سنة ١٩٣٤ وقبل أن يكمل النحاس الخامسة والخمسين ببضعة أيام ·

وخيبت زينب الصغيرة ·· آمال مكرم الكبيرة ·

وكان اعتداد مكرم بذكائه ·· من نقط الضعف فيه ·· اعتقد ان الفتاة عجينة فى يده تتولى عايدة تشكيلها على النحو الذى يراه ·· واعتقد ان الفتاة ريفيـة من بيت كريم فى (سمخراط) عدت عليه عوادى الزمن بعد ان كان له تاريخ عريق فى المجالس النيابية عبر عهود الخديويين ·· فتخلى عنه الثراء واحتفظ بالعراقة ·· ومكرم يخلع الآن رداء الزعامة من جديد على البيت العريق ·· ليسترد مكانه من الثراء ·· ولترويض الوحش الجموح ·

وخيبت زينب كل هذه الامانى ··

ثبت أنها لم تكن الفتاة الريفية الساذجة بنت القناعة والعرفان ·· وانها سيدة تملأ بطموحها كراسى العروش ·· وتملك فى أعماقها ميتا يهفو الى حقه فى الحياة ·· وتملك فوق جسمها رأسا ذكيا يعرف طريقه ·· يحف من حولها حاشية وحراس من اللحم والدم ·· من الاشقاء والاقرباء يعرفون أيضا طريقهم ·

واستطاعت أن تقنع الزعيم انه أصبح ربا لاسرة وأبا لابناء ·· واستطاعوا أن يعوضوا بحنوهم هذا الاب والزعيم الصالح الجائع الى الاسرة العاطش الى البنين ·· فاستنام لهذا الدفء ·· وبدأت الاسرة الجديدة تخطط للمجد وشمروا عن ساعد الجد والدولة رهن أيديهم والجنة على مرمى أمتار منهم ·· ولا ينقصهم الا أن يخرج ابليس منها ليدخلوا هم اليها ·

وقع الاثنان فى الفخ ·· آدم بكل طيبته وأبوته ·· وابليس عقابا له على خطيئته · وذات مساء ·· جاء مكرم الى بيت صديقه وزعيمه و (ابنته زينب) ليتلقاه بالاحضان وليطبع مكرم قبلة الابوة الحانية على جبين الابنة العارفة ·· فاذا النحاس يأخذ بيده الى (سلاملك) بعيد عن الحرملك) ـ ان صح التعبير ـ ويصارح مكرم بأن (الست) لا تريد أن تستقبل الرجال حفاظا على تقاليد أسرتها المجيدة ·· ودخل مكرم وقال للنحاس (بس أنا مكرم يا مصطفى باشا) وقال مصطفى باشا (وحاتفضل مكرم الى الابد ·· بس بلاش نزعلها فى المسألة دى يا مكرم ·· دى يا مكرم ·· دى غالية عليه ·· وبقول لك كده بصراحة وانت عارف صراحتى) ·

وضحك مكرم ـ أو تظاهر بالضحك ـ وعاد الى بيته والدنيا تدور به وقال لعايدة (يا أنا حمار يا مصطفى باشا اتجنن) ·

فى ذلك اليوم ·· أو فى تلك الامسية ·· أرسى القدر أول حجر فى أساس الكارثة التى وقعت بعد سنوات ثمان ·

من قال لك ؟

قد تسأل : من الذى نقل لك هذا الحوار الذى دار بين الصديقين ؟ والجواب : مكرم نفسه : رواه لى عندما ذهب بى اليه صديقى الحميم أبو المجد بك الناظر عضو مجلس النواب (الكتلجى) الذى هزم عبود باشا فى دائرة (أرمنت) واستقال من الوفد احتجاجا على الوفد الذى ترك الدائرة مفتوحة لعبود وانضم أبو المجد للكتلة ·· وكان مكرم يروى الحادثة لنا وهو يعدد أخطاء النحاس فى حقه ومؤامرات الزوجة وأهلها ضده ·

ونعود الى الطريق

نعود الى مسايرة مكرم فى مراحله قبل الزواج وبعده ·· وفى طريقه الى الكارثة ·

كان مكرم قد تربع على عرش الزعامة الفعلية ·· بعد أن عين وزيرا للمالية فى سنة ١٩٣٠ وسافر الى لندن ليقوم بدعاية كبيرة ضد ديكتاتورية صدقى ·· وعاد الى القاهرة وانتخب فى معركة رهيبة بينه وبين حكومة صدقى ·· نقيبا للمحامين فى سنة ١٩٣٢ فعدلت الحكومة قانون المحاماة فأثارت ضدها المحامين فجاءت وزارة توفيق نسيم وألغت التعديلات وأعيد مكرم نقيبا ·

والزواج اذن تم ومكرم فى الذروة ·· لا ينقصه الا أن يزيل من الطريق بعض الاحجار التى لا بد أن يتعثر حلم الزعامة فيها ·· ماهر والنقراشى وكل عضو فى الوفد يخشى جانبه وعبد القادر حمزة وكل كاتب فى البلد يأبى الخضوع لجبروته ·· كالعقاد ·

و « الحرب البيتية » التى شنها « بيت النحاس » على مكرم لم تكن فى البداية حربا سياسية ·· ولم تكن تشكل عقبة أمامه فى طريقه السياسى ·· وانما كانت حرب منافع وأهواء ·· ومشى مكرم فى طريق المجد الفعلى لا يلوى على شىء فكان أبرز أعضاء الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٥ ·· وعين وزيرا للمالية ـ بعد عقد المعاهدة ـ فى سنة ١٩٣٦ ومنح لقب الباشوية ·· ونجح مكرم فى شق صفوف الوفد ·· وخرج منه من خرج ·· وألف ماهر والنقراشى الهيئة السعدية ـ وفقد الوفد أقوى لسان له فى (البلاغ) وصاحبها وتوالت الكوارث على الزعامة ·· وكان مكرم أهم أسبابها ـ اذا لم يكن الخالق لها ـ وكانت كل خسارة تصيب الوفد كسبا لمكرم وأحلامه ·· فى ميزان تفكيره ·· وعلى مسار تخطيطه ·

حتى جريدة (روزاليوسف) اليومية ـ وكان العقاد كاتبها الاول ـ قد فقدها الوفد على يد مكرم وبسببه بعد أن أوغر صدر الزعامة على الصحيفة وكاتبها حتى تفوه بعبارات تشكيك فى وطنية العقاد فثار العقاد ·· وكان فى يد مكرم بكلمة طيبة أن يرضى الكاتب الكبير ولكنه وسع شقة الخلاف وعمقه ·· حتى حمل الوفد أخيرا على طرد الجريدة من حظيرته وفصل العقاد من الهيئة الوفدية ·· وتصدى مكرم شخصيا لحملة على العقاد كشفت كل ما كان مستورا ·

وحاقت الخسائر بالجريدة وبالعقاد وبالوفد وبالزعامة ولكن مكرم كان فى النهاية هو الخاسر الاكبر ·· وكانت الخسارة

على العقـــاد خيرا وبركة فلجـــأ الى المجد الشعبى عن طـــريق الفكر واحتمى بالاسلام فحماه وكانت عبقرياته أبقى على الزمن من كل ما بناه ·· وخسرت روزا جريدتها اليومية فاحتجبت وعادت الى قواعدها فى مجلتها الاسبوعية تبنى نفسها من جديد ·· لسانا ينهش لحم الوفد والزعامة ومكرم ·

كان مكرم الخاسر الاكبر كما قلت ·· بعد ان كشفت مقـــالات العقاد ما كان خافيا على الناس من أخلاقيات مكرم واتجاهاته ·· ففتحت أعين الباقين من أعضاء الوفد ولعلها فتحت عيون الاسرة أيضا ·· بل لعلها فتحت عين النحاس نفسه ·· ولم يكن النحاس ـ برغم طيبته واستقامته ـ غرا فى السياسة كما ظن الكثيرون ·

وكان هناك ـ وأشلاء الضحايا تملأ الميدان ـ كان هناك شاب جمع بين الذكاء والمال والوجاهة والوسامة وبعد النظر وســـلامة الاعصـــاب وسحر الابتسامة وجمال اللقيا ودفء العود ·· بدأ على مهل ·· وبدأ من انتخابات سنة ١٩٣٦ يشق طريقه الى قلب الوفد من غير ضجة طالبا ترشيحه فى احدى دوائر مديرية الغربية بعد أن استقال من وظيفته كوكيل للنيابة ·· ولم يتنبه مكرم على هذا الخطر الزاحف ·· كان شابا صغيرا وكان مكرم زعيما كبيرا ·· وظل الزاحف الصغير يواصل طريقه من الابواب الخلفية حتى اذا ظن مكرم أن الفرصة واتته ليثب الى كرسى الزعيم ·· تلقى ضربة الشاب الناشىء تهوى على أم رأس مكرم ليثب الشاب الى كرسى الوزارة الوفدية ·· ثم الى منصب سكرتير الوفد بعد اقصاء مكرم وفصله من الوفد ·

الخطأ الجذرى

وبين أمجاد مكرم ـ التى ظلت تتلألأ الى ما بعد اقالة الوزارة النحاسية فى آخر ديسمبر سنة ١٩٣٧ ـ وبين خلافه مع الوفد بعد ذلك بخمس سنين ·· تاريخ طويل من الكر والفر والدسائس والمؤامرات ·· لا يعنينى أن أنشر تفاصيله شيئا فأنا أرسم شخصيته هو ·· وكدت أشرف معك على نهاية هذه الامجاد ·

كان خطؤه الاكبر ـ خطؤه الجذرى ـ كامنا فى شخصـــيته ومفتاحها (الطامع فى غير مطمع) ·

طهر الوفد من خصومه ـ وكلمة التطهير مرض فيه ظل يطارده حتى لقد أسمى حزب (الكتلة) الذى ألفه « الوفد مطهرا » ـ « طهر » الوفد من خصومه ·· وظن أن دنيا الزعامة قد ألقت اليـه

قيادها ·· وأن أعضاء النواب والشيوخ الوفديين من صفه هو ·· وأنهم ملك يمينه اذا ما وقعت الواقعة ·· فلما وقعت الواقعة فى وزارة سنة ١٩٤٢ رأى أن ساحة البرلمان هى المكان الاقدس الذى يبايعه نواب الوفد بالزعامة فيه · وكان قد تحدث الى النواب وأقره الكثيرون على آرائه وكان لم يزل سكرتيرا للوفد ·· فانتقل بالمخلاف الى جلسات النواب ·· وما كاد يشن الحملة على النحاس ويصرخ بأعلى صـــوته « وأنا بصفتى سكرتيرا للوفـــد » ·· حتى صرخ النحاس فيه غاضبا « غير صحيح ·· انت مابقتشى سكرتير للوفد خلاص » ودوت أركان المجلس ـ الموثوق به من مكرم ـ بالتصفيق لتصريح الزعيم وانهار فى لحظة واحدة كل ما بناه المجاهد الكبير من أحلام على مدى خمسة عشر عاما ·· بكلمة من النحـــاس لا بقرار من الوفد ·

انتهى مكرم ·· وانهالت على النحاس برقيات التهنئة والتأييد ·· وارتفع من الشارع كابوس ظل جاثما عليه ثلث قـــرن كامل، يهتف له ويشك فيه ·· ويرفعه على الاعناق ·· وهو معه عـــلى ريبة لا يعرف لها سببا ··

زعيم ·· زعيم

انتهى مكرم بكلمة ·· وغير معقول أن يستسلم مكرم بهـــذه السهولة ··

كان يعرف حفنة من النواب ·· واثنين من الشـبان الصحفيين اللامعين معه ·· جمعهم مكرم فى بيته ·· وأعلن قيام حزب الكتلة (وهو الوفد مطهرا) ·· بزعامته ·· وهكذا أصبح مكرم فى نهاية المطاف « زعيما » ·· أى زعيم ؟ !!

كان المرحوم أحمد قاسم جوده والاستاذ جلال الحمامصى ·· هما الشابين اللذين أيداه من رجال الصحافة وكان جلال مخلصـــا ـ بكل شبابه ـ لمكرم ·

ورأى مكرم والشاب معه أو الشابان والحواريون القلائل أن الغول لا يزال نائما ·· وأن أظافره لابد أن تقلم ·· ومكرم أعلم الناس بأخطائه ـ لانه هو صانعها أو المسهم الاكبر فيها ـ فلو أنهم استطاعوا أن يجمعوها فى كتاب ·· وأن يزيفوا فيها ويزيدوا عليها ويفاجئوا الوفد بها وانقضوا على هذا الغول لانفتح طريق الزعامة من جديد أمام الحزب الوليد ·

ونشط جلال الحمـــامصى ·· وجمع أخطاء المحســـوبيات والاستثناءات عبر كل وزارات الوفد التى كانت تدار بكلمـــة من

مكرم ·· وأصدروا بها (الكتاب الاسود) مطبـــوعا فى مطبعة مجهولة فى بنى سويف ·

وكانت الحرب قد مال ميزانها الى الحلفاء وقاربت على الانتهاء ·· فردت حكومة الوفد على « الكتاب الاسود » باعتقـال مكـــرم ·· وأحدث (الكتاب الاسود) أثرا فى بعض الناس ولكن الوفد كان تاريخا طويلا لا يستطيع كتاب أن يمحوه ولو صح كل ما جاء فيه ·· ولكن الاثر الفعال للكتاب قد ظهر عـلى القصر والاحزاب ·· كان القصر أمام الشعب مقهورا من حكـومة الوفد ·· وكانت أحزاب الاقلية ناقمة الى الاعماق على الوفد ·· وها هم أولاء يرون الخصم الاكبر لهم يحاول أن يهدم الوفد معهم ·· وانشرحت بالفعل صدورهم ··

وجاءت نهاية الوزارة الوفدية فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ بمفاجأة وهى تصطاف فى الاسكندرية ·

رفعة الى أسفل

فرجىء النحاس باقالته فى الوقت الذى ذهب فيه (على أمين) الى المعتقل يحمل أمر الافراج عن مكرم من أحمد ماهر الذى ذهب الى دار الرياسة فى القاهرة رئيسا جديدا للوزراء ·· وعاد (على أمين) بمكرم ·· لا الى داره بعد أن أطلق سراحه ·· ولكن الى وزارة المالية وزيرا لها فى وزارة خصمه أحمد ماهر ·· هكذا أشرك حزب الكتلة فى الحكم ·· وأعطى وزارات لا بأس بهـا ·· كان من بينها وزارة التموين التى تتحكم فى الصحف ·· أعنى فى ورق الصحف ·

كان الموقف غريبا ·· وكان التاريخ يضحك ··

أحمد ماهر يضحك بكل قلبه الطيب الجريح مع السيد التاريخ ·· لانه فصل من الوفد هو والنقراشى بفعل مكرم ·· وها هى ذى ·· يد ماهر العظيم تمتد الى غياهب المعتقل فتخرج منه الرجل ·· وتقدم له بضع وزارات هدية افراج وهو نوع من الثـأر الرفيع يجل عن الوصف ·

ومكرم يفرح ـ فرحا مشوبا بمذاق الاذلال ـ بخـــروجه من المعتقل مفتخرا على الوفد الذى أخرج من الحكم ·· ووزيرا كبيرا يعتزم أن يذيق الوفـــديين كأسا من المـــرارة التى شرب الوزير الكبير منها ·

ومصر كلهـا تحدق فى المهزلة ·· وتبتلع مأساتها لتعيدها الى الافواه نكات تروح بها عن نفسها ·

التحقيق

وبدأ مكرم انتقامه بأن طلب الى أحمد ماهر اصدار قـــرار باعتبار (الكتاب الاسود) وثيقة رسمية من وثائق الدولة والتحقيق فى كل ما جاء فيه ومع كل الذين وجهت اليهم التهم ·

وأحس أحمد ماهر بالحرج الذى وضع فيه وهو العليم بأن الكتاب حافل بالاكاذيب وبأن الوقائع الصحيحة التى ينطوى عليها ·· انما تمت على يد مكرم أو بأمره أو رضائه عنها ·· وكان أحمد ماهر واسع الافق ·· فتحايل على الموقف بأن اختار أخطر تهمـــة فى الكتاب وجهت الى حمدى سيف النصر باشا وزير الحربية الوفدى وعضو الوفد ليرى ان كانت صحيحة أو غير صحيحة وندب عبد المجيد بدر باشا (بك يومئذ) لتحقيق الواقعة وعهد الى شرف طه السباعى وزير التموين (المكرمى) بالاشراف على التحقيق ، وعكف عبد المجيد على الوثائق بحثا عن الحقائق يعاونه هلال شـــتا ـ السكرتير الموظف باللجنة المالية فى أحد المجلسين ـ وواصل الاثنان عملهما بنزاهة تحت اشراف طه السباعى وأســـفر التحقيق عن تقرير ضاف من ثلاثين صفحة يثبت أن كل ما نسب الى حمـــدى سيف النصر كذب وافتراء وأنه برىء من كل ما وجه اليه من تهم ·· واستند أحمد ماهر على التقرير فى مراوغة مكرم وتهدئته شيئا فشيئا حتى امتص كل ما به من ثورة ·· وكل ما للكتاب من وزن ·· وعندما أغتيل أحمد ماهر فى دار النيابة ·· كان (الكتاب الاسود) ·· قد أغتيل على أيدى المحققين وبرغم وجود وقائع كثيرة صحيحة فيه ·

هل كان وطنيا ·· وهل ؟

وفى مثل هذه المرحلة المجللة بالسواد يحس القارىء بشىء من البلبلة يجمله على أن يسألنى فى صراحة : هل كان مكرم وطنيا ؟ ·· وبنفس الصراحة أؤكد أنمكرم كان وطنيا فى أعماقه وكان ثوريا بطباعه ·· ولكن مصرع الوطنية والثورية فيه انمـــا تم على يد الحزبية والتطلعات الشخصية ·· ولم يكن مصرعا فقط ·· وانما كان مذبحة لا رحمة فيها أو انتحارا لا شك فيه ·· كان مكرم حزبيا بكل قطرة فى دمه ·· ولكن هذه الحزبية وحـــدها لم تكن هى (الجزار) صانع المذبحة ·· لان الحزبية وحدها تعنى أن يغضى عن أمجاده هو ليبنى أمجاد حزبه ·· ولكن الذى حدث أن كل شىء

فيه من وطنية وثورية وحزبية كان نابعا من الشخصية ·· ومفتاح شخصيته « الطمع فى الزعامة المستحيلة » وقد استخدم فى هـــذا السبيل كل تكتيكاته الحزبية واستهلك كل صدقه فى الوطنية وكل أصالته فى الثورية ·· وتردى ·

وقصة طويلة كان فى نيتى أن أرويها للتدليل على هذه الحقائق ·· ولكنى طرف فيها وأحب أن أعف عنها ·· ولو كان أبو المجد بك الناظر على قيد الحياة لتخليت له عن هذه المهمة ·· ولكنه هناك ـ حيث يقيم مكرم ـ وروحاهما « تشهدان » انى صادق فى كل كلمة قلتها عنهما ·

نهاية المطاف

ومرت الايام ·· وتحالف مكرم مع الشيطان ·· رجاء أن يهدم الوفد ويبنى على أنقاضه الحلم الذهبى ·· وعبثا حاول ·· لقد كان للوفد سره الذى أخفاه القدر عن كل حزب وعلى كل سياسى بل أكاد أعتقد أن القدر أخفى هذا السر على الوفد نفسه ·· كان يثب الى الحكم لا بفضل الطامعين من الشيوخ والنواب والانصار ·· ولا بفضل الاهل والاصهار وانما بفضل الزعيم العف الذى عاش فى بيته درويشا ·· يذكر الله دائما ويعبده صادقا ·· ولا يدرى أن من الذاكرين معه أو المؤتمين به عصابة لا تعرف الله ولا تعرف العفة ·· كان الوفد يثب الى الحكم ·· ويفقد على الزمن رصيده بفعل العصابة ·· حتى يتمكن خصومه من اقصائه عن الحكم فاذا عاد الزعيم الى زعامة المعارضين ·· استرد شبابه بعد الثمانين وهدم البيت على رأس ساكنيه من الحاكمين وهز بيده المؤمنة قوائم العرش وهيبة صاحبه واندفعت الجماهير وراء الزعيم من جديد ناسية كل ما نسب الى وزارته المستقيلة أو المقالة من أخطاء ·

ما هو سر هذه الظاهرة التى تكررت على مدى خمسة وثلاثين عاما ؟ لا أدرى ·· وأعتقد ـ نتيجة للحدس أو التخمين أنها حصيلة أمرين ـ وقد تكون حصيلة أمور ـ أولهما ايمان الشعب بدءا من سعد أن الوفد هو المدافع عن حق البلد ضـــد المستعمر والقصر وأحزاب الاقلية · وثانيهما ايمان الشعب بوطنية زعيمه مهما يقل خصومه فيه ، ونعود الى مكرم على ضوء هذا السر ·

لقد تحالف مع كل شـيطان رجاء أن يهدم الوفد ·· ولكن قدر الوفد ـ أو سر القدر ـ حمـل الوفد فجأة على أن يركب الصعب ويخاطر ·· ليسترد كل ما فقـد من الارض ·· وفوجىء الناس « بضربة المعلم » يسددها الزعيم الى الانجليز والملك معا ·· وبهت

مكرم وبهتت كل الشـــياطين ·· ألغى الوفد « معـاهدة الشرف والاستقلال » وألغاها بشجاعة ومن جانب واحد ··

استرد الوفد فى لحظة كل ما فقد من الارض ·· وفى لحظـــة استرد الشعب معه كل ما فقد من الثورية وسرت فيه الرغبـة فى محاربة الانجليز على القنـــاة حرب العصابات سريان النـار فى الهشيم ·· فكان سباق بين حكومة الوفد التى بدأت تنظيم هـذه الحرب حتى لايفلت الزمام من يديها ·· وشباب ثائر يتعجل الحرب ولا يقيم للزعامة وزنا ·· حتى تألفت فى فجاج الاقاليم كتائب مسلحة لا علم للحكومة بها واتجهت الى القناة ·· مدججة بالسلاح لتحارب ·· وأمرت الحكومة العمال المصريين العاملين فى المعســـكرات البريطانية ـ وهم جيش عرمرم ـ بترك أعمالهم ـ فتركوها وهى مصدر رزقهم وتولت وزارة الشـئون الحاقهم بالحكومة ·· وثار الانجليز وهاجموا بوليس الدولة فى الاسماعيلية وأصروا على هدم المحافظة على رؤوسهم فأمرت الحكومة أولئك الجنود البواســل بالقتال حتى آخر قطرة فى دمهم ·· وفعلوها ·

أين كان مكرم يومها ·· أو ما الذى كانه ؟·· لم يكن شيئا ·· لم يسمع أحد له صوتا والعواصف تزغرد ·· والدم يجرى ·· والشعب يستبق كل باب يفضى الى أشرف ميتة ·· وانتهى مكرم ·

ونشط الانجليز ونشط الفكر معهم ونشط من الخونة ما لم يكشف عنهم حتى هذه الساعة ·· فدبروا حريق القاهرة ·· غداة معركة البوليس الخالدة فى الاسماعيلية ·· وأقيلت وزارة الوفد بليل ·· وجىء بعلى ماهر فأعلن الحكم العرفى ·· ولم يستطع أن يرتفع الى المستوى الذى أرادته مصر ·· فترك الحكم وتوالت وزارات القش حتى كانت وزارة الهلالى التى جاءت الى الحكم أخيرا وللمرة الثانية لتضرب بيد من حديد على كل شغب ·· فعاشت يوما واحدا حتى جاءتها يد من الفولاذ تسدد الضربة الى العرش والنظام ·· فلاذ الهلالى بالفرار وقامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ســنة ١٩٥٢ وغادر الملك الاسكندرية على ظهر المحروسة يحمل صناديقه الملأى بالذهب والجواهر ثمنا لتنازله عن العرش ·

وشكلت محاكم ثورية لمحاكمة بعض الزعماء ·· وكان الرأى العام يتابع هذه المحاكمات ويزنها ·· بميزان خاص وحساس غير ميزان السلطات التى توجه الاتهام ·· وغير ميزان المتهمين الذين يحاكمون ·· كان الشعب يعرف بحاســة سادسة فيه كونتهـــا الحضارات على طول تاريخه ·· ان الموقف يستأهل « الفرجة »

وأن هذه المحاكمات هى أصدق محك للاخلاق ·· وصدق شعور الشعب ·· وتهاوت أمام هذه المحاكم كرامات الكثيرين من الساسة الذين دعوا الى الادلاء بشهاداتهم ·· ووقف على رأس الشجعان رجل لم يخطر ببال الشارع انه رجل شجاع ·· وهو الدكتور محمد حسين هيكل ·· ووقف على الرأى المضاد ـ رأس الاحقاد ـ مكرم عبيد مع الاسف ·· وقال فى خصومه وهم يرسفون فى الاغلال ما قاله الامام مالك فى الخمر ··

وأذن مؤذن النصف الثانى من القرن العشرين ·· بأن بدايته هى نهاية المجاهد الكبير ·· بدأ وليم يطلب العلم فى كلية الامريكان ·· واختتم البداية بتلقى القانون فى اكسفورد ·

وبدأ حياته الوظيفية سكرتيرا خاصا لكل مستشار انجليزى فى وزارة الحقانية (العدل) واختتمها أستاذا فى مدرسة الحقوق وبدأ حياته السياسية فى سنة ١٩٢١ بانضمامه الى الوفد ·· حتى أصبح ابنا لسعد ·· ثم سكرتيرا عاما للوفد · ثم زعيما أو كأنه زعيم ·· وانتهى بتحالفه مع السعديين والدستوريين وتبعيته للملك حتى أمسى من رجال القصر أو كاد ·· وانتهى تاريخه عند المحاكم العسكرية شاهد ملك أو ما فى حكمه ·· وعند مغرض يهاجمه بغير رحمة حتى ذهب الى ربه ·

رحم الله مكرم ·· كان عظيما ·· وضل الطريق ·

لطفى السـيد

لا شك

أن شعورا بالرهبة والتهيب كاد يردنى عن مواجهة « أستاذ الجيل » بأى رسم أو تصوير أو تحليل ·· لقد كان الرجل كبيرا كبيرا · وكان أثره فى توجيه الفكر أكبر ·· وأكبر ولكنه أثر لا يستهدف الظهور ولا يهوى البريق ـ أثر سـارب فى الليل مستخف بالنهار ـ اذا جاز هـذا التعبير ـ أثر يتجه الى الاعماق والاغوار ·· ولا يسـبح فوق الماء ليربح جائزة السباحة ·· فلنغامر اذن ·· بوقفة قصيرة معه نلوذ بعدها بالصمت ونعتذر ··

شـاب بعد التسعين

ولقد عاش لطفى السيد حياة طويلة عريضة ، فتخطى التسعين وفى طريقه الى المائة لم يكن شـباب الفكر قد تخلى عنه ، واذا صحت آراء العلماء الروحيين من أمثال سير أوليفر لودج ·· فان عقل لطفى المتحرر قد انطلق مع الروح حرا فى رحلة لا نهاية لها الى عالم أكثر اشراقا ·· يطل من عليائه علينا ·· ويفرح لنا كلما سجلنا بعض الخطى فى طريقنا الى الرأى الحـر ·· أو الى كل ما هو جميل وخير ··

ولقد قلت عنه فى سنة ١٩٤٢ ما نصه بالحرف (وعندى أن من سخرية الاقدار أن يعيش أحمد لطفى السـيد حتى يرى مصر وقد تناسته ·· والسياسة وقد تخطته ·· والحديث وقد أضرب عن أن يعرض له بخير أو شر) ·

ولكم أسعدنى بعد الذى قلته أن أرى مصر وهى تتجه اليه ·· فى الخمسينات تطلب عنده الرأى ·· وأن أرى الصحفيين من أحفاده ينشرون صوره فى بيته ·· ويلتقطون منه بعض رأيه فى شـــباب جيلهم ·· وأن أراه وهو يمشى الى المائة ·· يرتد شابا فى الرأى ·· ويؤكد لهم أن شباب هذا الجيل خير من شباب أى جيل سابق ·· وأن عصرهم خير من كل عصر سلف ·· وأن لهم من آفاق الفكر ما هو أرحب من كل آفاق الســلف ·· وأن لهم من غزارة العلم ما يبشر بالمستقبل الزاهر ·

وقال بعض المعلقين أو المعقبين ·· أن الشيخ قد خرف ·· وقال بعضهم انه أراد تشجيع الشباب لا أكثر ·· وأكد الفريق المتشائم انه بخير ·

وفى تقديرى أن الرجل كان صادقا وكان جادا ·· وكان يعنى ما يقول ·· بصرف النظر عن نصيب آرائه من الرفض أو القبول ·

لقد كانت ميزته الكبرى فكره الحر المتفتح ·· فكر دائم التوهج ودائم التطور ·· فكر يذكر بالاسى جيلا مضى دعاه يوما الى التحرر من التبعية للاتراك والايمان بالديمقراطية فثاروا عليه وقالوا انه ملحد ·· فكر يذكر بالاسى مدى تخلف ذلك الجيل ومدى سبقه له ·· ثم يرى بعينيه عصر الذرة وغزو القمر ·· على أيدى شــباب عالم مغامر ·· ثم يطلب منه ألا يبارك كل هذا التقدم ؟ كان اذن صادقا وكان جادا ·· وكان شابا فى تفكيره وهو يحدث شــباب هذا الجيـــل ·

والقصة من أولها

والخير فى أن تبدأ القصة من أولها كما يقولون ··

ولطفى السيد لم يولد فى كندا وانما ولد بمصر ·· ولم يولد فى المدينة وانما ولد فى قرية من الريف المصرى ·· وكان قدره ·· أن يكون ابنا لاحد كبار الملاك ـ السيد بك أبو على ـ ولم يكن ابنــا لفلاح فقير أو عامل كادح ·

ودرس لطفى الحقوق وعين فى النيابة ـ شأن أولاد الاعيان فى ذلك الزمن · ولم يرق له هذا اللون من الرق فتحرر منه واشتغل محاميا ليكون حرا ·· وأطل علينا المفكر الحر من خلال ذلك التصرف ·· وبدأ يفكر فى مصر ·· وبدأ يعيش للفكر ·· وبدأ يقرأ ويستوعب ويهضم ·· وكان لزاما أن يخوض غمار السياسة ·· ورأى من حوله قيودا من الحديد وقيودا من الذهب وأنكر الحديد والذهب معا ·· أنكر الاحتلال وسياســة القصر ·· وأنكر الحزب الوطنى برغم ثورة زعيمه الشاب ·· أنكر أن يســتظل براية الخديوى ··

وأنكر أن يستظل براية الخلافة ·· ورأى أن يستظل براية الحرية ·· تخفق عالية فوق رؤوس الجماهير ·· وخاض تجربة الجماهير بالفكر الواعى والامل العريض والقلب المفتوح ·· وفشل لطفى كما لم يفشل سياسى أو مفكر ·· ألف حزبا ·· وأنشأ صحيفة ·· وتحيز لها خيرة الشباب المتحرر ·· وفشل الحزب ·· وقاطع معظم القارئين جريدته ·· ولم ييأس ولم تظلم الجماهير لطفى ولكنه ظلمها وظلم نفسه ·

وكان مثلا للاناقة والترفع والعمق ·· وفى جو يموج بالبساطة والوضوح والسطحية كان لزاما أن يفشل ، كان الجهل يسود الامة ·· وكان ينشر فيها آراء أرسطو ·· كانت الجماهير تتجه بقلوبها الى خليفة المسلمين فى استانبول ، وكان هو ينكر هذه الخلافة وينكر هذه التبعية ·· وكان القارئون يطربون لبيت من الشعر القديم أو لحكمة من لقمان الحكيم وكان يريد أن يلقنها على كره منها آراء الليبراليين ··وجرت الانتخابات وخاضها بحزبه حزب الامة ـ يدعو الامة الى الحكم الديمقراطى فقال خصومه للجماهير أن كلمة الديمقراطية « تعنى الالحاد » فهتفوا بسقوط الملحد » ··

ظلمها لطفى وظلم نفسه معها وكان لزاما أن يفشل ·· كان من الاناقة والترفع والعمق ·· بحيث أعيلها أن تلتقى به أو أن تدرك مراميه فبعدت الشقة بينها وبينه ومع ذلك لم ييأس وظلت الجريدة تكافح وتخرج فيها الكتاب الذين أداروا دفة الكفاح السياسى على صفحات الجرائد الاخرى التى صدرت بعد ثورة سعد تعارض أو تؤيد ومنهم هيكل ومنهم عبد القادر حمزة ·

لم ييأس ·· بل ازداد اصرارا على طريقه ·· وبدد بالنور ما استطاع أن يبدد من كتائب الجهل وملأ فجاج الفكر بالآراء الجريئة وبالفلسفة الاغريقية ·· وظل فى هدوئه يبشر من غير أن ينذر ، ويعلم من غير أن يستخدم العصا ، وسمى بحق « معلما » وسمى بحق « أستاذ الجيل » ·· وعاش حياته بين مواطنيه ظلا وارفا تفيأوه أجيالا واتقوا لفحات الهجير ·· وملأوا رئاتهم المعتلة بنسيمه العليل ·· وواصلوا السير فى ظله وعلى مسار التقدم من غير أن يخطر لاحدهم أن يفكر فى صاحب الظل ·

ولعل من عيوبه أنه كان فيلسوفا واشتغل بالسياسة ·· وكان معلما ولم ينزل الى مستوى التلاميذ ·· وكان ينادى بالحكم الديمقراطى وكان هو ارستقراطى المظهر والسلوك ·

عضـــو فى الوفد

وثارت مصر تحت قيادة سعد ·· وكان سعد الزعيم يحترم لطفى المفكر ·· فأخلى له مكانا بين أعضاء الوفد المصرى عندما شكل ·· وكانت الثورة العارمة فى حاجة الى فيلسوف لها ·· يحمل اليها نور المعرفة ·· فيلسوف يكره بعقله كل استبداد وظلم ·· ليرشد ثوارا يكرهون الاستبداد والظلم بالعاطفـــة والدم ·· واستبشر العارفون باختيار لطفى عضوا فى الوفد ·

وسافر مع سعد الى باريس ·· وكان سعد يجله ويصغى دائما الى رأيه ·· واختاره واحدا من الاربعة الـذين عادوا الى مصر يحملون « مسودة مشروع ملنر » ويبصرون به الشعب ويطلبون رأيه وكان ذلك فى ســنة ١٩٢٠ وفوجىء الشعب بانحيـــاز لطفى المتطرف فى الوطنيـــة الى جانب المعتدلين ·· وظل ينحاز وينحاز حتى انضم بعد الانشـــقاق الى الحزب الوليـــد حزب الاحرار الدستوريين ·· وهذه الحلقة من حياة لطفى يكتنفها الغموض ·· وملا أزال ــ وقد مضى على خروجه على الوفد قرابة نصف قرن ــ ما أزال أتساءل مع المتسائلين : « لماذا لم يستقم لطفى أبو الحرية على طريق الاحرار ؟ ولماذا ارتاح لطفى للذين انشقوا على الثورة والثـــوار ؟ » ·

مجرد تســـاؤل

● أتراها استقراطية الفكر أخذت بتلابيبه وأثارت فيه ــ وقد بلغ الخمسين ســـنة ١٩٢١ ــ مرارة الكره للجماهير بعد أن لقى منها ما لقى فى صدر الشباب ·· فرأى أن يرتفع فوقها بين صفوة من الشباب العائد من أوربا ·· والمباهى بثقافة الغرب ؟

● أم تراها الطبقة التى كان ينتمى اليها عاودته أمراضها الى أبناء البيوتات وازدرى الجلاليب الزرقاء ؟ ·

الجواب ما يزال متعذرا ·· و « الطبقية » هنا لا تبدو لى عذرا ·· لان السيد بك أبو على ــ أباه ــ وان كان ثريا طائل الثراء ·· الا أنه فلاح أصيل ·· مكانه القرية حفيظ على التقاليد ·· ونشأ « لطفى » فى كنفـــه جم الادب بادى التهذيب ·· قص على يوما ضابط شرطة شيخ كان يعمل فى منطقتهم أيام شبابه ورأى الحادث بعينى رأسه قال «كان لطفى السيد يومئذ وكيل نيابة ·· وكان والده يجلس فى صدارة القوم يتحدث اليهم وهو خالع نعليه ·· «متربع» فى الجلسة فلما فرغ من حديثه وهم بالقيام أسرع لطفى وكيـل النيابة الى « مركوب أبيه » حين لاحظ أنه مقلوب الوضع فأعادة الى وضعه وقدمه الى أبيه فانتعله ·

هذا الروح المصرى القديم يرفضه اليوم أى خادم ، كان هو الروح الذى نشأ عليه لطفى

● أم تراه « القرف السـياسى » ـ التقى عنده بصـديقه عبد العزيز فهمى ـ عندما رأى أن الخلاف قد وقع فآثر جماعة عرفت بالثقافة فانضم اليها وانتظر الخير على يديها · فلما سـلكت غير سبيله تخلى عنها واعتكف فى بيته حتى ناداه العلم ليكون مديرا للجامعة واستجاب للنداء فى سنة ١٩٢٥ ·

الجواب مايزال متعذرا ·· أو على الاقل متعثرا ·· لان صديقه عبد العزيز خاض الغمار بطريقته العصبية وواجه القصر فى غير تردد ورأى حزب الاحرار وهو يتفسخ وخاصم سعدا ولم يتخاذل ·· وتحدى العروبة كلهـا بمشروع الكتابة العربيـة بالحروف اللاتينية ولم يتراجع ·· فاذا كان « القرف » قد أصابه وهو يمشى الى الثمانين وبعد كل ذلك الكفاح المثير فقد يجد من يفهمه ·· أما لطفى فقد رعاه « القرف » من بداية الثورة ·

تقدمى ·· ورجعى

على أن كارثة أخرى تقف فى طريق الباحث ·· عن حقيقة هذا الرجـل ··

لقـد استراح محبـوه الى مكانه الاقدس على رأس الجامعة من سـنة ١٩٢٥ وقالوا « هذا مكانه » واعتقـد الناس جميعا أن لطفى عاد الى قدس العلم ولن يعود الى دنس الحزبية ·· ومات سعد وانفض الائتلاف ووثب محمد محمود الى الحكم سنة ١٩٢٨ وفوجئنا بلطفى السيد وهو فى السابعة والخمسين ·· يعين وزيرا للمعارف وفى وزارة تعلن جهارا أنهـا توقف العمل بالدسـتور وتضرب باليد الحديدية ·· كيف فعلها ؟ لا أعرف حتى الآن جوابا ·

صحيح أنه لم يضرب أحدا فى وزارته ·· ولكنه أيضا ـ وهو المعلم ـ لم يترك بصماته على أى شىء فى وزارة التربية والتعليم ·· « وذهب عنها ·· كما جاء اليها بصمة واحدة طبعها على السياسة الخارجية للوزارة ·· كان يوما يدافع عن هذه السياسة فاستخدم عبارة ظل الكتاب بعدها يتابعونه فيها حتى أخذت مكانها فى قاموس السياسة يوم أراد أن يصف شأنا من الشئون بانه لم يعد له مكان فقال انه « أصبح غير ذى موضوع » ·

وعندما أتأمل عودته الى الوزارة ـ وهو أغنى الناس عنهـا ـ يخيل الى أن ذلك كان قدره ·· وكأنه قد جاء الى المنصب الوزارى ليضيف الى تاريخه خطيئة فى غير داع وبلا أى مقابل ويعود الى بيتـه ··

واســترد قيمته

ويبدو أن الجوهر الاصيل لا يفقد قيمته اذا لوث بالوحل عرضا ٠

لقد ظل منصب مدير الجامعة شاغرا ينتظر لطفى حتى عاد اليه بعد سقوط وزارة محمد محمود ونسى الناس خطيئـــة « المعلم » ورضوا عن عودته للعلم ٠٠ وجاءت وزارة صدقى لتحارب الامة ولتفعل الافاعيل بالطلاب الثائرين ٠٠ وأقدم وزير المعارف حلمى عيسى على تمزيق استقلال الجامعة بفصله الدكتور طه حسين وثار لطفى حامى الحرية القديم واسترد شبابه من جديد ٠٠ وكان له موقفه المشرف وأعلن رفضــه لاى اعتــداء على اســتقلال الجامعة وتضامنه فى الاستقالة مع عميد الادب ٠٠ وازدادت ثورة الشعب على صدقى وعبثا حاول توفيق نسيم اعادة لطفى الى الجامعة فقد كانت كراهية الملك فؤاد المستبد للطفى عدو الاستبداد قد أربت على الغاية ٠٠ ولكن فؤاد ذهب وبقى لطفى ليعود الى منصبه سنة ١٩٣٦ حتى استقال هو منه ٠٠ وان كانت دار الكتب قد انتفعت برياسته فترة ٠٠ فهذه الدار خزانة للفكر لا للسياسة ٠

ورؤى العبقــرية

واذا كان لنا أن نختتم تساؤلنا عن سر انفصـــاله عن الشعب بتعليل جديد وأخير فقلنا أنه « رؤى العبقرية » التى تجيز للعبقرى أن يرى الشىء مرة رؤية معينة ويراه مرة أخرى برؤية مناقضــة فالتعليل أيضا غير مقنع أو غير مشبع ٠٠ فالحــرية كانت قدس الاقداس عند لطفى ٠٠ واستقال من أجلها عند الاعتداء على حرية الرأى فى الجامعة ومع ذلك شارك فى وزارة داست كل الحريات ٠٠ فهل يجوز لنا أن نعتبر هذه المشاركة رؤية من رؤى العباقرة ؟ لا أظــن ٠

ومن عجب أنه بعــد كل فعلة فعلهــا ٠٠ كان ينسحب من الحكم ليتسلل الى البيت ليؤدى فى محراب الفكر صـــلاة الصمت ٠٠ وكأنه لم يفعل شيئا ٠

ورأيى بعـــد الخطى

بعد هذه الخطى التى ســايرتنى فيها فضـــلا منك على طريق أستاذ الجيل ٠٠ الطريق الطويل ٠٠ أرى أن أتحرر من كل ما يمليه نظام الخطو لاقول فيه أخيرا ما يعن لى ٠٠ غير مقيد بشــيخوخة او كهولة أو شباب ٠

ومجمل القول فى لطفى انه كان صاحب رسالة ٠٠ اداها على طريقته ٠٠ وترك أثرها يسرى فى فكر الجيـــل سريان النار فى الهشيم من غير ان يشعر بها أحد ومن غير أن يرى لها اى لهب ٠٠

رسالة البعث المصرى التى تحركت مرة على يد أحمد عرابى فضربت على أم رأسها ·· حتى أغمى عليها ·· وطالت الاغماءة ·

ترجم « لارسطو » كما قلت ·· ولكنه لم يترك وراءه مؤلفات · تلقى أفكارا وترك أفكارا ·· وكانت هذه رسالته ·· والمعلم يقضى العمر فى تعليم الناس ولا يفكر فى أن يضمن كفاحه الطويل أى كتاب محدود ·

كان لطفى من المعجبين بجمال الدين الافغانى ·· فواصل الرسالة ولكن بلغة غير لغة الافغانى ·· « باسلوب العصر الذى عاشه لطفى » ·

تلقى لطفى عن جمال الدين أفكارا وعن محمد عبده أفكارا وعن التاريخ المعاصر أفكارا وعن الثورات فى العالم أفكارا ·· وعن التراث الاغريقى والاسلامى أفكارا ·· وخرج هو بأفكار له ربتها فى الجيل ويتركها لحرية الحركة والنماء ·

فمجمل القول فيه أنه من « حملة المشاعل » ·

أنيق

وتكاد الاناقة فيه تجمع بين الشكل والمضمون ·· حتى ليخيل الى أن أناقته فى هندامه ترتبط ارتباطا عضويا بالاناقة فى حديثه ـ على قلته ـ وبالاناقة فى تفكيره على غزارته ··

لطفى أنيق من غير شك ·· أنيق فى رباط العنق ·· أنيق فى زيه كله ·· أنيق فى منديله الحريرى الذى يتدلى من جيبه العلوى فى كبرياء ·· أنيق فى الكلمة يرسلها بعد عمق فى التفكير ودقة فى الاداء ، أنيق فى الاتجاه يرسمه فى ذهنه ويرسم مساره بقلمه ·· ويجمع من حوله الحواريين ليناقشوه فيه ·

كثير التحفظ ·· رقيب على لسانه وعلى قلمه وعلى كل حركة يبديها ··

مترفع عن الصغار ·· وهذا اللون من السلوك يسميه بعضهم « كبرياء » وهى تسمية جائرة وفى اللحظة المحتومة يبرز من بين الصفوف ليضع حدا لخلاف يراه غير ذى موضوع ·· ثم يعود الى الصمت ··

فى البرلمان

وعندما عين لطفى عضوا فى مجلس الشيوخ من قرابة ثلاثين عاما ·· وفى يده مسبحة من الكهرمان يعبث بحباتها وهو فى طريقه الى الصفوف الخلفية التى تكدس فيها العظماء والمتعاظمون ·· اعتقدت أن أحدا لن يسمع له صوتا ·· ولكن مشكلة دستورية قامت بين الحكومة والمعارضة فأخذ لطفى طريقه الى المنبر ·

وفى هدوء أدلى برأيه ·· فكان الفقيه الدستورى الفيصل ·· وكانت عباراته مرتبة وكلماته موزونة وأدلتـــه قاطعة وكان صـــوته رائقا وكانت نبراته رائعة ·· واعتبر هذا الرأى تفسيرا دستوريا أنهى يومها ذلك الخلاف بعد أن توقعنا عراكا حاميا يثير أحقادا ويضرم الخصومات ·

ومن عجب أن تقدم الوزارة بعدئذ مشروعات خاصـــة بالتعليم العالى ·· وأن يخب فيها ويوضع شيوخ لا يعرفون شيئا عن ذلك اللون من التعليم ·· وارتقب الكثيرون كلمة الفصل فى هـــذه (الجامعيات) من « أستاذ الجيل » ·· ولكن الاستاذ ظل يرسل الى سقف القاعة ونقوشها نظرات مقرونة بابتســـامات ساخرة وذكروا يومها مرة أخرى كلمة « الكبرياء » ·· ولم تكن « كبرياء » أبدا ·· كانت « قرفا » لا شك فيه ·

حرم محمود عزمى

ولعلك لاحظت ـ ان كنت قد عاصرت الشطر الاخير من حياته ـ أن اتهام أستاذ الجيل بالكبرياء راج رواجا كبيرا ·· واقترن به اسمه وتاريخه وكان الشيخ مظلوما ·

وقد راجت هذه التهمة على نطاق أوسع بين المجلات التى تقوم مادتها الرخيصة على اضحاك القراء أو تسليتهم أو الترفيه عنهم، ووجدت فى هذه التهمة الموجه الى ذلك الرجل الكبير ·· مادتها ·· حتى لقد تردت فى هذا المنحنى الصحفى سيدة مثقفة من أعرف الناس بلطفى وأقربهم الى قلبه ، وهى السيدة الروسية البولونية المتحضرة حرم الصحفى الكبير الدكتور محمود عزمى ، فكتبت عن لطفى السيد مقالا مثيرا لقارئيه تصف الكبرياء فيه بداءة من صحوه فى الصباح حتى نومه فى المساء ·

ولقد قيل يومها ـ وكانت السيدة مولعة بالميسر ـ أن حاجتها الى المال أو الى أجر المقال ·· هى التى حملتها على كتابته ·· وان كنت من ناحيتى أشك فيما قيل ·· لان أجور المقالات فى ذلك الحين لم تكن مغرية الى هـــذا الحد ·· وأميل الى الاعتقاد أن شيطانا زين للكاتبة الصورة الضاحكة فتولت رسمها راضية ·

وفى ذلك المقال ·· تنقلت الكاتبة بين ألوان الاناقة والكبرياء فى لطفى السيد وفى يقظته من نومه وطريقة افطاره ومأكله ومشربه وسهرته حتى أسلمته الى الليل لتتجه به الىغرفة النوم فوضـــع يده على أكرة الباب وأدارها فى كبرياء فانفتح الباب ·· وانتقل الى الكهرباء فضغطه ضـــغطة آمرة فأنار الحجـــرة ·· واتجه للمشجب ·· ونضا « الروب » عنه فى كبرياء ·· ثم علقه على

المشجب فى كبرياء ·· واتجه الى السرير فى كبرياء ·· فاستلقى فوقه فى كبرياء ثم ضغط زر الكهرباء فى كبرياء ·· فانطفأ النور وساد الغرفة ظلام ·· ثم رفع سبابته فى كبرياء وهو يقـــول : « الآن فلننم » ·

على مطالع الثورة

ولعل الذى بدأنا به الفصل هو خير نهاية له ·· أعنى مـــوقف لطفى السيد وهو فى طريقه الى المائة ·· يريد أن يعيش بعد ســنة ١٩٥٢ عصر الثوار الذين جاءوا الى الحكم فى ٢٣ يوليو من ذلك العام ·· وكان يومها رئيسا للمجمع اللغوى ـ أو لمجمع الخالدين ان صح التعبير ـ فيرتدى زيه الجامعى ويرتدى الشيوخ أترابه من أمثال الدكتور منصور فهمى نفس الزى ·· وفى رهبة العلم يتجهون الى دار الرياسة ليباركوا الفكر الجديد الذى كان لطفى يبشر به من نصف قرن مضى ·· ودهش الناس ·· الناس الذين يعلمون علم اليقين أن الشيوخ فى كل جيل لا يمكن أن يرضوا عن طموح الشباب من الاحفاد والبنين ·· ولا يرضى الشيوخ عن أية ثورة ·· أو أى انقلاب ·· أو أى مظهر من مظاهر العنف ·· فكيف ساغ للطفى السيد أن يحشد ذلك الوفد المهيب فى أردية الجامعة وأوشحة العلم ليبايع الثوار على تلك الخطى وليبـــارك عليهم باسم العديد من الاجيال التى تطل من عيون الشيوخ ؟

وقيل يومها خرف الشيخ ·· وقيل شجع ·· وقيل وقيل ··

وفاتهم شىء واحد ·· كان الشىء الواحد هو عين الحقيقة ·

فاتهم أن لطفى بدأ شبابه يحارب العروش ·· يحارب الخلافة والخديوية والســـلطة والملك وكل أنواع السيطرة والاســـتبداد والاستيلاء ·· فاتهم أن لطفى نادى بالديمقراطية قبل الثورة بنصف قرن ·· وكانت « الجمهورية » حلمه الـــذهبى ·· ولم يترجم « أرسطو » عبثا ·

فاتهم أن أخطاء لطفى على امتداد طريق طويل جاوز التسعين ببضع سنين كانت أخطاء لا بد منها لطول الطريق ·· ولكنها كانت أخطأ السطح ولم تكن أخطاء العمق ·· كانت منعطفـــات على الطريق ·· ولم تكن عدولا عنه ·· أو له ·· فدب الشـباب فى ألمصال الشيخ ومشى الى الشـبان يبايعهم ·· أو يباركهم ·

خيل اليه أن عرشه الفكرى الذى جلس على كرســـيه عشرات السنين بدأ يستقر فى أعماق الجيل الجديد ·· وأن وقت حصـــاد الفرص قد حان ·· فذهب الى الحقل يبارك الحصاد ··

أحمد ماهر والنقراشى

كدت

أختار لهذا الارتفاق بين الرفاق عنوانا أجمع فيه بين الشقيقين على ماهر وأحمد ماهر ·· بدلا من الجمع بين الصديقين « أحمد ماهر والنقراشى » ولكن الله سلم ··

كدت أجمع بين الشقيقين ·· حتى يتسع أمامى مجال المقارنة ومجال المفاضلة بين اثنين حملتهما أم واحدة وانحدرا من صلب أب واحد ·· وشرق من الشقيقين من شرق ·· وغرب منهما من غرب ·· والتقيا فى صفة أو أكثر ·· وافترقا فى صفات لا حصر لها· ولكن الله سلم كما قلت ·· سلم من الخطأ ·· فلم نجمع بين النقائض التى أدت الى أخطر النتائج فى سياسة البلد ·· وانما جمعنا بين النقائض التى تؤدى الى « التكامل » بين ماهر والنقراشى ·· « ورب أخ لم تلده أمك » ·

ولعل أقرب أوجه للشبه بين « ماهر والنقراشى » فى الوطنية والسياسة والصداقة هى أوجه الشبه بين « العقاد والمازنى » فى الشعر والادب والفكر وما كان بين الكاتبين من فوارق بين العمالقة والاقزام أدت الى « التكامل » فى الانتاج وفى الاخاء ·· على أن ما كان بينهما من تكامل قد انفرط عقده ورث على الزمن ·· أما ما كان بين « ماهر والنقراشى » فقد بدأ بالموت الذى لم يقع ·· وظل على قوته حتى الموت ·· الذى وقع ، وورث أحدهما الآخر فى كل

شيء ·· بدءا من تضامنهما فى اغتيال أعداء الوطن ·· وانتهاء الى اغتيال كل منهما فى مأمنه ·· وفى المكان الذى التصق به وتفوق فيه ·· فاغتيل النقراشى رجل الامن الحـــديدى فى وزارة الداخلية معقل الامن ·· وأغتيل أحمد ماهر أقدر رئيس برلمانى فى دار البرلمان ·

واعجبـــا !!

ولعل أعجب ما فى أوجه الشبه بينهما ·· ما خفى عن النـاس واستتر ·· وليس ما تبدى للناس أو ظهر ··

تبدى للناس أن بين الاثنين فارقا طبقيا لا يستهان به ·· فقيل ان أحمد ماهر باشا أحد أبناء محمد ماهر باشا وكيل وزارة الحربية فى عهد الخديوى عباس الثانى أى باشا وابن باشا وأن محمود فهمى النقراشى باشا سكندرى المولد فقير الاسرة ·· وقالت أصحاب هذا القول أن المال يجىء ويذهب ·· وهو من أى الوجوه يكتسب ·· ولكن الشبه الخطير ما كان له جذور فى الارومة وما خضع لقوانين الوراثة ·· فالصديقان ينحدران عن أصل شركسى وقيـل عن النقراشى أن أحد أجداده كان من الدروز فجمـــع بين الدرزية والشركسية ·· وهذا الالتقاء عند الشركسية يفسر لنا الكثير من طباع الصلابة والاصرار والاعتداد فى كل من الصديقين ··

ومن غرائب الصدف أيضـا أن يتقارب الصـــديقان فى السن فيولد أحمد ماهر سنة ١٨٨٥ ويولد النقراشى فى سنة ١٨٩٠ ثم يختزل القدر هذا الفرق الزمنى فى المولد فيلقى ماهر مصرعه فى سنة ١٩٤٥ قبل أن يلقى صديقه مصرعه بأربع سنوات ·· ليلغى كل فارق بين الصديقين عند المصرع ··

يبين من هذه « المصادفات » أن أيا من الصديقين لم يكن رمية من غير رام ·· وانما صنعته الاقدار بيديها صنعها لاخيـــه ·· وهيأته لرسالة يكمل بها رسالة أخيه ·زجت بهما فى غمار البداية المزدانة بالدم ·· ورسمت لهما مأساةالنهاية المضرجة بالدم ··

ومن البـداية الى النهاية طريق طويل ·· بدأت بالتقـاء بين الاثنين عضوين فى هيئة التدريس بمدرسة التجارة العليـــا حتى أعلنت ثورة سعد ·· ثم ثنت بانضواء الاثنين معا تحت رايـــة سعد ·· واجتازت بهما كل الاطوار والمراحل التى اجتازتهـــا البلد ·· حتى وضعت الاقدار نهاية لماهر فى العام الذى وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فيه ·· ايذانا بمولد عالم جديد ·· لتجىء نهاية النقراشى فى العام الذى لعبت فيه الخيانة دورها

لتقوم على أرض فلسطين دولة اسرائيل ولتكون الحجر الاساسى فى الكفاح المرير الذى كتب علينا أن نخوض غماره ، معلمان اذن على طريق التاريخ المصرى الحديث هما أحمد ماهـــر ومحمود فهمى النقراشى ..

قبل البدء بالعمل

وقبل أن نساير الصديقين فى النشاط الذى اشـــتركا فيه .. يحسن أن نقول أنأحمد ماهر لم يكن فلاحا مصريا ضاق صـدره بمظالم المماليك والاتراك ومن خلفهم على عرش مصر من خديويين وسلاطين .. كما كان سعد أو كما كان النحاس .. ولم يكن من أسرة ساحلية فقيرة وطموحة .. يترامى الافق أمامها بعيدا عبر البحر العريض .. وتضيق الافاق أمامها فوق الارض وفى صميم الحياة كما كان النقراشى .. وانما كان ماهر ابنا لرجل من رجال الدولة ، والطموح فى أبنائه اذن طمـــوح نابع من مواهبهم ومن قدرات فيهم لا عن حاجة لقوت ولا غضب على الوضع .. وقد سلك كل ابن من أبناء محمد ماهر باشا طـــريق التعليم السليم ورقى صعدا كل درج السلم فظفر أحمد ماهر بليسانس الحقوق فى سنة ١٩٠٨ واشتغل بالمحاماة عامين ثم سافر فى سنة ١٩١٠ الى فرنسا حيث حصل على الدكتوراه فى القانون والاقتصـاد من جامعـــة مونبلييه وعاد فى ســنة ١٩١٣ أســتاذا فى مدرسة التجارة حيث التقى بالنقراشى .. والتقى التفكير بالتفكير والثورة بالثورة .. وظلا تحت وطأة الحرب يبحثان فى صمت عن الثوار بين الشباب ويرقبان فى حذر تطور الاحداث .

وجاءت الثورة

وشبت الثورة وكانت فرصة العمر وانتهزاها .. بيد أن أوجه الشبه بين الاثنين لم تكن كاملة .. فرأى الاثنان .. أن يجعلا من أوجه الخلاف حياة متكاملة ..

كان النقراشى مدرسا صارما وجادا .. وكان مفطورا عـــلى النظام موهوبا فى التنظيم . وكان أحمد ماهر محاضرا مرنا .. يتنقل بين العبوس والمرح وفقا لمقتضى الحال .. ولم يكن أحـــد منهما موهوبا فى الخطابة كما كان مكرم عبيد ــ وحاشا أن أقول كما كان سعد ــ ولكن الصديقين كانا موهوبين فى التفكير المرتب .. فوقع اختيارهما على « ما تحت الارض » مسرحا لنشاطهما .. وعلى « بعد النظر والدهاء » حارسا على هذا النشاط .. وعلى « أدوات الارهاب » تعد فى الخفاء .. لمحاربة الاعداء ووضـــع

سعد عينيه على هذه المواهب فيهما ·· وأدرك مدى الحاجة اليهما ·· فجند الاثنين معا ·· ووزع الادوار عليهما ·· فعهـــد الى النقراشى بكل ما يتطلب الدقة والتنظيم والكتمان والاقدام ·· وعهد الى أحمد ماهر بكل ما يتطلبه الموقف من مخاطر وأهوال وذكاء عندما يدعو داعى الثورة الى المخاطرة والاهوال والذكاء ·

اضراب الموظفين والطلبة

وكان أول دور خطير قام به النقراشى ووفق ـ حيث كان التوفيق فيه حلما من الاحلام ـ حمـــل الموظفين على الاضراب التاريخى المشهور والاعداد له اعدادا بارعا غير مسبوق ·

وانتقل الاعداد لاضراب الطلبـــة فى سنة ١٩٢٢ فنجح نجاحا مقطوع النظير واحتل النقراشى مكانه فى قلب سعد ··

تحت الارض

وحدث الانقسام فى الوفد وعرف الســـعديون بالتطرف وكان الصديقان عنوانا عليه ·· وعرف العدليون بالاعتدال ·· وكانوا كلهم اعلاما على هذا الاعتدال ·· وماج الشارع بالنضال الدموى بين الشعب والانجليز ·· واتخذ ماهر والنقراشى مكانهما « تحت الارض » يديران شبكات الاغتيـــال على مستوى الافراد ·· لكل انجليزى ذى شأن يقع فى أيديهما ·· ولكل ســياسى من المعتدلين يخون قضية البلد فى تقديرهما ··

وتعددت جمعيات الاغتيال السرية ·· وتعددت أســـماؤها من « جمعية الانتقام » الى « اليد السوداء » الى غيرهما ·· واستطاع الحاكمون أن يعرفوا شيئا عن نشاط الصديقين ·· وامتدت اليهما أصابع الاتهام ·· ولكن أحدا لم يستطع أن يقيم دليلا على الاتهام ·· فاعتقل الاثنان أكثر من مرة ·· وأخلى سبيلهما فى كل مرة ·· ونسبوا اليهما جرائم لم يرتكباها ·· ولم تنسب اليهما الجرائم التى ارتكباها ·· ولعل أحدا لم ينس ـ من المعاصرين ـ اعتقالهما أثر مصرع حسن عبـد الرازق باشا واســماعيل بك زهدى أمام مبنى جريدة « السياسة » سنة ١٩٢٢ وأخلى سبيلهما ·

وظل الصديقان يعملان فى الخفاء ·· وظل نفوذهما فى الوفد يزداد ·· حتى ألف سعد وزارته الاولى فى سنة ١٩٢٤ وفوجىء الناس بسعد يعين النقراشى وكيلا لمحافظة القاهرة ·· يسيطر فيها على شبكة الجواسيس التى ظلت تطـــارده من بداية الثورة ··

فماذا كان نصيب أحمد ماهر من سعد ؟

كان أحمد ماهر قد خاض غمار الانتخابات وأنتخب عضوا فى

مجلس النواب ·· وظهرت مواهبه البرلمانية ·· تعززها ثقـــافة قانونية وثقافة اقتصادية ·· وبراعة فيه كمحاضر جامعى يصلح لاقناع النواب بنفس القوة التى كان يقنع بهـا الطلاب ·· فلما ذهب سعد الى لندن لمفاوضة رمزى مكدونالد ·· وعاد الى مصر ·· مصرا على تصعيد النضال ·· عين أحمد ماهر وزيرا للمعارف ليشرف من هذا المنصب على ثورة الطلاب كمـا يشرف النقراشى على الامن من المحافظة ··

وكان سعد مطمئنا الى أن « تحت الارض » من هو أغنى وأقدر ·· شبكة ارهابية يقودها (عبد الرحمن فهمى) ولا يعرف تاريخ مصر نظيرا لها ·· ولم تكن مقطوعة الصلة بالصـديقين ·· بل لعل من عجائب الصدف أن يكون عبد الرحمن فهمى عما لاحمد ماهر·

وفى دار المحافظة ظهرت حقيقة النقراشى ·· وجد مرؤوسـيه من الضباط بريطانيين ، كما وجد الباقين من المصريين الضباط موالين لهؤلاء الاعداء ·· وأصدر النقراشى الى المديرين فى الاقاليم والى كبار المسئولين فى القاهرة تعليمات صارمة بقطع الصلة بينهم وبين أولئك الاعداء ·· وأوعز الى الثوار باحراق مجلة « الكشكول » التى كانت تهاجم سعدا هجوما بذيئا ·· وجريدة « الاخبار » التى خرجت يومها على سعد ·· وأصدر لحكمدار القاهرة ـ الانجليزى ـ أمرا بعدم التعرض لافراد الشعب ·

وعرف الانجليز والقصر حقيقة النقراشى وبدأوا يتربصون به ··

أما أحمد ماهر فقد اختفى وراء شواغله باصلاح نظام التعليم ·· وأحدث فى وزارته نشاطا يستوقف النظر ·· وبهذا التسـتر استطاع أن يتصل بالثوار فى الخفاء حتى لقد قيـل أن المحامى الوفدى ـ شفيق منصور ـ الذى اعدم مع رفاقه فى مقتل السردار كان وقت وقوع الحادثة فى مكتب أحمد ماهر يشرف منه على مسرح الجريمة وقد ألقى القبض على النقراشى ـ بعد مقتل السردار فى ٧ نوفمبر ١٩٢٤ وأخلى سـبيله بعد التحقيق الطويل معه فى يناير سـنة ١٩٢٥ ·

محاكمة الصـديقين

وفى مايو سنة ١٩٢٥ كان قد تجمع لدى السـلطات ما يكفى لمحاكمة الصديقين على جرائم سياسية نسبت اليهما فاعتقل الصديقان وبدأت مراحل التحقيق والمحاكمة التى اهتزت لها البلاد زمنا ··

وفى هذه القضية ظهرت مكانة الصديقين فى قلب سعد ··

واعتقد كل مصرى أن حكم الاعدام عليهما معد ومكتوب وان

المحاكمة ليست الا اجراء شكليا ، وهال الموقف سعدا ·· قطرح عنه شيخوخته وأمراضه ·· وارتد محاميا شـــابا لا يعرف غير المحاماة مهنة ·· وعكف على دراسة التحقيقات بكل ما أوتى من عبقرية وعلى وضع أسس الدفاع وظل يسهر الليالى الطوال فى اعداد المذكرات بالاشتراك مع مصطفى النحاس الذى يرأس هيئة الدفاع ··

ولقد تحولت قضية مصر أو كادت فى تلك الفترة الى قضـــية ماهر والنقراشى · وفى مايو سنة ١٩٢٦ صدر الحكم الذى أحدث دويا فى أرجاء العالم بعد أن تناقلته وكالات الانباء بالتهويل ·· فهز مشاعر الجماهير على مستوى الشرق كله ·· وكان سبب الدوى العالمى أن (كيرشو) الانجليزى رئيس الدائرة خـرج على أصول القضاء وأذاع سر المداولات ·· ليبرىء نفسه أمام مواطنيه المستعمرين ·· فكانت فضيحة قضائية رددت صداها جنبات القضاء فى أرجاء الدنيا عندما قال كيرشو أنه أصدر حكمه بالادانة ولكن القاضيين المصريين وقفا ضده وقررا البراءة فكان لزاما عليه أن ينطق بحكم البراءة أمام أغلبية العضوين المصريين ·

وفاة ســـعد

وجاءت الانتخابات الائتلافية ونجح أحمد ماهر فيها وأصـبح ملحوظ المكانة فى أخطر لجان المجلس وفى أغسطس سنة ١٩٢٧ سافر الى الخارج ليمثل مصر فى المؤتمر البرلمانى الدولى وهناك فوجىء بوفاة سعد فعـــاد الى مصر وبهذه العودة انتهت المرحلة الاولى لحياة الارهابيين الثائرين وبدأ مرحلة جديدة ·

وعبر تلك المرحلة لم يكن هناك شك فى أن الثـائرين الكبيرين وهبـا مصر وزعيمها كل ما أوتى الاثنـان من شجاعة وقدرات ووضع كل منهما رأسه فوق كفه ولم يتردد أبدا ·· ولم ينكص على عقبيه يوما ·· ولم يرهب سلاحا أو عدوا ·· ولم يستهدف منصبا أو غنيمة وتلك هى التى اراها صفحة مشرقة وناصعة البيـــاض فى حياة الصديقين العظيمين وأعتقد أن موت سعد ·· كان مع الاسف بداية لنقاط سوداء وجدت طريقها الى هذه الصفحة ·

بادية الصراع

وكما يحدث دائما ·· أو فى الاغلب الاعم ــ عنما يموت المفرد المعلم ·· ويترك التركة الكبيرة ·· من غير وصية مكتوبة ·· ومن غير قانون للمواريث يحدد أنصـبة الورثة تتوارى البراءة ·· وتزول المخاوف ·· وتصحوا المطامع ·· كما يحدث فى الاغلب

الاعم ·· عندما يموت المفرد العلم ·· حدث فى مصر عنـــد وفاة سعد ·· وتعددت الاراء ·· وحاول بعض الاعضاء أن « يتكتكوا » على استحياء ·· وقال قائل منهم ما قيل عن أهل الكهف وعددهم قال قائل « فتح الله بركات A ابن أخت سعد ·· والوارث الشرعى والداهية ذو الناب » وقالِ قائل : « الزعامة ـ كالنبوة ـ لا تورث » وقال قائل « أقرب الناس الى سعد ·· وأحبهم اليـــه هو الذى يخلفه » وقال مكرم عبيد ان كان المقيـاس هو القرابة الى القلب والقرابة الى الوطن ·· والعفة فى الخلق ·· والماضى المطهر ·· وانعدام المطامع ·· والمركز التالى للزعامة فعلا فهو السكرتير العام للوفد مصطفى النحاس ·· وكان مكرم جريئا ·· وسدد الضربة والحديد ساخن وكان له مطمع ·· ولكن كان له منطق وأخـذت الهمهمات والهمسات طريقها الى اللغط فوق أرض الحياد ·

وكان طبيعيا أن يكون الامر هكذا ·· وأن تكون البلبلة ســيدة الموقف ·· ففى حياة سعد كما فى حياة كل مفرد علم ـ لم يكن لاحد أن يفكر فى خلافة سعد ·· كان جلال الزعامة يقف سدا ·· أمام مثل هذا التفكير ·· وكان مثل هذا التفكير ·· كفرا لا شك فيه بوحدانية الزعيم ·· استحالة العثور على أى « عظيم » يمكن أن يملأ الفراغ الذى تحدثه وفاة الزعيم ··

الاحجار كلها فوق الرقعة ·· والانظار تنتقل فى صمت بين هذه الاحجار ·· ثم تنفض حياء ·· ولا تفضى برأى ··

فتح الله ابن أخت سعد كما قلت ·· وقد تجاسر عضو فذكر هذه القرابة ·· وصرخ فيه مكرم غير المسلم ·· « الى دينكم احتكم ·· كان على ابن أبى طالب ابن عم الرسول ·· وأول من أســلم ·· واستخلف أبو بكر ·· دعونا من صلات القربى والدم » ·· وتجاسر ثان وذكر أحمد ماهر ·· وله سجل حافل ومزدان بالدم ·· الدم الذى يهرق فى سبيل الوطن ·· لا الذى يورث عن الام ·· « انتخبوه رئيسا للوفد وانتخبوا النقراشى سكرتيرا عاما وتنتهى » ·

كان أحمد ماهر خارج القطر عند الوفاة كما قلت ·· ولو أنه كان هنا ·· لتغير وجه التاريخ كما قيل ·· ولكن وجه التاريخ لم يتغير ·· وفى سبتمبر ـ ووفاة ســـعد فى ٢٣ أغسطس انتخب النحاس زعيما وانتخب مكرم سكرتيرا عاما ·· وبطل كل ســحر من غير حاجة الى عصا موسى ··

وكان وقع الانتخاب على الصديقين شديدا ومريرا ··

وبدأت الاحقاد تعرف طريقها الى الصديقين ·· أو الى قلبيهما

•• بعد ثمانية أعوام من الطهر الوطنى •• ومن الفدائية البريئة •• ومن الكفاح البكر ••

وقال أحمد ماهر لاحد أنصاره المقربين ـ والعهدة فى الرواية على المقرب ـ أنه لم يضق أبدا بزعامة النحاس •• وهو أصلح لرياسة الوفد من أى عضو فى الوفد •• ولكن المصيبة أن ينتخب مكرم سكرتيرا للوفد ••

وقال أحمد ماهر ـ والعهدة على نفس المقرب ـ لو أنه «النحاس» انتخب رئيسا للوفد مكان سعد •• وانتخب النقراشى سكرتيرا للوفد مكان النحاس •• لكان الوفد أقوى وأطهر •• فالنحاس رجل مخلص وطيب •• والنقراشى رجل مدبر ومنظم •• وفيه ذكاء ودهاء يحرص على ألا يبدو على السطح منهما اى أعراض •• وكان فى وسع النحاس أن ينتفع بهذه المواهب فى الكفاح • أما ان يثب الى سكرتارية الوفد انتهازى كمكرم •• عمل طوال مدة الحرب سكرتيرا خاصا لكل مستشار قضائى انجليزى •• ورفض سعد أن يعينه وزيرا حتى مات •• وأن يتخطى مكرم رجالا وأبطالا قامت قيادة الثورة على أكتافهم •• فماساة •

ماساة أحدثت تغييرا حتى فى نظرهما الى النحاس نفسه •• بعد أن رأياه يعتز بمكرم • ويدفع به الى خطر الصدارة ••

وكما حدث للفدائيين فى فلسطين فى سنة ١٩٧٠ (أو بعد مذابح سبتمبر) فتحول كفاحهم وسلاحهم الى تأمين ظهورهم من جيش عربى يحيط بهم ويعاونهم بعد أن كان الكفاح والسلاح موجهين الى العدو الحقيقى فى اسرائيل •• حدث للصديقين وتحول الكفاح والسلاح فى يديهما من محاربة القصر والمستعمر •• الى محاولة ابعاد مكرم عن النحاس ان أمكن •• أو ابعاد الاثنين عن الوفد اذا لم يكن بد ••

وكان كثير من أعضاء الوفد يؤيدون اتجاه الصديقين ولا يعلنون هذا التأييد ••

وكان فتح الله بركات على رأس الغاضبين كوارث شرعى اغتصب منه ميراثه ••

ولكن كل هذه الدوامات الحاقدة كانت تحدث تحت سطح الماء •• ومن بين هذه الدوامات أفلتت سفينة الوفد الجديدة تمخر العباب باسم الله مجريها ومرساها فى نظر الربان •• وباسم الله مجريها •• وباسم الهدف البعيد مرسى السفينة فى نظر الربان المساعد •• أو على التحديد « مكرم عبيد » •

أمانة الصـــندوق

على أن الامر لم يخلص كله لمكـرم ·· كان الوفد قد اختـــار النقراشى أمينا للصندوق وكان فتح الله بركات يشغل هذه الامانة واعتذر عنها بعد أن أفلتت منه الزعامة ·· ولم يعد من الكرامة قبـول الامانة ··

وقد تعنى أمانة الصندوق لونا من التبعية أو الخضوع للسكرتير العام للوفد ·· ولم يكن معقولا أن يكون مكرم رئيسا للنقراشى ·· ولكن النقراشى رضى عن أمانة الصندوق ليتحكم عن طريقها فى التنظيم كله ·· ألم أقل لك أن النقراشى على الرغم من الجفوة فيه أخو دهـاء ؟ ··

لقد صح تقديره ·· ولجأ عن طريق الصندوق الى بسط نفوذه على « النادى السعدى » حيث يجتمع الشباب من الطلاب ·· وغير الطلاب واعتصـم مكرم ببيت الامة واعتصم النقراشى بالنـــادى السعدى ·· ونافق كل منهما الآخـــر ·· وداراه ·· ورسم على شفتيه ابتسامة وديعة فيها توكل العارف بالله ·

وفى « النادى السعدى » استطاع النقراشى أن يشكل من الشباب تنظيمات وخلايا وطلائع ·· بل استطاع أن ينسج فى هدوء على منوال النازية فى ألمانيا والفاشية فى ايطاليا وأن يؤلف من شبابه ميليشيا « القمصان الزرق » تنصب خيامها فى العراء ·· وتتلقى تدريبات عسكرية ·· وتحمل الاسلحة الصغيرة فى غدوها ورواحها ·· وكانت ظاهرها موجهة ضد العدو اذا حان حين العدوان ·· وموجهة ضد أى تشكيلات أخرى تناصب الوفد العداء ·· وكانت « مصر الفتاة » قد شكلت قمصانهـا الخضراء ـ ودب الذعر فى قلب مكرم ·· ولكنه تظاهر بتأييد القمصان ·· ونشط فى الخفاء لتوسيع شقة الخلاف بين النحاس والصديقين لكى ينفصلا عن الوفد فتدول دولة القمصان من غير أى قتال أو طعان ··

ونجح مكرم ·· حيث فشل الصديقان ··

نجح مكرم وهو يحكم التدبير ويلبس ثوب الغيرة على الزعيم ··

وفشل الصديقان بسبب الغلطة التى وقعا فيها يومئذ ·· كما وقع مكرم نفسه فيها ·· عند فصله من الوفد ·· غلطة التطلع الى كرسى الزعامة بعد أن ثبت ·· واكتمل للزعامة بناؤها العضوى من الشعب ومن الزعيم ··

ولو أن الصـــديقين استهدنا مكرم وحده ·· والتصقا بالزعامة التصاق اخلاص مجرد ·· لنجحا فى التفريق بين النحاس ومكرم ·

كان الموقف قابلا للتفجير فى أى وقت ·· بين الصديقين ماهر والنقراشى والصديقين النحاس ومكرم ولكن أحداثا وطنية كبرى ·· أرجأت هذا التفجير ··

أحداث السنوات الاربع أو الخمس التى استغرقتها التجارب الانجليزية والمصرية فى محاولة الاجهاز على الوفد بيد اسماعيل صدقى وحتى نهاية التصفية والخيبة أيام عبد الفتاح يحيى ·· هذه السنوات العجاف اقتضت التكتل بين صفوف الوفد لمواجهة المؤامرة العاتية ·· فكانت « هدنة » لابد منها ظلت مرعية الجانب حتى قامت « الجبهة الوطنية لمفاوضة الانجليز » وانتهت الى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ فى قاعة لوكارنو فى لندن والى الغاء الامتيازات الاجنبية فى مؤتمر مونترو بسويسرا ·· ووقعها جميع الزعماء ·

وانتهت الهدنة

انتهت الهدنة بصورة عجيبة ·· بهجوم مفاجىء من أحمد ماهر فى مجلس النواب المصرى على المعاهدة التى اشترك فيها وبدأ يظهر عيوبها بل بدأ يغذى الغاضبين عليها من شباب الاحزاب والكتاب بالبيانات والمعلومات وكان أحمد ماهر وقتها رئيسا لمجلس النواب ··

كان الطريق ـ طريق التفريق ـ قد انفتح أمام مكرم ··

كان فريق من أعضاء الوفد قد انفصل عن الوفد ولم يعد أمامه الا الخطيران ماهر والنقراشى ·· وكان النقراشى وزيرا للمواصلات فاشتد النزاع بينه وبين مكرم داخل الحكومة واستطاع مكرم أن يقنع النحاس بخطأ تردى فيه فأجرى تعديلا وزاريا فى أغسطس سنة ١٩٣٧ أخرج بمقتضاه النقراشى من الوزارة مقابل منصب رفيع فى قنال السويس يمثل الحكومة فى الهيئة مقابل مرتب خرافى يتقاضاه النقراشى الفقير ··

ولكن النقراشى الفقير هزأ بالمنصب وسخر من الاغراء ورفض العرض وأعلن انضمامه الى المعارضة فانتهز مكرم الفرصة وأقنع النحاس بفصل النقراشى من الوفد ففصل فى سبتمبر وتم لمكرم التخلص من أحد الصديقين ··

وسيطر ماهر على أعصابه فلم يستقل من الوفد ولم يشأ النحاس أن يقيله حتى لا يقال أن النحاس يبتر من جسم الوفد أنصار سعد ·· عضوا بعد عضو ··

وكان مخطط

مخطط وضعه الصديقان الذكيان ·· وخانهما الذكاء ·· أو اتضح أن الذكاء « التحتى » شىء والذكاء « الفوقى » شىء آخر ··

رأى ماهر أن يظل عضوا فى الوفد ·· عليمـــا بكل تحركات العدو ·· وثيق الصلات بالاعضاء ·· رجاء استمالتهم عضوا بعد عضو ·· وترك للنقراشى أن يستأجر مكتبا له يستقبل فيه أعضاء الهيئة الوفدية ـ رجاء استمالته لهم عضوا بعد عضو ·· واستكمالا للمخطط ·· حتى اذا تم للصديقين ما أراداه ·· وانحازت اليهما أغلبية الهيئة والنواب ·· اجتمعوا وقرروا خلع النحاس من الزعامة وفصل مكرم من الوفد وانتخاب ماهر رئيسا والنقراشى سكرتيرا للوفـد ·

ولكن جهود الصديقين ذهبت مع الريح ·· ولم يقتنصـــا غير أعضـــاء قليلين ··

وتوالت الاحـداث

ولا أقـول : (ومرت الايام) ·· وانمـــا أقول : « وتوالت الاحداث » ·· فالخيبـــة أثارت شركسية ماهر فازداد تحديه للزعامة ·· فازداد مكرم دفاعا عن الزعيم ·· وكلما حاول أحد المخلصين للوفد أو للبلد أن يضيق شقة الخلاف سارع مكرم بتوسيع هـذه الشـــقة ··

وكانت النتيجة غريبة وسريعة ··

انتهز خصوم المتخاصمين الفرصة ·· فنسفوا الفريقين معا ·· وفوجىء النحاس باقالة وزارته ·· وبتشكيل وزارة محمد محمود باشا زعيم الاحرار الدستوريين ··

وأشـــد غرابة

وأشد غرابة من الاقالة ·· ومن أعمدة البيت التى تهاوت بين يدى شمشون على البيت ومن فيه ·· أشد غرابة أن يرى خصوم الوفد من قصر ومن محتل أن الوقت قد حان لتصفية الوفد من ثواره القدامى وارهابية النظام ·· فاستغلوا كل صفات المشاكسة فى الصديقين الثائرين ·· وصفوا نهائيا بينها وبين روح (سعد أو الثورة) ·· وفوجىء الناس بكارثة وطنية غير مسبوقة ·· فوجئوا بأحمد ماهر الثائر العظيم يقبل فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٨ تعيينه وزيرا للمالية تحت رياسة زعيم الاحرار الدستوريين ·· وفوجئوا به يتلقى (الرضاء السامى) من يد (المليك المفدى) رتبة الباشوية فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ وفوجئوا بانتخابه رئيســـا لمجلس النواب المؤلف وليجدد انتخابه لهذه الرياسة فى العام الذى يليه ··

وتحول كل شىء ·· ودخل الصديقان بالجهـــاد الوطنى فى مســـار جديد ··

وانتهت بهذا التحول مرحلة أخرى فى حيـــاة الصديقين ·· وبدأت مرحلة جديدة ··

فى المرحلة الجديدة

وليس هناك شك فى أن تحالف الصديقين مع أحزاب الاقلية قد أضر بحزب الاغلبية وأقصاه عن الحكم بضع سنين حتى عاد اليه على أسنة حراب الانجليز كما يحلو لخصومه أن يصفوا حكومة الوفد فى فبراير سنة ١٩٤٢ ·

بيد انى لا أشك أبدا فى أن الضرر الذى لحق بحزب الاغلبيـة باقالة حكومته ـ وهو ضرر مألوف ومسبوق ـ لا يقـاس بالضرر الاكبر الذى حاق بالصديقين وتاريخهما وماضيهما ووطنيتهما وقد انتقلا من أقصى اليســار الى أقصى اليمين وتحالفا مع الشـيطان لا ليكسبا حرب البقاء أو الفناء كما فعل تشرشل وانما ليثأرا لنفسيهما من رجل أو رجلين ··

وتوالت الاحداث أيضا وولى النحاس فى سنة ١٩٤٢ وفصـل مكرم من الوفد واعتقل وأقيل النحاس مرة أخرى على مقربة من نهاية الحرب ووثب أحمد ماهر الى الحكم فى سنة ١٩٤٤ فأفرج عن عدوه القديم مكرم وعينه وزيرا للمالية لينضوى الاثنان ماهر ومكرم ـ وتصور ـ تحت راية السيد الجديد ·· ومن هو سـيد الاثنين فى هذه المرة ؟ الملك فاروق ··

كيف حدث هذا ؟ ·

كل الذى أدريه ـ وحتى الآن ـ أنه حدث ··

وكل الذى أدريه أنهما تنافسا فى استرضاء الملك ـ حتى لقـد اختلفا على الاسلوب أمام الانتخابات فرفع مكرم شـــكواه الى « مولاه » فأمر الملك أحمد ماهر بارضـاء مكرم وصدع النقراشى وزير الداخلية (النظيف) بالامر الكريم ·· وجىء بمجلس نيـابى لا تنخفض درجات التزييف فيه كثيرا عن درجة التزييف التى سجلها اسماعيل صدقى عندما جاء بمجلسه ·

أى انقلاب فى مسار الكفاح وفى تاريخ الاحزاب ؟

أيضـا لا أدرى ··

وكل الذى أدريه أن ذلك كله قد حدث ·· وأن أحمد ماهر اغتيل وهو حاكم ·· وانتهى تاريخه ··

وللتـــاريخ

على أن التاريخ لا يرضى من الناقد أن يسجل المساوىء ويغفل الميزات ··

وللتاريخ أقرر أن هذه النهاية الممزقة ـ أو المرحلة الفاجعة ـ التى انتهى اليها الصديقان الثائران لا تعنى أن الصديقين جردا من كل مقومات الشخصية فى كل منهما ..

لقد بقيت بعض الظلال تتراءى لنا بين الحين والحين .. وتطرحها علينا طبيعة التكوين فيهما .. ودنا الامل فى صحوة جديدة .. أو غد أفضل .. كظلال من أحكام الوراثة .. وظلال من غلبة الصفات .. وظلال من املاء الكرامة .. وظلال من العناد ومن الشجاعة .. ففى مواقف كثيرة كانت شجاعة الصديقين تطل علينا من خلالها .. وكان المحبون يتلقون بهذه الومضات بالزهو ويقولون أن الرجلين لا يزالان رجلين .. وان أخطاء الوفد هى التى حملتهما على ما صنعا ..

وللتاريخ أذكر ولا أنسى أن أحمد ماهر لم يكن يسمح لخطيب من أنصاره يهاجم الوفد بتوجيه أية كلمة نابية الى النحاس وكان ماهر يثور على الخطيب وينهره بعنف ولعله لم ينس كلما ذكر اسم النحاس أنه المحامى الذى خلص رقبته من حبل المشنقة سنة ١٩٢٥ .

ومن مواقفه شجاعته يوم ثارت جامعة فؤاد (القاهرة) على حكومته فذهب وحده اليها ليواجه عشرات الآلاف من الطلاب الثائرين واقتحم عليهم معقلهم فى ثبات غير مسبوق من أى وزير وأجرى حوارا سافرا وصريحا فيما بينه وبينهم وأقنع الكثيرين من مخالفيه بوجهة نظره وعاد الى مكتبه سليما لم يمسه سوء ..

تناقضات

وعلى الرغم من كل ما قلناه فى هذا الفصل فالحقيقة التى لا شك فيها أن شخصية ماهر وشخصية النقراشى تستعصيان على قواعد النقد وأصول المنطق وحصيلة التحليل .. وأن فيهما من المزايا والنقائض التى تعايشت ما يهدم كل هذه القواعد وكل هذه الاصول ..

لقد كان كل منهما حريصا على أن يكون شريفا وان كان أحمد ماهر يقرن الشرف بالفهم والمرونة والنقراشى يغلفه بالجفوة والصلابة ومع هذا أو برغمه .. لا يستطيع أن نخفى أن أحمد ماهر كان يهوى المقامرة وسباق الخيل ولا ينكر هذه الهواية وهو أعرف الناس بوخامتها فى الرجل العمومى .. بل لم يكن يضيق بصحف السباق وهى تتحدث عنه فى الوقت الذى يتحدث الناس عن النحاس وكيف لم تفلت منه صلاة الفجر عبر عمره .

أما النقراشى فكان أشد غرابة فى سلوكه .. وكان سلوكه مرحليا .. ففى مرحلته الثورية الاولى .. كان يتشبث بقيمه ويصر عليها

أصرارا يكاد يجعل من هذه القيم ·· قيما تجريدية لا علاقة لها الا بذاتها حتى اذا عهد اليه فى المرحلة الثانيـــة بالامن كحاكم ·· وبالتنظيم كحزبى ·· بدأ يستسيغ ما لا يستساغ ، ولكن عذره أن ما كان يراه البعض خطأ فيه أو تعصبا أو تهورا ·· كان فى ميزانه هو صوابا وواجبا وعدلا وحزما ·

ولكن المرحلة الثالثة التى انتقل اليها النقراشى أدارت رؤوس محبيه ·· وأعنى بها الانتخابات التى أجراها فى يناير سنة ١٩٤٠ فعجب الناس من رجل الاخلاق والنزاهة والصراط السوى ·· كيف أجاز لنفسه أن يخوض ذلك الخضم الذى خاضه ·· وأن يوصم ثانيـة بذلك التزييف الصارخ المكشوف ··

ولقد اعتذر لاصدقائه يومها بأن الذى قام به لم يكن « جرائم انتخابية » ارتكبها كحاكم ·· ولكنها كانت « عمليات جراحيـة » أجراها كطبيب لمريض لا حياة له الا باجرائها أو لبلد لا نجاة له الا بالاجهاز على زعامة النحاس ·· والا بمجلس نيابى يقصيه عن الحكم خمس سنوات يلفظ النحاس خلالها أنفاس الزعامة ··

والقدر كما ترى يرقبـه كل محايد ·· وكل عاقل ·· ولم يكن النحاس ·· حتى بمقاييس النقراشى ـ هو علة البلد ـ وانما كانت العلة هى جيش الاحتـلال ·· وهى القصر والملك ·· كانت العلة عدوا من الخارج وعدوا فى الداخل ·· ولم يقل أحد أن التخلص من أى زعيم يخلص مصر من المحتل أو من أى العدوين ··

ولقد صح تقدير النقراشى فى اقصاء الوفد عن الحكم بضـع سنين ·· وهو نجاح سبق لصدقى وأنصاره أن أحرزوا مثله ·· ومع هذا كله ساء تقدير النقراشى فى القضاء على الوفد واستطاع النحاس أن يسترد ما فقد من الارض وعاد الى الحكم شابا ثوريا أو كالشاب الثورى ·· يعلن للعالم انه ألغى المعاهدة ·· ويرعى حروب الفدائيين ·· ولم تقم للسعديين قائمة ·· واغتيل النقراشى ولم يكن الذى اغتاله وفديا ·· واغتيل أحمد ماهر ولم يكن الذى اغتاله من الوفديين ··

وتناقض على أرض فلسطين

وتناقض آخر فى سلوك النقراشى يثير الحيرة ·· لقد سافر الى مجلس الامن لتحريك قضية مصر وكان ثوريا وكان شجاعا وكان رائعا ·· وواجه من فوق منبرها انجلترا وممثلها وكان أول وزير مصرى فى التاريخ الحديث يقول للانجليز على مسمع من العالم ما لم يقله مسئول قبله ·· ولم يكن يعبر عنهم الا بكلمة «القراصنة»

ويعود الى مصر عودة الغزاة الفاتحين فلا يتخذ أى اجراء ثورى غير أن يأمر بعدم التعامل معهم ويعلن الحرب ويرسل جيشه الى أرض فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ لتطهيرها من رجس اليهود وكان المفروض فيه أن يرتفع الى مستوى الموقف الرهيب ويقاتل بشرف ووعى ·· ولكن الذى حدث أنه أرسل جيشه الكبير الى الميـــدان بأسلحة فاسدة وسمح لرجال الملك أن يتجروا بها وأن يغرروا به وأن يستوردوا « الموت » لجنودنا ·· وأن يظل هو ستارا يختفى وراءه أولئك المفسدون ·· ولقد حماهم فعلا ليضمن رضـــا الملك عنه ولم يطالبه بمحاكمة أحد منهم ·· ولم يصادر أى مال لهم ·· وان كان أحد لا يستطيع أن يقول أن يده هو قد امتدت الى قرش واحد ·· وظل الرجل يحتمل هذا الوزر حتى اغتيل ·· وكان فى ميزان التاريخ أكبر مسئول عمـــا حاق بالوطن العربى بعدها من عار لا يزال قائما ·· وعما حاق بشعب فلسطين من تشريد ما يزال يزداد ··

كان الرجل طاهر الذيل كرب أسرة ·· وكان نظيف اليد كحاكم ·· تزوج من سيدة فضلى ذات أولاد فلم يقل أحد أنه تأثر بهـذا الزواج فى عمله ·· ولم يسمح لقرش غير مرتبـــه أن يتسلل الى جيبه أو بيته ·· ومع هذا فقد أثرى فى عهده كثيرون ممن انتموا الى حزبه أو آزروه فى سياسته ·· حتى أن فريقا منهم كان يتخذ من مكتبه سوقا لعقد الصفقات من حيث لا يدرى الرجل ·· وحتى قيل الكثير بالحق أو الباطل عن السيدات والفتيات الاجنبيات أو اليهوديات ·· هذه تطالب الاذن لها بالخروج من مصر ·· وتلك تطلب الافراج عن زوج لها معتقل ·· وكل الذى فى وسعى أن أؤكده وكنت قريبا من الاحداث أن النقراشى لم يكن له علم بشىء من ذلك السوء الذى كان يجرى · لقد كان بريئا منه ولكنه فى الحق مسئول عنه ·· وكان يثق بمعاونيه ثقة عمياء تحجب الرؤية ··

لقد قال عنه سيرمايلز لامبسون أنه (ذكى وقدير وشجاع وجسور وشديد الدهاء) فالى أى هذه الصفات نرد تلك الاخطـــاء ؟ لا أملك جـــوابا ··

متناقضات أخيه

هذه بعض المتناقضات فيه ·· فما هى التناقضات فى أخيه ؟ عنيت طبعا أحمد ماهر ·· لقد كان النقراشى أقرب الى العبوس والجد والصرامة والمشية العسكرية والصدر العريض · وكان أحمد ماهر أشبه بالبطة الرشيقة ·· قصير القامة موفور النشاط ·· يتقدمه

كرش كبير ·· لا يعوقه ·· باسم الثغر دائبا الا أن يكون غاضبا ·· جذابا كزعيم لجماعة لا لامة ·

قال عنه سير مايلز لامبسون أنه شقيق على ماهر باشا ومحمود ماهر بك الطبيب الشرعى وأن الاسرة كلهـــا مشوبة وأن أحمـــد ماهر هو أسوأ أفرادها ··

والسفير غير صادق أو غير وزان للرجال ، واذا كانت الاسرة مشوبة بالحق فان أحمد ماهر من خير أفراد هذه الاسرة · أو على الاقل أقلهم سوءا ·· الا أن يكون السفير قد قصد بالسوء عداوة ماهر لانجلترا ·· وهو فى هذه الحالة أشد سوءا مما قال السفير ··

كان أحمد ماهر كرجل عام ·· مجموعة من القدرات ومجموعة من المواهب ·· وكان شجاعا وذكيا ومشهورا ولكنه كان أيضا على المستوى الشخصى رقيقا دمثا عطوفا كريما ··

ولقد تقابلت بعض هذه القدرات مع بعض تلك الصـــفات ·· فأسلمته فى النهاية الى الرصاص من يد شاب طائش فخسرت البلد بمصرع الرجل خسارة لا تعوض ··

موقفان تاريخيـان

ولقد كان للرجل موقفان تاريخيـان لا يسع الناقد أن يتغاضى عن أى موقف منهما :

الاول : موقفه فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ والآخر موقفه من المطالبة بانضمام مصر الى الحلفاء واعلانها الحرب رسميا على الاعداء بعد هزيمة هتلر حتى تضمن لنفسها مقعدا فى هيئة الامم ·

وقد تجمع الشجاعة بين الموقفين والرجل كان شجاعا كما قلت ·· ولكن الصدق حالف أحد الموقفين ولم يحالف الآخر ·· وكان تنـــاقض ··

حادث ٤ فبراير

فى ذلك التاريخ ـ ونصر الحلفاء يبدو ولا أمل فيه ·· وروميل يكاد يدق أبواب الاســكندرية ـ دعا أحمد حسنين رئيس الديوان بأمر الملك جميع الزعماء الى اجتمـــاع فى القصر للنظـــر فى الانذار البريطانى الموجه الى الملك باسناد رياسة الوزارة الى زعيم الاغلبية حتى يهدأ البلد ويحمى ظهر المحاربين ··

وفى ذلك الاجتماع حضر أحمد ماهر وهو يلف وجهه بالصوف ·· وكان مصابا بالحمى وباحتقان وخفتت الاصوات وجبن الزعماء عن مواجهة النحاس بما لديهم من الآراء بعد أن رماهم بالتآمر على الامة أربع سنوات وأصر على أن تكون الوزارة وفدية لحما ودما

٠٠ أو لا وزارة ٠٠ فى ذلك الجو ارتفع صوت أحمد ماهر فى هدير مماثل يتهم النحاس بالانانية ويسأله كيف يرضى أن يرتفع الى الحكم على أسنة الحراب ودبابات انجلترا تحيط يومها بالقصر وتهدد رب العرش بخلعه عن العرش ونسى أحمد ماهر أن أحزاب الاقليـــة ــ وعلى رأسها حزبه ــ ارتفعت الى الحكم برغم أنف الشعب على أسنة التزوير ٠٠ فى حماية القصر والانجليز معا ٠٠ وقد قالهـا له النحاس وقال أكثر منها فى ثورة عارمة وتبـــادل الزغلوليان القديمان أقسى الاتهامات وخرج أحمد ماهر من الاجتمـاع يصرخ فى الصحفيين المصريين والاجانب « إشهدوا اننا نعود الى الوراء عشرين عاما » ٠

ولم يشهد أحد بهذا التقييم من جانبه للموقف ٠٠

لقد كان الصحفيون يعرفون أن أحزاب الاقلية ائتمرت بالوفد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧ وأقصـــته عن الحكم بغير الحق أكثر من سنوات أربع ٠٠ ولم يدر بخلدهم أن أحمد حسنين كان يعد العدة فى الخفاء لتأليف وزارة من الشباب لحكم مصر تحت رياسته ٠٠ وكان أحمد حسنين هو ومليكه يتوقعان انتصار هتلر ، وكان روميل عند العلمين ٠٠ وكانت مصر فى مهب الريح ٠٠ وأحست انجلترا أن الملك يلعب بالنار وأن لا سبيل الى استقرار الاوضاع الا بتأليف وزارة شعبية تجرى انتخابات برلمانية وتستقر فى الحكم طوال مدة الحرب ٠٠ وكان السفير قد أعد ورقة التنازل عن العرش ليوقعها فاروق اذا رفض هذا المطلب تماما كالورقة التى قدمهـــا له على ماهر ووقعها بعد ذلك التاريخ بعشر سنين ٠٠ وحمل السفير مع الورقة ملفا مصورا يحتوى فضائح لفاروق يندى لها الجبين وهدد السفير بنشرها « للملك الصالح » الذى كان قد أطلق لحيته وأدار المسبحة بين أصابعه تضليلا للجماهير ٠٠

وكان تشكيل النحاس للوزارة انقاذا للموقف كله وبكل أبعاده ٠٠ أنقذ البلد وأنقـــذ العرش ٠٠ وأنقذ الملك ٠٠ ورضى أن يدفع ثمنا لهذا كله بعض سمعته فيقال عن وزارته أنها « وزارة الدبابات » وقد ظلت هذه التسمية تطارده عشر سنين ٠٠ حتى لقد قيل أنهـا كانت على رأس الاسباب التى أغضبت شباب الضباط فقام تشكيلهم لينقذوا البلد من الملك ومن الاحزاب ٠

الموقف الثـانى

أما الموقف الثانى لاحمد ماهر فقد حدث وهو رئيس للوزارة فى ســـنة ١٩٤٥ ٠

كانت مصر كلها تغلى ضد انجلترا ·· بعد أن نزلت الهزيمـــة يهتلر ·· ولم يبق فى الميـدان الا اليابان ·· فى طريقهـــا الى الهزيمـــة ··

ونادى أحمد ماهر بوجوب اعلان الحرب الى جانب الحلفـــاء على الاعـداء ··

وأعتقد أن الرجل كان صادق الايمان بصواب رأيه ··

والمطلب شكلى لا أكثر لم يكن يعوزه الا (ورقة التمغة) كمـــا يقولون ، وكان هذا الاعلان من جانبنا أقرب الى خشبة المسرح منه الى ميدان الحرب ·· ولكن فوائده فى تقدير أحمد ماهر كانتكبيرة ·

والمطلب (على ما فيه من الربح بغير أية خسارة كما كان يراه أحمد ماهر) كان مثيرا لاعصاب الشعب الذى كان يومها مشحونا بالكراهية للانجليز ··

ولكن أحمد ماهر لم يبال مشاعر الجماهير ··

وفى ذلك الجو المشحون بالكراهية فقد أحد الشبان أعصابه ·· وتمثلت له الخيانة فى تلك الخطوة ·· وكان مجلس النواب يومها يناقش الموقف ويقر الخطوة ·· فقد أحد الشبان أعصابه ودخـل الى البهو الفرعونى فى المجلس وتقدم ليصافح رئيس الوزراء ومد الرئيس يده ببراءة الى الشاب ولكن يد الشاب امتدت فجأة بمسدس وأفرغ رصاصاته فى الرئيس ··

موقفان أضعهما تحت ناظريك ·· لتختار من صـفاته ما تراه مطابقا لكل من الموقفين ·

حيـاة كلها موت

وهكذا بدأ ما بين أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى بالموت ثائرين تحت راية سعد وانتهى كل منهما الى الموت ·· فى معقله ·· ورصاص مسدس ·· وبيد شاب من شباب مصر ··

رحم الله الصديقين الكبيرين ··

ومهما تكن الاخطاء التى تورطا فيها ·· فان اثنين لا يختلفان على أن ماهر والنقراشى مصريان ووطنيان وعظيمان ··

على ماهـر

من

ثمانية وعشرين عاما ـ أى فى سنة ١٩٤٢ ـ كتبت عن على ماهر باشا فصلا فى كتابى « البرلمان فى الميزان » اختتمته « بنبوءة » هذا نصها :

« وأخيرا فلست أشك ـ كناقد برلمانى من حقـه أن يكون مما رأى وشاهد فكرة عن كل شيخ أو نائب ـ فى أن الشيخ على ماهر باشا يستطيع أن يلعب فى المستقبل اذا مد الله له فى الاجل ·· دورا على مسرح السياسة المصرية لا يلعبه غير العباقرة الموهوبين على مسـارح الامم » ··

وتحققت « النبوءة » كلها بعد عشر سنوات كاملة ·· وكأننى كنت انقلها بحروفها عن كتاب الغيب مفتوحا ·· فمد الله للرجـل فى الاجل ·· ولعب فى يوليو سنة ١٩٥٢ على مسرح السـياسة أخطر دور لعبه عبقرى سـياسى ·· فاقنع « مولاه الملك المعظم » بالتنازل عن « العرش المفدى » وبالتوقيع « باسمه الكريم » على وثيقة التنازل المخيفة ·· وأوهمه أن طفله ·· أحمد فؤاد الثانى ·· سيخلفه ·· وأن العرش باق فى أسرته أو فى سلالته ·· بل ان جلالته شخصيا لابد عائد يوما الى كرسيه وتاجه ·· وانما هى كرة خاسرة ·· تعقبها رجعة ·· رابحة ·· وانه ـ على ماهر ـ انما قبل رياسة الوزارة ليجتاز بالعرش هذه العاصـفة ·· وأنه اختار مجلس وصاية على رأسه الامير محمد عبد المنعم لتظل راية الملكية خفاقة عالية ·· وأن كل ما يطلبه ـ على ماهر ـ من « مولاه

الملك المعظم » أن يعجل بالرحيل الى روما مع الطفل الكريم الذى سينادى به ملكا قبل الرحيل ·· لصون حياة الوالد والولد، وهما أغلى ما يملك البلد ·

وهكذا استطاع على ماهر أن يخلع الفاروق فى جولة واحدة ·· وأن تردد جنبات التاريخ أصداء الضربة الماهرة ·· وأن يثب الوزير ذو الناب الى رياســـة الوزراء حاكما بأمره باسم الثوار الشـــبان الجدد ·· ليملى على التاريخ بقيـــة أحلام خايلته من صدر شـــبابه ··

أهدافه والخطأ فيها

كان حلمه الذهبى على مرمى الامتار منه ـ أو هكذا لاح له ـ ولكن نظرته اللهفى العجلى الى المرمى البعيد الذى يرنو اليـــه ـ مرمى اجهاض الثورة واستيعابه لها ـ قد أطارت النوم من عينيه فتبددت أحلامه كلها ·· وبكل مراميها القريبة والبعيدة ·

كان يحسن تقدير خطاه ·· وكان خطؤه أنه لم يكن يحسن تقدير خطى الآخرين ··

كان يحسن الظن بذكائه ـ وذكاؤه فعلا لا ينكر عليـــه ـ وكان خطؤه أنه لم يعمل أى حساب لاى ذكاء آخر ·· أو لم يدخل فى حسابه أن غيره قد يكون أشطر ·

ساء تقدير الرجل ·· فلم يوفق فى جنى الثمر ·

وتاريخ على ماهر حافل بمثل هذه المعـــارك ·· ذات الاستهلال البارع الباسم بحسن التمهيد لها وتسديد الضربة والحديد ساخن ويثب الى النصر وثبـــة القائد المدرب ويمسك بالدفة ·· ويركب الموجة ·· ويمخر العباب فى ثقة واعتداد ·· فاذا استوى بالسفينة فوق هذا العبـــاب ·· نسى أن يرقب الريح ·· وترفع عن قراءة البوصلة ·· وعن استشارة شيوخ البحار ·· فاذا السفينة تجنح ·· واذا السباح العالمى يغرق على مقربة من الشاطىء ··

وأيا كان الرأى فى الرجل ·· فقد ترك وراءه ماضـــيا حافلا بالذكاء وبالدهاء وبالمكر والفر ·· وبالجرأة والوثوب ·· وبسمات الابطال تحت الاضواء ·· وبحياة الظلام فى السراديب ·· وبكل ما تعنيه كلمة « التناقض » وهكذا استطاع أن يقدم لوطنه «خدمات» لا تنسى ·· وأن يسبب له « متاعب » لا تنسى هى الاخرى ·· وليس فى وسعى اذا ذكرت بعض هذه « المتاعب » أن أشير الى الرجـــل وأقول مستريح الضمير « انى أتهم » وانما أعتقد أن الرجل كان يستجيب لاصوات مبهمة فيه ·· كانت تأتيه من داخله لا من خارجه

·· تزين له « الفعلة » ·· فلا يتردد فى أن « يفعلها » ·· وكل امرىء ميسر لما خلق له ·

ولنعد اذن الى ماضيه ·· نحاول أن نسلط الاضواء عليه ·· رجاء أن يفيد منها أبناء هذا الجيل ·

وللامانة أقرر ان على ماهر كان فى تقديرى شـــيئا كبيرا ·· وكان فى وسع طاقاته وقدراته أن تقدم لبلاده خيرا ممـــا قدم ·· ولكنه قدره ·· أو ولكنها « شخصيته » هو مفتاح هذه الشخصية ؟

مفتـــاح شخصيته

وفى تقديرى أن « اللهفة على الطموح الى الرياسة » كان مفتاح هذه الشخصية ·

أقول « الطموح الى الرياسة » ولا أقول « الطموح الى الزعامة » وأفرق بين الطموحين ·· تفريقـــا يكاد يشـــبه التفريق « بين النقيضين » ولو استمد النقيضان ماء الحياة من نبع واحد ·

افـــرق بين الطموحين ·· لان « الزعـــامة » فى رأيى تعطى و « الرياسة » فى رأيى تأخذ و « الزعامة » فى رأيى تقود وتؤثر ·· وتمشى بالجماهير الى أهداف الجمـــاهير وتقنع الزعامة بحب هذه الجماهير وهتافها بحياتهـــا ·· فيزيدها الحب اقداما على الخطر وايثارا للهدف ·· ليجنى غيرها الثمر ·

أما « الرياسة » فكل هم المستعبد لها أن يبلغها وبأى الوســـائل وبكل الحيل ·· وبجهود فريق وعلى أشلاء فريق ·· وقد يلتوى بالوطن كله عن الطريق المعبـــد ·· قد يكون طالب الرياســـة سيىء النية ·· بل قد يكون منطويا على الرغبة فى أن يبنى لبلاده ما لا تستطيع الزعامة أن تبنيه لها ·· وقد يكون أقدر على البناء من هذه الزعامة ولكن بشرط ·· أن يكون رئيســـا أولا ·· لان الرياسة هدف له فى ذاتها ·· وكل شىء يجىء بعدها ··

وعلى ماهر ـ ان صحت قوانين الوراثة ـ لابد أن يكون موصول الجذور بداء فى الاسرة ·· اسمه « الصدارة » ·· فأبوه مصطفى باشا ماهر كان فى الصدارة من رجال الدولة وان لم يترك لنا فى سجل الجهاد سطرا ·· وأخوه أحمد ماهر كان يريد دائما أن يقود وقد قاد فعلا وقاد « خلايا » ·· وقاد حزبا وقاد حكومة ·· وحتى الاخ المغمور نسبيا محمود ماهر ـ أرضى نفســـه عندما قعدت به عن السياسة همته ·· بأن أمسى « كبيرا » للاطباء الشرعيين ·

من أول الطـــريق

وأعتقد أن على ماهر الذكى كان يدرك من صغره أن الطبيعة لم تحبه ببسطة فى الجسم يبتدى بها عملاقا ·· ليمشى بها فى طريق

العمالقة ·· وكان يدرك أن عليه هو أن يسد هذا النقص وأن يبنى لنفسه عملاقة من لون آخر ·· بسطة فى العلم وبسطة فى كل شىء يمكن أن تكتسب ولا توهب ··

وعلى ماهر الشيخ ـ كما رأيناه ـ وهو امتداد طبيعى لعلى ماهر الشاب ـ كان قصير القامة ·· ضامر الجسم ·· حديدى البصر ·· عابس الوجه ·· صارم القسمات سريع الحركة ·· دائم التوهج ·· بادى الثقة بنفسه ·· مجيدا لصبغ شعره ·· أنيقا فى زيه ··

والقصة من أولها

كان على ماهر طالبا فى المدرسة الخديوية ولم تكن الدراسة تعنيه بقدر عنايته بتأسيس « جمعية الهلال والنجمة » لتنمية ملكة الخطابة والبحوث عند الطلاب · وليكن « رئيسا » لها ـ والرياسة هى التى تعنيه هنا وهكذا استهل حياته الدراسية بالرياسة ·

وحاول الطالب أن يكون خطيبا ·· ثم أدرك أن الخطابة موهبة لم يرثها ·· واذن فليكن باحثا ·· وليبسط رياسته على « البحوث » ·· والبحوث تتطلب ذكاء وهو ذكى ·· وتتطلب الصبر عليها ·· وقد أخذ نفسه بالصبر ·· وتتطلب الغوص فى القاع ·· وقد درب نفسه على هذا الغوص ·· وتتطلب اقناع المدرسين والمشرفين بأن بحثه خير البحوث وقد استطاع أن يقنعهم وأن يؤثر فيهم وأن يعلو عليهم ··

كان على ماهر عميد الحقوق ورئيس الديوان ورئيس الوزراء ·· امتدادا لا شك فيه لعلى ماهر الطالب ·· رئيس الجمعية المدرسية ·· بعد أن غزل بيديه خيوطها ونسج بذكائه بردتها ·· واختار لها اسما يمت بالصلات الى النجوم والاهلة ·· رموز السلطان فى الدولة يومئذ ·· ونفسه اذن تهفو الى ما هو أبعد ··

بوادر وبواكير

نضج الصغير اذن قبل أوانه ··

وأبوه باشا ·· وذو منصب كبير فى الدولة ·· ويملك مالا ·· وله نفوذ ·· كيف اذن لا يرى ابنه الاكبر ·· هذه الدنيا العريضة ·· وبين يديه وسائل الرؤية ·

واستجاب له أبوه فقام الطالب الصغير برحلات الى أوروبا ·· وهناك هاله أن يرى دنيا غير دنيانا ·· ومجتمعات حرة وواعية وحياة رخية وهانئة ·· واتسعت الافاق أمام الفتى ·· وملأ كراساته بكل ما وقعت عليه عيناه ·· وعاد ثائرا على الاوضاع

يدفع فى لهفة بكل ما كتب الى المطابع ·· ويرده أبوه برفق عن هذا الشطط · ويقنعه بتهذيب ما كتب ·· حتى يمكن أن يطبع ·· وكان هم الفتى فى هذه الخطى على مستوى الامة أن يقال عنه ـ ولا تنس المفتاح ـ أنه أول من نادى باصلاح المجتمع ·

وهذه النزعة ـ نزعة المصلح الاجتماعى الاول أو الاكبر ـ لم تفارقه قط لا فى الشباب ولا فى الرجولة ·· ولا فى الكهولة ·· ويكفى أن تذكر أنه منشىء وزارة الشئون الاجتماعية ·· لتدرك ان النزعة أصيلة فيه ولكنها على أصالتها فقدت كل مضمون لها عندما جرفتها نزعة الرياسة فى مختلف المراحل مقرونة باللهفة التى تورث العجلة ·· واصلاح المجتمع يرفض اللهفة ويتطلب الدراسة المتأنية ·

المحاماة وقصة الشكوك

ولقد اكتشف الكثيرون فى هذا الرجل الكبير ـ ومن خلال مناصبه الكبيرة ـ خلة فيه لا تليق به وهى كثرة الشكوك ·· كان يشك فى كل شىء وفى كل شخص ·· فحرم من الرضى وحرم من الطمأنينة ·· وعاش حياة القلق ·· وليته كان فنانا ·· كلما تحرك جنين القلق فيه أعطانا من فنه وليدا ·· ولكنه كان سياسيا يظل فى قلقه حتى يرأس الحكومة أو الديوان ·· ويطارده هذا القلق حتى تفلت منه رياسة الحكومة ورياسة الديوان · فما مبعث هذه الشكوك فيه وهو ليس بالفنان ؟ مبعثها اشتغاله بالمحاماة بعد رحلة الطموح من الطفولة الى الرياسة مقرونة باللهفة ·

تخرج على ماهر بامتياز ملحوظ فاشتغل محاميا أمام المحاكم الاهلية والمختلطة وكانت المحاماة أمام القضاء المختلط ·· حكرا على الاجانب ·· وشق على ماهر طريقه فى المحاماة بقوة وكفاية ·

وحدث ـ والرواية هنا على لسان الدكتور محمود عزمى صديقه والمعجب به ـ ان محاميا جاءه فى جلسة من الجلسات وأبلغه ان التفاهم تم بين موكليهما اللذين يتكون منهما طرفا الخصومة على التأجيل الى ما بعد فصل الاجازات ورجا منه أن يتضامن معه فى طلب التأجيل من القاضى فقبل على ماهر الرجاء وتم التأجيل ثم تبين بعد ذلك أن شيئا مما قاله زميله لم يحدث فثار على ماهر واتجه الى زميله يطلب اليه تعليلا لهذا التصرف فاذا زميله يقول له فى بساطة : « الذنب ذنبك » ·· لماذا صدقتنى ؟ ·

ولاحظ على ماهر أن بعض زملائه ممن كانوا يخاصمونه فى بعض القضايا ·· كانوا يطلبون التأجيل ويمدون أيديهم بأوراق يقولون انها مستندات تؤيد مطلبهم ويجابون الى المطلب ·· ثم يثبت

بعد التأجيل أن هذه الاوراق لم تكن الا حيلة رخيصة خاليـة من الامانة والصدق فتنبه على ماهر على هذا المناخ الذى تعيش فيه العدالة وحدث ذات جلسة أن تقدم المحامى الذى يخاصمه بأوراق كهذه يزعم أنها مستندات تؤيد مطلبه فأمسك على ماهر بيد الزميل فاذا الاوراق بيضاء لا شىء فيها ولكن القاضى كان قد خدع ونطق بقرار التأجيل وتمسك به ·· فارتفع صوت على ماهر المحـامى الشاب ·· يجلجل فى القاعة وهـو يعلن انسحابه احتجاجا ·· « أعجب لمحام يكذب وأعجب لقاض يصـــادق على الكذب » ·· فارتاع القاضى ورفع الجلسة ثم أعادها وفتح باب المرافعـــة فى القضية من جديد عادلا عن قرار التأجيل ·

مثل هذه الاحداث لم تكن فردية الوقع على المحامى الشاب كما كان ينبغى أن تكون وانما أعتقد أنها أخلاق الشعب كله متجسـمة فى طائفة من أرقى طوائفه ·· ووقر فى نفسه أن التحايل أصـل فى أخلاق الناس ·· ونما هذا الوهم فيه وسيطر عليه فأصـــبح يتشكك فى كل شىء وفى كل شخص كما قلت حتى لقد عجبت له وهو يرفع بعض أنصاره ـ المعدودين على أصـــابع اليد ـ الى الدرجات العلا فى أقصر مدى فاذا ما نقل اليه عن بعضهم ·· بعض ما يريبه فيهم ·· ثار من غير تحقيق أو حقق وهو ثائر وفى لحظات قصار يقذف بهم من شاهق متأثرا بنارية العاطفة لا بعدالة القاضى ·

أخلاقياته وتقلباته فى السياسة

قد يكون فى وسعى أن أصور على ماهر السياسى من الظاهـر وبشهادة الاحداث ولكن المعادلة الصعبة ·· أن نعرض لشخصية بالتحليل فنرى التناقض الصارخ بين الظاهر والباطن ·· ونرى القدرات المتباينة فيه يقاتل بعضها بعضا ·· وتنتهى بنا الى الجودة مرة والى الرداءة مرات ·

وحتى من واقع الاحداث المعروفة ·· يحق لك أن تدهش ·· وأن تسأل : ما هى حقيقة هذا الرجل ؟ ·

نحن أمام شاب تخرج فى الحقوق واشتغل بالمحاماة ·· ونبغ فى القانون وأصبح من علمائه وحق علينا توقيره ·· وبلغ فى سلمه الى الذروة فعين ناظرا لمدرسة الحقوق (أى عميدا بلغة العصر) ثم توج نبوغه باختياره عضوا فى الوفد المصرى فأصبح من أعلام الثورة من غير أن يثور ·· وانفتح امامه طريق المجد مفروشـــا بالورود ·· فهل انتفع النابغة بها أو جنى شيئا منها ؟ ·

الذى حدث أن سعدا قربه اليه ـ وأولاه بعض الثقة ـ فلعب دورا كبيرا فى التوفيق بين سعد وعدلى مما مكن لسعد أن يبدأ مفاوضاته

مع ملنر ·· ولكن على ماهـــر لم يلبث أن انضم الى الاحـــرار الدستوريين وكان الملك يكرهه بسبب ولائه لسعد ·· فخفت الكراهية بسبب انضمامه الى الاحرار ·· ولكن حسن نشأت كان قد أعـد العدة للتعاون مع على ماهر ·· وأنشأ نشأت حزبا للقصر الملكى هو « حزب الاتحاد » وكان كل أعضـــائه ·· من لواءات الجيش السابقين والتافهين ·· واذ بعلى ماهر يختار وكيلا لهذا الحزب وفزع عارفوه من هذا الانحدار العجيب من قمة الشعب الى سـفح الملك ·· وعين وزيرا للمعارف فى وزارة زيور (مارس سنة ١٩٢٥ الى مايو سنة ١٩٢٦) وكان يدرك أنها وزارة من (القش) فأراد أن يثبت وجوده تمهيدا للوثوب فأحدث فى وزارة المعارف ما يشبه الانقلاب وملأ فجاجها مشروعات جريئة ولكنهـــا خطيرة أو غير ناضجة ·· ولم تلبث الوزارة ان هزمت أمام الإئتلاف فترك سياسة السطح الى سياسة السراديب ·· وعنى بتنمية ثروته كثمار لولائه فعين ناظرا على دائرة سيف الدين وناظرا على دائرة الامير محمد على ابراهيم وعضوا لمجلس ادارة البنك الاهلى (ويستوقف النظر أن أخاه أحمد ماهر عين فيما بعد ناظرا على دائرة الامير حليم) وفجأة نجد على ماهر وزيرا للمالية فى يونيو سنة ١٩٢٨ (وزارة محمد محمود أو اليد الحديدية) ·· وزارة الرجل الذى انضم اليه ثم تخلى عنه وآثر حزب الاتحاد على حزبه ·· ثم جرت الانتخابات الحرة على يد عدلى يكن سنة ١٩٢٩ وكان على ماهر قد أصـبح فى ميزان الشعب جيفة تعاف ·· فرشح على ماهر نفسه فأنزل به الناخبون هزيمة قاسية وأقبلت وزارة الوفد وولى الحكم صدقى فعين على ماهر وزيرا للحقانية (العدل)فى الوزارة الصدقية ·· وكان صدقى يعرف أن على ماهر رجل دسـاس وبطل انتهازى ·· فلم يجل بخاطره أن خلافا بينهما يمكن أن يقع تحت الاهواء ولكن على ماهر سدد ضربة شعبية لرئيسه رجاء أن يسترد بعض مجده القديم ·· لا حبـــا فى ذلك المجد ·· بل رصـيد لمستقبل آت ·· لرياسة فاتته وما يزال يصبو اليها ·· وكانت اسـتقالته المدوية احتجاجا على تعذيب رجال البوليس والمباحث لافراد الشعب الابرياء ·· وفزع الملك فؤاد لتصرفات وزير كان يكرهه ثم ضمه اليه وأخاه ثم أغدق عليه واستوزره فى كل حزب ·· ثم جاء الآن يطعن نظاما كان الملك قد اقامه للقضاء على الوفد ·· وجاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا فعرض عليه منصب وزارى فيها لاسترداده ولكنه أدرك أن السفينة كلها ـ سفينة النظام الصدقى الملفق ـ اخذت تغرق فلم يشأ ان يكون بحارا فى سفينة تغرق ·· فعرض عليه الملك منصب

رئيس الديوان ·· فاشترط أن يطرد الابراشى من القصر حتى يدخل هو ·· ولكنه لاحظ أن الملك فؤاد يريد أن يتخلص من توفيق نسيم فى سنة ١٩٣٥ فتقرب الى الملك من جديد فعينه رئيســـا للديوان ليتخلص من نسيم ·· وكان الشــباب قد ثار والملك قد مرض ·· وأصبح لزاما أن تقوم الجبهة الوطنية وأن يتمسك النحاس باجراء انتخابات حرة ·· وصح ما توقعه وكلف على ماهر باجرائها وعين رئيسا للوزارة فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٦ وكان يعد العدة للبقاء فى الحكم برغم أغلبية الوفديين ولكن الاحداث حرمته فاستقال مكرها فى ٩ يناير سنة ١٩٣٦ بعد أن ملأ أيامه المائة بمشروعات لا يقوم بها الا وزير مخلد ·

من هذا العرض ترى نفسك أمام الحرباء كل يوم هى فى لون ·· وبين أى لحظتين تخلع عنها ثوبا لتلبس ثوبا · بدأ بالوفد المصرى ·· عضوا فيه وخرج على سعد وانضم الى الاحرار ، وخرج على محمد محمود وانضم الى حزب الاتحاد وأصبح وكيلا له بل رئيسا فعليا ثم انضم الى وزارة زيور زميلا لصدقى ، ثم عاد الى محمد محمود عضوا فى وزارته ، ثم رضى أن يكون عضـــوا فى وزارة صدقى ثم سدد اليه طعنة وترك السفينة فى مهب الريح الى رياسة الديوان ورياسة الوزارة فى عام ·· وكان وطنيا متطرفا أيام سعد ·· وكان وطنيا متطرفا فى استقالته من وزارة صدقى ·· وكان صغيرا صغيرا فى انضـــمامه لحزب الملك ·· وكان عدوا للملك وقريبا منه وأثيرا عنده ·· وكان قادرا عبر كل تلك الاحداث على القيام بكل تلك الادوار ·· وكأنه ممثل قادر على القيـــام بأدوار الملاك وأدوار الصعاليك أو أدوار الابطال وأدوار الانذال ·

مثل هذا الرجل لا يقال عنه أنه صاحب مبدأ أو صاحب رأى ·· أو صاحب خط يلتزمه ·· وانما يقال عنه أنه صاحب هدف يسترخص فى سبيل ادراكه كل القيم ··

بل ان هناك ما هو أخطر ·· كان ينضم الى الوزارة عضـــوا فيها ـ والعضوية ليست هدفه ـ على أساس أن يعمل لاسقاطهـا رجاء أن يخلفها بوزارة يشكلها ·· وظل ينجح فى الدس للوزارات واسقاطها ، ولكنه لم ينجح فى أن يكون رئيسا الا فى سنة ١٩٣٦ بحجة اجراء انتخابات تمهد للمعاهدة (وبنية البقاء فى الحكم) ولم ينجح فى البقاء والمعروف أن على ماهر هو الذى أسقط وزارة اليد الحديدية فى سنة ١٩٢٨ وهو الذى أضعف وزارة صـدقى ودس لها حتى ذهبت ·· وهو الذى أشار بعبد الفتاح يحيى ليجلو كما جاء فى أقصر مدى ·· وهو الذى أسقط وزارة نسيم ليخلفها ·

وتنبـــه الوفد

وتنبه الوفد على الطرائق الماهـرية فى وزارة الايام المائة ·· وقرر ألا يقع فى حبائله مرة أخرى ·

ولكن على ماهر كان قد بدأ يتقرب بطرائقه الى الملك الشـاب فاروق الاول ·· واتخذ منه الملك مستشارا خاصـــا من غير أى منصب رسمى يشغله ·· وتاق الملك ليعينه رئيسـا لديوانه ولكن النحاس عارض هذا التعيين بشدة فسكت الملك ·· ولكن على ماهر عاد يشجع الملك ليسدد بتعيينه ضربة الى حكم الوفد فأقدم الملك على هذا التعيين فى اكتوبر سنة ١٩٣٧ وثار النحاس فانتهز على ماهر هذه الفرصة وأوغر صدر الملك الشاب ·· وبدأ العداء بين الملك والوزراء ينتقل الى رجل الشارع ـ وجرت أحداث فردية من جانب الشعب تأييدا للوفد ساعدت على ماهر على أن يبلغ أهدافه وأقيلت وزارة الوفد فى آخر يوم من تلك السنة أى بعد تعيين على ماهر رئيسا للديوان بشهرين وعشرة أيام ولكن الذى خلف النحاس لم يكن على ماهر ·· وانما كان محمد محمود ليجىء بمجلس مزيف قائم على الاحزاب التى تخاصم الوفد ··

دور مضـــاد

كان لزاما أن تسقط وزارة محمد محمود ·

ولكن سقوطها لاح يومها بعيدا لانها جاءت بمجلسها النيـابى المزيف ·· وتعاونت مع خصوم الوفد ·· واستتب لها الحكم ·· ولكن على ماهر بقدرة خارقة استطاع أن يتصـــل بالنحاس وأن ينسب أخطاء الماضى الى غيره وأن يكتسب وده وأن يعاهده ·· كرئيس للديوان ـ أن يرد الى الزعامة حقوق شعبها واطمأن اليه النحاس وبقدرة خارقة استطاع على ماهر أن يقنع الفاروق بأن الوقت قد حان لتقوم فى مصر وزارة للقصر ·· خطها السـياسى هو خطه ·· وأهدافها تستمد من أهدافه ··

أحس محمد محمود بالدور الذى يلعبه على ماهر لحساب الملك والوفد فغضب واعتكف فى (وندسور) وصحت فيه الكبرياء فضرب بعرض الحائط كل التقاليد التى تربط بينه وبين القصر ·· فرأى على ماهر أن تسديد الضربة الى الرجل المتكبر وهو ينتظر الترضية فرصة للتخلص منه عن طريق الكبرياء ·· فأوعز الى سعيد ذو الفقار كبير الامناء أن يزوره فى الفندق كصديق يسأل عن الصحة ويلعب معه النرد كالعادة ·· ثم يتسلل اليه ببعض الاسئلة المثيرة وأدى كبير الامناء دوره بامانة فكف محمد محمود عن اللعب ·· وقال له : « سيأتيك جوابى على أسئلتك فور عودتك الى القصر » وما كاد

ذو الفقار يصل الى مكتبه حتى تلقى استقالة محمد محمود موجهة الى الملك عن طريقه لا عن طريق رئيس الديوان كما تقضى التقاليد ·· وكانت استقالته هى كل المطلوب ·

وآن لعلى ماهر أن يحكم مرة أخرى ·· وأن يستقر فى الحكم فى هذه المرة ·· وهذه هى أحلامه ·· وأدار الرجل ظهره للوفد بعد أن وعد النحاس باعادته الى الحكم ·· وكان على ماهر قادرا على ادارة الظهر لاى رجل ولاى حدث ·

لم يحسب أى حساب للوفد ·· ولكن فاته أن يحسب حسابا للقدر ·

هدية القـــدر

كان على ماهر يغدر بالزعيمين فى وقت واحد ·· بمحمد محمود ومصطفى النحاس وكان القدر قد ادخر له المفاجأة الكبرى ·· بعد ثلاثة أيام من توليه الحكم ·· ووفود المنافقين من المهنئين يملأون دار الرياسة ·· وأكواب الشربات تدار عليهم ·· بعد ثلاثة أيام فقط وعلى وجه التحديد يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ أعلنت الحرب العالمية الثانيـة ·

ووجم على ماهر للمفاجأة ·· وأطبق شفتيه ·· وروى ما بين حاجبيه ·· وانتصب الطربوش الاحمر القانى فوق شعره الاسود المصبوغ ·· انتصابة النمر اذا هوجم ·· واستجمع الرجل شجاعته ـ وكان يملك فعلا لونا خاصا به من ألوان الشجاعة ـ وصـحت فيه كل مواهبه وقدراته ·· وصحت فيه غريزة المقاتل الشرس ·· ووقف عند هذا المفترق يترقب ويتحفز ·· بعد أن أصبح أول حاكم عسكرى للبلد ·· وبعد أن حسب أن كل السلطات مطويات بيمينه ·· وكان قد اختار لمعظم المناصب الوزارية ثوارا قدامى ·· يملأون الفراغ الذى يمكن أن يهاجم منه ويوهم الجماهير أنه أشـد تطرفا فى معاداة الانجليز من الوفد · وكان من بينهم مصطفى الشوربجى الذى احتفظ بالثورية الكلاميـة هدارة برغم الشيخوخة ·· وعين وزيرا للحقانية ·· ومنهم عزيز المصرى ـ وأنت تعرفه ـ وعين رئيسا لاركان حرب الجيش المصرى ورأى أن يتسمك فى سياسـته بنصوص المعاهدة بينه وبين الانجليز ·

وهال هذا التشكيل انجلترا بعد أن دخلت الحرب ·· وشاع فى كل مكان أن على ماهر مؤمن بانتصار هتلر ·· ولم يكن الرجل يخفى اعجابه بالزعيم النازى ·· بل شاع أن على ماهر أقنع الملك الشاب بأن يلعب على الورقة الرابحة ·· وأن الدم الايطالى الذى يجرى فى عروق فؤاد الذى سلف وفاروق الذى خلف ·· عاون على اقناع الملك الشاب وكان المطلوب من أية وزارة مصرية أن تكون حليفة لانجلترا فى

حربها ضد النازية والفاشية فبدأت تطلب الى على ماهر أن يفرض الرقابة على الصحف فاستجاب لها ولكنه عين صديقه محمود عزمى مديرا لهذه الرقابة وأعلن أن الرقابة على يد على ماهر غير الرقابة التى تريدها انجلترا ·· ولكن التعليمات الصارمة بدأت تنصب على رأس الرقيب من القيـادة العليا انصبابا حمـــل عزمى على الاستقالة وتوالت الاحداث وأبلغت انجلترا الملك بعد انهيار فرنسا ودخول ايطاليا الحرب أن التعاون مع على ماهر لم يعد ممكنا · ورضى الملك مكرها على ابعاد على ماهر فقدم استقالته فى ١٣ يونيو ســـنة ١٩٤٠ ·

ولست أنوى أن أؤرخ هنا للحرب العالمية الثانية ·· أو ما جرى فى مصر خلالها ·· ولا أن أثير أحداثا لا يزال صداها يملأ ذاكرة المعاصرين لها كقصة عزيز المصرى وفصله من الجيش وفشله فى محاولته الهرب فى طائرة لمقابلة هتلر ·· وانما يهمنى أن أقول ان كل أحلام على ماهـر قد تبددت ·· وأرغم على الاســـتقالة ·· فاستقال وفى يقينه أنه قيد اسمه فى دفتر تشريفات الشعب ·· وأن عليه أن يحتفظ بهذه البطولة عن طريق الشغب البرلمانى تحت القبة تحميه الحصانة البرلمانية ·· فاذا انتصر هتلر فالمستقبل واضح ·· واذا ضعف الانجليز واحتاجوا اليه وثب الى الحكم مرة أخرى ·· وان طال المدى ·· فاحتراف الشغب البرلمانى مهمة هينة ·· ثم عليه أن يثير الجمعيات المتطرفة فى الوطنية والجمعيات الاسلامية ضد بريطانيا ·· ولكنه لم يكن رجل ذلك الميدان ·

على ماهر فى المعتقل

وساء تقديره أيضا فى هذه المرة ·· وأمر بألا يغـادر « القصر الاخضر » بيته الريفى وفى تسميته « بالقصر » معنى يشير الى نزعته·

وفى وزارة حسين سرى ·· تسلل الى مجلس الشيوخ ليمـارس حقوقه كعضـو فيه تحميه الحصانة واستطاع أن يضلل المبـاحث والبوليس ويصل فعلا الى حرم المجلس ويظهر فى القاعة فجأة ·· **ووضع الشيوخ أيديهم على قلوبهم ··**

وكانت أزمة دستورية اهتز خلالها شارب الرئيس المداور محمد محمود خليل ·· وكانت ليلة توليت وصفها فى (البلاغ) بوصفى ناقدا برلمانيا ·· وكانت ســهرة طويلة قضيناها فى حجرة رئيس المجلس والحصار مضروب على مجلس الشيوخ ·· ورجال الضبط والربط ·· والمبـاحث والمخابرات يملأون فجاج الحديقة المحيطـة بالمجلس ·· وعلى ماهر فى ثورة عارمة يتمسك فى شجاعة بالحصانة البرلمانية ·· ولم ينقذ الموقف غير تدخل شقيقه أحمد ماهر الذى

أخذ من المسئولين كلمة ·· بتأمين أخيه على أن يعود الى « القصر الاخضر » حرا ·· وهو يعلم أنه ان عاد الى « القصر » ·· فلن يسمح له بمغادرته ··

وسحبت القوات ·· وصين فى الظاهر اســـتقلال البرلمان ·· وكانت البراعة يومها فى صون الشكل سليما ·· ولا أهمية للموضوع·

وقصته بعد تلك الاحداث معروفة ·

لقد اعتقل ·· وظل طوال حكم الوفد ينتقل بين المعتقلات حتى انتهى الى قصر قوت القلوب فى العيــاط حتى اقيلت وزارة الوفد فى ٨ اكتوبر سنة ١٩٤٤ وولى الحكم شــقيقه أحمد ماهر فأعاد الحرية الى شــقيقه ·

ولكن قدرات لا شك فيها عبر ذلك الكفاح تجلت لنا من خلاله ·· قدرة الرجل على اصطناع المواقف الوطنية أو الثورية واندفاعه فيها الى الصدر أو الى القبر ·· وقدرته على التراجع عند وقوفه على حافة القبر ·· ثم قدرته ــ وهو شيخ ــ على ممارسة الاســـاليب الثورية والتخفى والهروب والتسلل ·· تماما كأخيـــه أحمد مع الفارق فى الهدف ·· فأحمد كان يمارس تلك الاساليب على مستوى الوطن ·· كاسهامه فى ارهاب الانجليز أو اغتيالهم ·· أما على ماهر فعلى مستوى شخصه ومجده ومطامعه ·· ولعل رحلته الى الســـودان وهو رئيس للوزراء ·· يضرم نار الثورة فى الشعب السودانى ضد المستعمر ·· لعل هذه الرحلة تصــور قدرته على اصطناع المواقف الوطنية أو الثورية وما أسهل الاعتذار عنها بكلمة رقيقة أو بحركة مضادة ·

مجمل الرأى فيــه

مجمل الرأى فيه وأنا أنفض يدى من رسمه أنه كان ضحية اللهفة أو العجلة فى تحقيق أهدافه ·· وهى ترجمة أمينة لمفتاح شخصيته « اللهفة فى الطموح الى الرياسة » ·

وكل ما أقوله لك عن نجاح أصابه أو فشل تورط فيه ·· انمــا كان بسبب الادوات التى استخدمهــا لتحقيق هذا الطموح ·· أو بسبب سبيل سلكه وكان الخطأ فى اختيــار السبيل ·· أو بسبب هوى فى نفسه زين له هذه الادوات أو ذلك السبيل ·· وعيبه الجذرى أنه كان دائما ·· « يتبع هواه » ·

ولقد كدت أعدل وأنا أبحث عن مفتاح شخصيته ·· كدت أعدل عن « اللهفة فى الطموح الى الرياسة » الى مفتاح آخر هو « اتباع هواه » ·· ولكنى خفت أن أمضى فى هــذا الهوى فينتهى بى الى منزلق خطير قد أظلم الرجل عنـــده ·· خفت أن تنهار فى يدى

الفروق بين « اتباع هواه » و « اشباع شهوته » ·· فتنهار الحدود مرة أخرى بينه وبين اسماعيل صدقى ·

لقد قيل ـ وتواتر القول ـ أن الرجل كان يحب الجمال ·· وكان يحب الحسان وكان يفعل الممكن والمستحيل ·· فى هذا السبيل ·· ولكنه كان حريصا دائما على ألا يعرف عنه هذا الضعف ـ وان كان قد عرف ـ وكان حريصا أن يظل بادى الكبرياء وعلى أن يظل موفور الوقار ·· وراودنى أن يكون طموح الرجل الى الرياسة يستهدف ـ فيما يستهدف على الاقل ـ اشباع شهواته ·· والرياسة دائما أقصر طريق لاشباع الشهوة ـ رَاودنى هذا الخاطر الخبيث واستغفرت الله بعد أن هالنى أن تحترق بين يدى كل أهدافه وكل قدراته فى سبيل هذاالهوى الشهوى الصغير ·

وعذرى ـ عندما راودنى الخاطر الخبيث ـ معالم تبدت لى على طريق الرجل منها على سبيل المثال حرصه على الاناقة ·· حرص يستنفد منه الجهد والوقت ·· ومن ألوان هذا الحرص ·· أنى رصدته طوال حكمه وطوال عضويته فى الشيوخ أن أضبط رأسه متلبسا ذات ليلة بشعرة بيضاء واحدة ·· فلم أوفق ·· وهذا يعنى أن حلاقه (الموظف عنده) يراجع هذا الشعر فى كل صباح ومساء ·· وعقوبته الفصل اذا أفلتت منه شعرة ، وقدرت أن يكون هذا الحرص نابعا من « الهوى » ولكنى عدت فقدرت أن حرصه على الاناقة قد يكون نابعا من رغبته فى أن يضيف بها بعدا من أبعاد الاكتمال بعد أن حرمته الطبيعة من البسطة فى الجسم والروعة فى التكوين ··

ضل السبيل ··

ويخيل الى أن على ماهر كان يستطيع أن يكون خيرا مما كان لو لم يختر سبيله بما يطابق هواه ··

لقد كانت مواهبه وقدراته فى حاجة الى حزب كبير يفيد منها ويتفاعل معها ·· والى صحافة راشدة أو بارعة تجلو أبعاد هذه المواهب وتنشر على طريق الجماهير ظلالها ·· والى أنصار يؤمنون بها ويبشرون بصدقها ·· ولكن الرجل لم يفعل شيئا من هذا كله ·· لقد قضى العمر رئيسا بغير مرؤوسين ·· وزعيما بغير حزب ·· وشيخا بغير مريدين ·· ولا أعرف له من الحواريين ـ ان ساغ هذا التعبير ـ غير صديقين لى ـ رحمة الله عليهما ـ هما سعد اللبان والشافعى اللبان ـ وماذا يصنع الاثنان فى معارك الشعوب وتيارات السياسة ؟ وكان له من موظفى الشيوخ شاب قدير وموهوب ·· هو ابراهيم عبد الوهاب السكرتير العام ··

وقد حرص الشاب على الولاء لعلى ماهر وعلى اشباع الكبرياء فيه ·· حتى اختاره فجأة بعد حريق القاهرة ·· وزيرا ·· ولم يطل العمل بالوزارة ·· ولم يترك ولاء ابراهيم فى عالم السياسة أثرا يفيد الرئيس ·

وكان يحب أن يستقطب بعض الصحفيين ·· وينتقى منهم بعض القادرين ·· ويسخو عليهم ·· وهو ســـلوك ساذج ·· ينتهى بانتهاء السخاء خلال الحكم ·· صحيح انه لوح للصحافة بحبه لها ورغبته فى النهوض بها ·· وفى قيام نقابة لها معترف من الدولة بها ·· ولكن حتى هذه المحاولة لم يعجل بها ـ وهو العجول ـ وتريث فيها حتى اختطف الاضواء منه حسين سرى فحققها ··

ولعل قصته مع الصحفى الكبير صاحب المجلة التى باعهـــا بعدئذ لاحدى الدور الصحفية تثبت سذاجة السبيل الذى ســـلكه علَى ماهر مع الصحفيين ·· فقد قدر أن تقريبه كسب كبير فقـربه واصطفاه ·· وأغدق عليه ·· وذات يوم سأله عن الحال ·· فأشار الصحفى بلباقة الى ضيق مالى خانق يمر به ·· فأرسل على ماهر اليه فى نفس اليـــوم (مظروفا) به عشرة آلاف من الجنيهات ·· مع مدير الامن العام ·· (مع تحية الرئيس) ·· وفى نفس اليوم ـ أو الذى يليه لا أنكر ـ استقالت وزارة عـلى ماهر ·· فما كان من الصحفى الكبير مد الله فى أجله ـ وكانت افتتاحية العدد تسبيحا بعلى ماهر ـ ما كان من الصحفى الا أن أوقف طبع (الملزمة الاولى) التى تتصدرها (الافتتاحية) ·· وكتب مقالا جديدا ضمنه فضيحة عائلية ـ أو هكذا أســـماها ـ عن خلاف بين على ماهر والسيدة حرمه ·· ولا أنكر ان كان قد تحدث فيه عن الطلاق أو لم يتحدث ··

وكانت هذه هى حصيلة الاختيار غير الموفق ·· أو حصيلة السبيل الساذج ان صحت هذه الواقعة ·

وعلى ماهر البرلمانى

بقى أن تسألنى رأيى كناقد فى على ماهر كبرلمانى ·

وأعتقد أن رأيى فيه من ثمانيـــة وعشرين عاما لم يتغير وأنا استأذنك فى أن أنقل هذا الرأى عن الفصل الذى كتبته عنه فى سنة ١٩٤٢ ··قلت يومها :

« رأيته اليوم رئيسا للوزراء وأول حاكم عســـكرى فى مصر وأعنف خصم للمعارضـــة الوفدية فكانت له مواقف لا تنسى من المغفور له الاستاذ يوسف الجندى زعيم المعارضـــة دلت على أن الرجل يجيد التكتيك البرلمانى فحين لاحظ أن المغفور له الاستاذ

الجندى كان من قوة الحملات بحيث أذا تركت له حرية شنها غدا خطرا على أى خصم سياسى وان عظمـــة يوسف كبرلمانى كانت تقوم قبل كل شىء على سيادته على أعصابه خيل الى أن على ماهر فكر فى أن يفقد زعيم المعارضة هذه السيادة ·· فكان يلجأ الى مقاطعته دائما غير مبال بنصوص اللائحة ولا رجاء الرياسة ، وكانت المقاطعات أدنى الى الثورة منها الى الحجـــة ، فما يكاد يوسف يسوق عبارة حتى يهب على ماهر صارخا فيه ومتهجما على المعارضة بعبارات تثير يوسف وتقطع عليـــه سلسلة تفكيره حتى لقد ضاق يوسف بالمقاطعات ذرعا فجلس مرة خلف المنبر معلنا أنه لم يعد يستطيع الكلام ازاء هذه الطريقة ·· وبعد جهد استطاع الرئيس أن يأخذ موثقا على « على ماهر » بعدم المقاطعـــة وبدأ يوسف من جديد، فلما قارب التوفيق هب على ماهر باشا يمارس المقاطعة وبدأ يوسف من جديد فلما قارب التوفيق هب على ماهر مرة أخرى فأطار من يوسف ما كان قد أعده لكسب المعركة ·

« وعلى ماهر ليس خطيبا ولا يحسن الارتجال مطلقا الا اذا تكلم باللغة الدارجة وكان ثائرا ·· فانه حينئذ يتدفق كالسـيل ويهدر هديرا غير مراع مسوليته كحاكم فاذا ثار معه وزير حقانيته يومئذ مصطفى الشوربجى بك فحدث ولا تخف من مواقف تعيـد الى الاذهان مواقف أخر حدثنا عنها تاريخ الثورة الفرنسية بل حتى يخيل اليك أن الجلسة لا يمكن أن تنقضى بغير ضحايا وصرعى ·

« أما حين دخل القاعة شيخا ــ بعد استقالته من الوزارة ــ فقد حرص على أن يدخل صامتا وان كان صمته يجاوز الكـــلام بلاغة فكان لا يدخل الا حين يعرف أن الانظار متطلعة اليه وأن الانصار حافون من حواليه ·· آنئذ كان على ماهر يقصد الى آخر الصفوف فى مشية الزعيم المعتد أو السيد الواثق فاذا أخذ مكانه بين الانصار وأخذ يصغى الى أحدهم أو يرد على أحدهم تعمد ايماءات وحركات لافتة للانظار وحافظة عليه ما يريد لنفسه من هالة وهيبة ووقار » · تاريخ حافل بالمعارك ·· وحافل بالدهاء ·· وحافل بالوثوب ·· وحافل ·· بالمتناقضات ·· وحافل بالانتصارات ·· وحافل بالهزائم ·

ومضى الرجل الى التاريخ ·· ليدخله من الباب الذى أرادته الاقدار ·· لا من الباب الذى أراده لنفسه ·· ولا من الباب الذى كان ينبغى له أن يدخل منه ··

رحم الله الرجل الكبير الذى كان فى الاغلب الاعم يصيب فى البدايات ويخطىء عند الخواتيم ! ·

الدكتــور محمد حسين هيكل

جل العباقرة ـ عباقرة الاجيال المطوية فى تاريخنا الحديث ـ لم يكونوا من صنع العلم ولا كانوا ثمارا للدراسة ، ولم يكن الوضع فى مصر ليأذن لهم فى أن يكونوا هذه الثمار ·· وانما كانوا غزاة ـ ان صح التعبير ـ أو كانوا روادا ـ وهو التعبير الصحيح ـ وكانوا ثمارا للمواهب والكفاح ·· صنع كل رائد من نفسه عظيما ·· بالدمع والعرق المتصبب ·· واليهم جميعا ـ كتابا وشعراء أو ساسة وزعماء ـ ترد هذه النهضة التى بلغناها ·· ويرد كل تقدم نراه فى الحياة التى نحياها ·

ولست أدرى ان كان من حق هيكل أن يعد من هؤلاء أو أن الامر معه ·· فيه كلام ·

ولا شك ـ من حيث الريادة ـ أن هيكل كان من أولئك الرواد ـ وفى مجال القصة على الاقل ـ ولكنه أيضا كان من ثمار الدراسة ·· وكان للظروف نصيب فى صنعه ·· وكان لبيئته بصماتها على مراحل حياته ·· فهيكل لم يستقبل الحياة معدما أو فقيرا ·· ولم يكافح فى سبيل العلم ليضمن لنفسه لقمة العيش مريرة أو مريئة ·· هيكل من بيت ريفى طيب ·· وأبوه كان رجلا ميسورا ·· وانفاقه على تعليم ابنه فى مصر والخارج لم يكن غريبا ·

بين مصر وفرنسا

حصل هيكل على ليسانس الحقوق من القاهرة وسافر الى فرنسا وحصل منها على الدكتوراة فى القانون ثم عاد الى مصر ليعمل محاميا ·· وكل هذا الخط كان مرسوما ومفهوما ··

ولكن هيكل لم يكن طالبا عاديا يلتزم الخط المرسوم ولا يحيد عنه· هيكل ·· كان شابا ممتازا وموهوبا ·· فلم ينفقسنوات الدراسة فى القانون وحده ·· ولم يبدد فراغه فى التسكع على الافاريز وصداقة الحسان ·· وانما أنفقها فى التحصيل والتأمل ·· وأنفقها فى المفاضلة والالم ·· وهو يرى الفوارق الرهيبة بينهم هناك وبيننا فى مصر ·· الفوارق فى كل شىء ·· فى العلم والفن والادب ·· فى السلوك المهذب فى العمل من أجل المجتمع ·· فى اهتمام كل فرد هناك بالتطلع الى غد أفضل لهذا المجتمع ·· واهتمام كل فرد هنا بنفسه وبيته فقط ·

وعاد هيكل الى مصر وفى قلبه طموح وتطلع ·· وبين جنبيه انقضاض وتحفز ·· تحفز للتغيير والتطوير ·· ولا أقول : « تحفز للثورة » ·· فهيكل لم يكن بحكم تكوينه ـ وكما سواه الله ـ من الثوار ·· ولا رمى يوما الى الهدم بالعنف ·· وانما كان من « الثوار » ولعل للنشأة التى نشىء عليها فى الريف كرها للانحراف والتزاما بالتقاليد والاعراف ·· واحترامه العميق لابيه وتوقيره لمن يكبره فى السن ·· لعل لتلك النشأة دخلا فى ذلك التكوين ·

عاد الى مصر ليعمل محاميا ككل المحامين ·· وافتتح مكتبا له فى المنصورة ·

وضاق صدر الشاب بذلك الافق المحدود ·· وراح يبحث فى جد عن الطريق ·· وقد اهتدى اليها فى رجال ممتازين طرقوها قبله ولا يزالون يمشون فيها ·· فلماذا لا يقتدى بهم ويقتفى خطاهم ·· والقدوة أمامه ·· أقرب الناس اليه ·· أحمد لطفى السيد ·

عرف هيكل طريقه ·· محاميا نعم ·· ولكن عن الامة والمجتمع ·· عن الامة المظلومة لا عن الفرد المظلوم ·· المتهم الماثل أمام القضاء يجد محامين عنه لا حصر لهم ·· أما الشعب المظلوم فقلة تحصى على الاصابع هى التى تحامى عنه ·

وانطوى هيكل تحت راية لطفى السيد وانضم الى أسرة تحرير « الجريدة » ·

وكان هيكل بعيد النظر فظل يعمل فى « الجريدة » لمصر ·· وظل يعمل فى المحاماة ·· للحياة ·

تأمل واتجـــاه

وطال تأمل الشاب ـ وكان يحب أن يتأمل كل شيء ـ وخرج من تفكيره بأن الامر ليس أمر الكفاح السياسى وحده ·· وعلى صفحات الجريدة وحدها ·· وان هذا الكفاح لا شأن له ·· اذا لم يسـنده فكر شبابى متفتح ·· ورأى حـر يتطلع ·· ووعى فنى يمهد ·· وضمير حى لا يعرف التردد ·· ولا شيء من هذا كله فى المجتمع المصرى ·

وعاد بذاكرته الى أوربا وما رأى فيها ·· عاد الى العلم وأثره فى بنيهَا ·· وعاد الى الفن وقدرته على اعادة تشكيل الحياة فيها ·· وعاد الى المسرحية والقصة والفنون التشكيلية ·· التى تعمل كلها على خلق أمة مرهفة الحس حرة الفكر ، وسأل نفسه ان كان فى وسعه أن يسهم فى ارساء الاساس لمثل هذا البناء ؟ ·

وأحسَ فعلا أن فى وسعه أن يسهم ··

وأحس أن فى وسعه أن يقول شيئا ·· أن يكتب قصة ·· كمـا يكتبون هناك ·· قصة مصرية تكتب هنا ·· وتنبع من قلب مصر ·· من ريفها الذى لم تمتد اليه يد الزيف بعد ·· من القرية التى نشأ فيها وعاش بين أهلها وفكر معهم ومثلهم ·· وشعبنا الموصول الصلات بأقدم الحضارات ، وأقدم القصص على ظهـر هذه الارض ، لابد أن يقبل على هذا اللون من الفن ·· وشبابنا المثقف يعوزه أن يرى الرائد الذى يفتح أمامه الطريق ·· فلماذا لا يكون هذا الرائد ؟ ·

وكان الرائد هو ·· وكانت قصة « زينب » ·

وعندما هم بطبعهـا أحس بالخجل ·· فحجب اسم المؤلف عن القراء حتى لا يشعر أهله أنه أقدم على عمل لا يليق بمحام ·· وحتى لا يقال أنهم أرسلوه الى أوربا لتكون الحصيلة « حدوتة » من شأن العجائز أن « يهدهد » بها الاطفال عند النوم ··

طبعت زينب ·· وكان « المتعلمون » فى مصر قد كثر عددهم ·· والكفاح السياسى على يد مصطفى كامل ومحمد فريد كان قد أثمر ·· والعنف الثورى والدينى على يد عبد العزيز جاويش كان قد بدأ يزداد ·· والمثقفون الجدد كانوا قد بدأوا يبحثون عن الجديد مع لطفى السيد ·· فلما ظهرت « زينب » فرحوا بها ·· وفاخروا بمولد القصة فى مصر ·· وانتظروا انهمار الغيث على يد هـذا المؤلف ·

ولكن هيكل لم ينتبه مع الاسف على هذه الحقيقة ·· وقلة من الاصدقاء الذين عرفوا أنه المؤلف لها نصحوه أن يعنى « بالامور

الجادة » فاستقر فى ذهنـه أن جهوده منيت بالخيبة ·· ولم يفكر أبدا فى تأليف قصة أخرى ·· ولم يجل بخاطره أن التاريخ سيقول له يوما أنه كان أول رائد لفن القصة فى مصر الحديثة ·

انصرف هيكل مع الاسف عن القصة الى الالوان التى يحترمهـا المجتمع ·· الى السياسة والدعوة الى الاصـلاح الاجتماعى ·· وعندما فكر فى السياسة اقتنع بأن الاسـتعمار هو علة العلل ·· وأن الفنون تتطلب القرون لتهز دعائم المستعمر ·· أما الهجـوم المباشر ·· الهجوم اليومى فى الجريدة ·· فهو أشبه بالوجبة تقدم للجائع ، وهو أفعل فى توجيه الاحداث من القصة والمسرحية ، واذا قدر للكفاح السياسى أن يثمر ·· وتحررت مصر من المحتل ·· فان أبواب الفنون سوف تتفتح كلها أمام المؤمنين بها ·

اقتنع هيكل بهذا الاتجاه ·· أو لعله أقنع به نفسـه ·· ولكن هيكل فى جوهره ليس ثائرا كما قلت ·· ومحاربة الاستعمار تتطلب ثوارا ·· يضعون قلوبهم فوق أيديهم ولا يبالون بالسجون يغيبون فيها أو المشانق يعلقون على أعوادها ، وهيكل ليس ميسرا لجز الرقاب ولا لظلمات السجون ·· وهو ـ اذن ـ التطور البطىء الخطى والمأمون الجانب والمضمون النتائج ·· وقمـــة التطور ـ محاربة التخلف ·· والدعوة الى الاصلاح والتجديد ··

وبدأ هيكل دعوته الى الاصلاح ·· وكان صادقا فى دعوته ·· ولم يفتعلها افتعالا لتدرأ عنه السجون والمشانق ·· وانمـــا كان بطبيعته وتكوينه مصلحا اجتماعيا بكل ما تحمله كلمة الاصـلاح من المعانى ·· وطريقه مفروش بالورود ·· واذا قدر له يوما أن يكون مسئولا وقادرا على التنفيذ ·· انتقل بالاصـلاح من ميدان الدعوة الى ميدان التطبيق ·

الحرب العالميـــة

وفجأة أعلنت الحرب العالميـة الاولى ·· وفرضت الرقابة ·· وعطلت « الجريدة » نفسها ·· وشق علينا ـ والكلام هنا لهيكل ـ تعطيلها فاشتركنا مع الاسـتاذ عبد الحميد حمدى فى اصـــدار جريدة السفور وتحريرها وجاء طه من أوربا سنة ١٩١٥ واشـترك وايانا فيها وكنت يومئذ محاميا بالمنصورة أجىء الى القاهرة آخر كل أسبوع فأسهم فى تحرير السفور واصداره ·

هكذا مشت الاحداث بالمحامى الشاب ·· يحاول على قدر الجهد وفى نطاق الامن أن يؤدى واجبه فى ظلها حتى أعلنت مصر ثورتها الكبرى وقادها سعد وتألف الوفد وانشق العدليون وألفوا حزب

الاحرار الدستوريين من أبناء البيوتات الذين يكرهون المشـــانق والسجون · ويرتدون أحدث أزياء الوقار والحكمة والدهاء السياسى الهادىء عند التعامل مع المحتل ·· والعمل « مرحليا » على استرداد الحقوق على مهـل ·· وحقنا للدم ·· بدلا من الثورة العزلاء أو الرعناء أو الحمقاء على عدو مدجج بالسلاح مخمور بالنصر ·

تألف حزب الاحرار الدستوريين على هذه الاسس ·· أو على أساس من هذه الفلسفة وأصدر جريدة « السياسة » لســان حال له فى ٣١ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ولم يكن عجيبا أن يقع الاختيار على الدكتور محمد حسين هيكل ليرأس تحريرها ·· وان كنت أعتقـد أن لطفى السيد كانت له اليد الطولى فى ترشيح هيكل وتزكيته ·

وثبة رائعـــة

ولا يملك التاريخ الا أن يعترف بأن جريدة « السياســة » كانت فتحا جديدا فى عالم الصحافة ·· ووثبة رائعة تكتل عباقرة الشباب خلف رئيس التحرير الشـــاب حتى حققوها ·· بعد أن صـمدوا للعواصف الشعبية العاتية التى كادت تقتلع أوتادهم وتمزق خيامهم على حد تعبير البدو ·

كانت « السياسة » لسان حال الخوارج ·· بغيضة الى نفوس المواطنين ·· وكان الشعب يلعن بائعها وشاريها وكاتبها وقارئها وحتى العمال الذين جمعوا حروفهـا ·· ولكن المثقفين من القراء رأوا فيها ـ بقطع النظر عن المشاعر ـ جديدا لا عهد لهم به فكانوا يشترونها خلسة ·· وكان كل منهم يوارى هذا « العار » فى الجيب الخلفى من البنطلون حتى يعود الى بيته ويغلق على نفسه غرفة مكتبه أو غرفة نومه ويخفيها عن عين زوجته وعن عين الخدم وان كان قليل منهم من يفك الخط ·

ظاهرة غير مسبوقة صـاحبت جريدة « السياسة » من مولدها وكان شأن هيكل وصحبه معه ·· شأن الام التى حملت ســفاحا ووضعت وليدها ·· وأولته الحب كله فلن تستطيع أن تتخلى عنه فى مواجهة الاسرة والمجتمع ·

كان هيكل قد جمع من حوله أترابا له استكملوا دراساتهم مثله فى أوربا ·· وأوتوا من المواهب مثل الذى أوتى ·· وتشـوقوا معه الى ارساء الاساس فى جريدة نموذجية فريدة تحمل الى قرائها الى جانب السياسة باقات من العلوم والفنون والرسوم ومختلف ألوان الفكر ·· وكان منهم طه حسين ومحمود عزمى وتوفيق دياب والسيد كامل ··· الخ

وصمد عباقرة الشباب للمحنة واستطاعوا أن يحطموا من حول السياسة أسوار « العار » التى أقامها الشعب من حولها ·· عندما اشتدت الخصومة بين السعديين والعدليين فأصبح الحزب علما على الارستقراطية « الطبقية » وأصبحت الجريدة علما على الاستقراطية « الفكرية » فانحاز شباب المثقفين الى الجريدة ورفضوا الانضمام الى الحزب ونجحت الجريدة أكثر ممـا نجح الحزب ·· وعندما رأى هيكل ـ وكان عف العبارة فى المقال السـياسى ـ أن صحف الشعب اشتد ساعدها فى الهجوم على حزبه ·· قرر أن يريهم أن فى وسعه أن يحاربهم ·· وبدأ يعنف ·· فغضب عدلى يكن على ذلك التدهور ·· وأمر بالعودة الى عفة الاسلوب ·· ولم يستجب هيكل للامر ·· فاستقال عدلى عن رياسـة الحزب ·· وخشى هيكل أن يمشى به الانحدار السياسى الى الانحدار الثقافى فسارع الى الفصل بين السياسة والفكر وأصدر « السياسة الاسبوعية » ليحتفظ بولاء المفكـرين ·

حقـائق

ولتاريخ الصحافة يحسن أن نسجل لهيكل ·· عنايتـه برفع مستوى المندوبين ـ أو (المخبرين) كما كانوا يسـمونهم ـ فى مختلف الوزارات والمصالح ·· فحرص على أن يكونوا من حملة الشهادات العليا أو ما فى مستواها وكان « المندوب » ـ الى ذلك الوقت وباستثناء أفراد معدودين ـ مهيناً ·· بل كان « الصحفى » قبل الثورة ـ باستثناء أفراد معدودين أيضا ـ يسمى « جرنالجى » أو «مكاتب » حتى لقد ظل محمد محمود خليل يردد فى الاربعينات تلك التسمية المخجلة ويسمى الصحفى « مكاتبا » ·

ارتفع هيكل بمسـتوى « المندوبين » ولم يكن فى حاجة الى الارتفاع بمستوى الكتاب بعد أن تعاون معه أولئك الصـفوة من المفكـرين ·

وللتاريخ أيضا نذكر أن الجريدة الاخرى التى ارتفعت بمستوى العاملين فيها بعد هيكل ـ هى جريدة « الكشاف » التى أصـدرها عبود باشا مع الاختلاف فى الاهداف ·

هيكل الكاتب

كانت دراسة هيكل هى « القانون » ·· ومن الحق أن يقال أن لغة القانون كانت دائما تلقى ظلالها على أسلوب الرجل حتى بعد أن اشتدت الخصومة بينه وبين كتاب الوفد ·· ومن الحق أيضـا أن هيكل لم يكن من المتخصصين فى الادب (كطه حسين) ·· حتى

يشرع فى يده قلما قادرا على أن يدير الرؤوس ويبعث المشاعر ·· وحتى يجد فى الادبين العربى والافريقى معينا لا ينضب ·· ولم يكن هيكل اذن بليغ العبارة ·· وكانت (البلاغة) فى ذلك الزمن ·· تفعل فعلها فى النفوس ·· وتعتبر الوقود للثورة ·· وتعتبر السلاح فى الجدل ·· ولكنه ـ برغم ذلك النقص ـ كان موهوبا كما قلت ·· فلم يتخل الجمال عن أسلوبه ·· يحدوه منطق سليم وقدرة على الاقناع بل قدرة على التضليل ·· وكانت حروب الاحـــزاب تتطلب قدرا كبيرا من القدرة على التضليل ·

وكل هذه الميزات فيه لم تعفه من تشهير العقاد بمستواه اللغوى فكان يقول لنا ـ وهو كاتبنا الاول فى كوكب الشرق ـ كلما ذكر اسم هيكل : « ده مش كاتب ده عرضحالجى » ·

ويبدو أن هيكل قد شعر بهذا النقص فيه بعد أن كثر المتخذلقون فى ذلك الحين ·· ونشط وحيد الدين الايوبى للاتجار بهذه الحذلقة ·· وبكل بال فى بطون المعاجم ·· حتى لقد هاجم طه حسين نفسه وأسماه « الدكتور كان يكون » لانه قال مرة عن أحـــد الادباء : « كان يكون منطقيا مع نفسه لو أنه قال كذا وكذا » ·· ولم يكن غريبا اذن ـ أن يتصدى العقاد ـ وهو اللغوى القادر ـ لاسـلوب هيكل بذلك النقد اللاذع أو بذلك الوصف المبالغ فيه ·

أحس هيكل بذلك النقص فيه ·· فبدأ يعمل على تلافيه ·· وعكف على قراءة كتب الادب أو أمهات تلك الكتب ·· وكان يعهد بمقالاته الى بعض المحققين يصوبون أى خطأ فيها قبل أن « تجمع » وكان يتابعهم ويأخذ عنهم ·· حتى اختفت الاخطاء من مقالاته أو كادت ·· ولعل فى تزعمه لفئة من الفئات التى خاضت غمار الخلاف على اللغة العربية ـ الازهر ودار العلوم وكلية الآداب ـ ما يعطيك فكرة عن انشغاله باللغة ·

واشتد ساعد الخصومة بين الصحف ·· فلم تعد تبالى فريق المتحذلقين ·· فولدت لغة جديدة هى « لغة الصحافة » ·· وفى الوقت الذى كان وحيد الايوبى يباهينا فيـه بعملية النحت ويقدم لنا فخورا كلمـــة « الاحتقلال » منحوتة من كلمتى الاحتـــلال والاستقلال كانت اللغة الجديدة تغرق أسواق الفكر ·· بمصطلحات جديدة كالوصولية والنوالنفعية فاحتل هيكل مكان الصـدارة من اللغة الجديدة ·· وان كانت عنايته بالادب قد أفادته عندما عرض للتراجم ووضع مؤلفاته الخالدة ·

خط هيكل

وما دمنا بصدد هيكل الكاتب ·· وللتاريخ نذكر أن الصحافة لم تعرف فى تاريخها خطا أردأ من خط هيكل ·· ولا أعتقد أن أحدا ينافسه فى هذه الرداءة الا بعض الاطباء الذين يكتبون « روشتات » يحار فى قراءتها بعض الصيادلة المدربون ·· كذلك كان الامر مع هيكل وحار العمال فى قراءة ما يكتب ·· ونجح فريق منهم فألفوا مجموعة خاصة مهمتها جمع مقاله ·

ولقد قص على الاستاذ المازنى فى الاربعينات ·· أنه كان يرأس تحرير « السياسة » فى وقت من الاوقات ·· وكان هيكل قد سافر الى لبنان وتلقى المازنى أول رسالة منه خطابا خاصا بين صديقين ·· ولم يستطع المازنى أن يقرأ سطرا فيه ·· فاضطر على كره منه أن يطلب الى العمـــال المتخصصين ·· أن يعتبروا الخطاب مقالا وأن « يجمعوه » ويجيئوا له « بالبروفة » ليعرف ما فيه ·

وسرعتـه

وكان هيكل من أسرع كتاب « المقالة » فى مصر ·· وكان يعرف كيف يفرغ من المقال الخطير الذى يقض مضاجع الخصوم فى وقت قصير قد لا يجاوز الســـاعة أو نصف الســاعة ولم يكن يتطلب الا الجو الساكن ـ شأنه فى ذلك الجـو شأن عبد القادر حمزة ـ وهذا يعنى أن الرجل كان يعرف دائما أهدافه وكانت الافكار دائما تفيض فى رأسه ، تثب منه الى سن الريشة فى غير تعثر ·

وفى طريقـه

ولقد شق هيكل بعد تلك المعارك طريقه السياسى فى غير ضجة ·· واستطاع أن يكون وزيرا للمعارف ·· وأن يكون رئيسا لحزب الاحرار ·· وأن يكون زعيما للمعارضـة فى مجلس الشيوخ ·· وأن يكون رئيسا لذلك المجلس ·· وأنه « يتدهلز » الى هذه المناصب الرفيعة فى سكون لا يثير غضبا ·· وفى تواضع لا يثير حسدا ·· وفى وداعة لا تثير حقدا ··

وكان هيكل من الساسة القلائل الذين احتفظوا بأواصر الصداقة للكثيرين من خصومه السياسيين برغم كل ما خاضه ضـدهم من معارك ·· وفى تقديرى أن الرجل كان صـافى القلب زكى النفس يحترف السياســة بروح الرياضى ويخرج من المعارك باسم الثغر نظيف القلب ·

وقد يفهم بعض قرائى من ذلك العرض أن هيكل كان وصوليا ·· أو كان منافقا ·· حتى وثب من كرسى الصحافة الى تلك الكراسى ··

لم يكن هكذا أبدا ·· ورياسة الحزب لم تنته اليــه الا بعد أن فرغت من « العتاولة » عدلى يكن ومحمد محمود وعبد العزيز فهمى ·· ثم جاءت الى هيكل منقادة أو عاونها هو ببعد النظر على هذا الانقيـــاد ·

لم يهن هيكل ·· كان له رأى ·· حتى فى أيام عدلى ·· الذى ترك الحزب احتجاجا على عنف هيكل ·

وعندما ولى صدقى الحكم واختلف معــه الاحرار ورأى محمد محمود أن يتعاون مع الوفد فى مهاجمة صدقى رأى هيكل أن يظل الاحرار خصوما لصدقى لحسابهم ولكن الحزب ناصر رئيسه محمد محمود وخذل رأى هيكل وصدر بيان بذلك القرار ·· فرفض هيكل ·· بوصفه رئيسا للتحرير ·· أن ينشر قرار الحــزب فى جريدة الحزب ولم ينفذ الموقف غير نشر القرار فى (الاهرام) ·

وهيكل مع اعتزازه برأيه وكرامته ·· كان جم التواضع شعبى السمات ديمقراطى السلوك ولسان حال ــ وهذا هو العجب ــ لحزب البيوتات رموز الكبراء أصحاب الاقطاع معاقل الارستقراطية ·

وأرجو ألا أكون مخطئا اذا أنا عزوت تلك الصفات فيه ــ بعــد نشأته فى الريف ــ الى روح الفنان الكامن فى روحه ·· ولقد قلت عنه مرة يوم وثب الى ريـاســـة الحزب وكرسى الوزارة وزعامة المعارضة ورياسة الشيوخ ·· أنه أعاد الى ذهنى قصة بتروفسكى البولونى الذى رفعته عبقريته كموسيقى الى رياسة الدولة ·· وأن أكثر من وجه من أوجه الشبه بين هيكل رئيس الشــيوخ المصرى وهريو رئيس النواب الفرنسى فقد عرف كل منهما بالادب قبل أن يعرف بالسياسة ·· ووضع هريو كتابا عن بيتهوفن وكتب هيكل فصلا ضافيا لا ينسى عن بيتهوفن نفسه وكان هريو أحمدى البساط خصما للاناقة فى بلد الازياء ·· وكان هيكل يرتدى البدلة الجديدة فتعتقد أنها ترهلت من فرط قدمها ··

معــالى الوزير

أما صاحب المعالى الوزير محمد حسين هيكل فكان أعجب من هيكل الصحفى وهيكل السياسى ·

ولقد خيل الى أنه كان يخجل من المنصب الوزارى عندما أسند اليه ·· بسبب الجو الذى كان يحيط بالسياسى اذا وثب الى الوزارة ·

كان المألوف من أى سياسى أن تنتفخ أوداجه اذا ما عين وزيرا ·· وأن تتغير ملامح وجهه واشارات يديه وطريقة مشيته وأسلوب حديثه وأن يدخل الى قاعة النواب والشيوخ فى شىء من الكبر أو

التيه آخذا طريقه الى مقاعد الوزارة ترتدى شفتاه ابتسامة ساخرة مصنوعة أو يرتدى وجهه عبوسا لا داعى له ، أما هيكل الوزير فقد قلت عنه عندما عين وزيرا من ثلاثين عاما ·· أنه لتجه الى مقاعد الوزراء خجولا وما كاد يدنو منها حتى ارتد عنها ومال الى مقاعد المعارضة الوفدية وتبادل (الهزار) معهم بأكثر مما كان يفعـــل شيخا ·· وظل يمزح معهم حتى يستغرق العمل المجلس ·· وتنصرف الانظار والاذهان عنه ·· فيتسلل الى مقاعد الوزراء كأنه يستخفى من خطيئة ·· فاذا استقالت الوزارة وعاد هيكل الى مقاعد الشيوخ ·· فقد عاد الينا هيكل المتحرر من كل قيد ·

وهيكل البرلمانى

وقد يهمك أن تعرف شيئا عن هيكل البرلمانى أو عن رأيى كناقد برلمانى فيه ـ ومن حسن الحظ أنى لم أغير رأيى فيه منذ كتبت عنه فى سنة ١٩٤٢ حتى بارح الدنيا فى سنة ١٩٥٦ ـ قلت عنه بالحرف ما يلى :

« هيكل الذى عرفه قراؤه معارضا صحفيا لا يشق له غبـار قد عرفه النقد معارضا برلمانياذا أثر لا ينكر ·· ودعك من هيكل كخطيب يعتلى المنبر ويؤثر فى النفوس ويستهوى العقول ·· فليس لهيكل بلاغة الارتجال وليست له روعة الالقاء وليس لاشاراته أثر شيشرون وليس لمخارج حروفه حلاوة خاصة وليس له ـ وهذا هو المهم ـ عينان قويتان لارسال النظرات النفاذة ذات الايحاء ·· لان الرجل ـ من كثرة ما كتب أو قرأ ـ **يشكو دائما من عينيه ويحجبهما فى** كثير من الاحيـــان بمنظار ·· ليس له اذن من مميزات الخطيب نصيب ، ولكن له عوضا عن هذا كله قوة العارضة وسلامة المنطق والاعتداد بأدلته والاصرار عليها وعدم مبالاته بالضجيج الذى يثيره خصومه من حوله ·· وشجاعته التى أتاحت له يوم كان للوفديين أغلبية متماسكة أن يواجهها وحده وأن ينازلها فى الميـدان الذى اختارته فمـــا تردد وما نكص وما أضاع عليه الغضب فرصـــة وما أفسدت مناورات خصومه خطة ·

فاذا عدت الى المضابط فاقرأ له « موقفه عن مشروع قانون منع التجسس وكيف أنقذ حـــرية الرأى من خطر لم يكن أغلب الظن مقصودا حين نصت المادة الثمانون من القانون على عقاب (كل من اذاع عمدا أخبارا أو بيانات أو اشاعات كاذبة أو مغرضـــة أو عمـد الى دعايات مثيرة وكان من شـــأن ذلك الحاق الضرر بالاستعدادات الحربية أو القاء الرعب بين الناس أو اضعاف الجلد

فى الامة ٠٠) نبه هيكل الى أن امتداد هذه الاحكام الى أيام السلام مخالف للدستور وهدم لاقدس أركانه ٠٠ ركن حرية الرأى التى تجيز للكتاب الدعوة الى السلام فى أيام السلام بل تفرضها عليهم فرضا ٠٠ أبلى يومها هيكل وحده بلاء حسنا فحول المجلس كله الى صفه وأدخل على المادة التعديل الذى اقترحه ٠

وهيكل الآخـــر

وهناك هيكل آخر ٠٠ أهم وأخطر وأبقى وأخلد من هيكل السياسى والوزير والرئيس والزعيم ، هناك هيكل المفكر وهيكل المؤرخ وهيكل المترجم وهيكل المسلم وهيكل المصلح ٠

وقد يستلزم الحديث عن « هيكل الآخر » حيزا أكبر من الحيز الذى شكله الحديث عن هيكل رجل الدولة ٠٠ بيد أنى أعتقد أن هيكل المفكر ينبغى ألا أشير اليه لان ثمار فكره مطروحة دائما وستظل مطـروحة ٠

وهيكل ـ بكل مناصـبه ـ شأنه شأن السـياسى ـ قد انطوى بساطه ٠٠ أما هيكل المفكر فهو يعيش بيننا بمؤلفاته ٠٠ فالحديث عنها يمكن أن يوجز ٠

وهيكل فى حقيقته مفكر ٠

كان يخوض المعارك على صفحات الجريدة أو فى مجلس الشيوخ ٠٠ وكان فى بيته يقرأ ويكتب ٠٠أشياء أخرى ٠٠ ولما طلع علينـا بها ٠٠ دهشنا لجانب منها وأعجبنابجانب آخر ٠

أعجبنـــا بكتابه عن (جـان جاك روسو) و (تراجم مصرية وغربية) وكتاب (ولدى) و (فى أوقات الفراغ) و (عشرة أيام فى السودان) و (ثورة الادب)وكلها ترمى الى اصـلاح المجتمع ٠٠ كلها تشبع رغبة شبابه العارم التى توارى زمنا أمام أعاصير السياسة وفيها نزوع الى التراجم ودراسة الشخصيات التاريخية ذات الاثر ٠

ولكن أحـدا لم يتوقع أبدا أن تسلمه هذه النزعة الى الروعة المذهلة التى خلدته تخليدا يوم وثب الى شمس الاســلام الكبرى والاقمار التى تدور من حولها ٠٠ الى « حياة محمد » و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » و (فى منزل الوحى) ٠

سر هذه الوثبة

وهنا يجمل بنا أن نتروى ٠٠ فما جلا لنا ناقد حتى اليوم سر هذه الوثبة الكبرى ولا أرانى قادرا على أن أجلوها او أجليها ٠٠ وانما أحب أن أطوف مع القراء بها ٠٠ وأن نحاول أن نحوم من حولها ٠

لم يكن هيكل معروفا بالتدين ولا قال انصاره انهم رأوا يوما

سجادة الصلاة تحت قدميه ·· بل لعل شانئيه قد قالوا فيه بعض ما قاله مالك فى الخمر فنسبوا اليه أنه قارف كذا من المكيفات وكذا من المغيبات واستشهدوا ببعض السعال الذى كان يعتريه وبعض الاختناقات التى كانت تخالط صوته اذا غضب ·

وأعتقد أن الرجل برىء من كل ما نسب اليـه ·· واذا كان له نصيب من بعض ما قالوه لا يجاوز المنزلقات التى يتعثر فيهـا كل فنـان ·

اذن ما قصة الاسلام معه ؟

كان هيكل يهوى التراجم أيام دراسته فى أوروبا ·· وسـاءه عبر قراءاته أن يشوه بعض المستشرقين أبطال الاسـلام تشويها يتراءى لبعض القراء حقائق ·

وأراد هيكل أن يعرف وجه الحق فى تلك الاتهامات ·· فعكف عبر حياته السياسية الطويلة على التاريخ الاسلامى وعلى التراث العربى ونهل منهما ما طاب له ·· ودهش ·

دهش لهذه الامجاد كيف توارت عن الشباب ·· ودهش لجلال هذه الشخصيات كيف لم ترسل نورها على العالم الغربى المعادى وكيف لم يوجد الكاتب الذى يبدد أباطيل المستشرقين بلغـة عصرية يعرفها أبناء هذا الجيل ·

وفى تقديرى أن هيكل أكب على هـذه الشخصيات ·· وأحب أصحابها وعاش تاريخها ·· وانجذب اليها وفنى فيها فودع ماضيه الفكرى كله واستهل فى ظلالها حياة جديدة ملأته أمنا وسلاما ورضى ·· ورأى فى كل ما فعله أو كتبه صحفيا وحزبيا ووزيرا وسياسيا ·· لغوا لا خير فيه اذا قورن بهذه الدوحة الجديدة الوارفة التى بدأ يتفيأ ظلالها ويستنشق عبيرها ـ ويرى فيها أو من خلالها نورا يسعى به ويهديه الى الحياة الروحية الراضية ·

وفى تقديرى أيضا أن الرجل كان على استعداد بطبيعته لهـذا التحول ·· فهو مفطور على المرونة وعدم التعصب لشىء بعينه الا اذا قام الدليل على جدارة هذا الشىء بالانحياز له أو الايمان به ·

وفى تقديرى أخيرا أن هيكل رأى فى الثراء الانسانى لحيـاة الرسول ما يغنيه عن الثراء العقائدى الذى قامت عليه الكتب القديمة الصفراء ومكن للمستشرقين من السخرية بنا والافتراء علينا ·· وهيكل درس التراجم الغربية كما ينبغى أن تدرس ودرس الاسلوب الحديث الذى ينجح فى اقناع القارىء المعاصر ·

حيـــاة محمد

وشخصية الرسول ·· صلوات الله عليه وسلامه ـ كانسان أو كبشر لا أقل ولا أكثر ـ تكفى وحدها لان يرفعها هيكل قبل العيون وعلى المستوى الحضارى وبالاســـلوب العصرى ·· ليؤمن كل من يراها بأن البشرية لم تجد على بنيها بنموذج خير منها فاذا ماستطاع هيكل أن ينتهى بالقارىء الى الايمان بمحمد الانسان ·· ووصـــل بين حياته كانسان وخصائص النبوة فيه استوت هذه الشخصية اشراقا لا عهد للبشرية بمثله ·

وفوجئنا بالكتاب الخالد « حياة محمد » ·

وبعد الرســـول

وفوجئنا بأبى بكر وعمر ··

واهتز العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه أمام هذا الفتح ·· وهز اقباله وجدان الرجل فعجب كيف لم يزر محمدا فى مثواه أو روضته ·· فشد الكاتب الرحال الى مدنية الرسول ·· ثم الى مهبط الوحى ·· وعاد بالنفحة الكبرى « فى منزل الوحى » ·

وشجاعة المؤمن

ويخيل الى أن الصفاء الروحى الذى واكب حياة هيكل السياسى فى سنواته الاخيرة كان ثمرة للصفاء الروحى الذى تنزل عليـــه فى منزل الوحى ·

ولعل القراء يذكرون شجاعته بعد أن قامت ثورة ١٩٥٢ وحوكم بعض الساســـة القدامى وتسابق الشهود « الكبار » من مختلف الاحزاب والاتجاهات الى الصاق التهم بكل متهم فكان هيكل هـــو السياسى الشجاع الذى أدلى بالحقائق ·· وكان السياسى الشجاع الذى نفى كثيرا من التهم التى وجهت الى رجل كان يوما الخصـــم الرهيب لهيكل وحزبه ·· وكان مثوله أمام محكمة الثورة فرصة لهيكل يثأر من خصمه عبرها شأنه شأن كل شاهد ·

ولكن هيكل كان قد أمسى مسلما ·· وكان قد أصبح عظيما ·· ولم يعد بافتقار الا الى الله ·· ولم يعد يعنيـــه شىء من زخرف الحياة ·· خرج من الظلمات الى النور ·

عباس محمود العقاد

ما أزال

تحت « قبة البرلمان » القديمة مستويا على كرسى الناقد البرلمانى القديم ·· تملى على قلمى أسماء فريق ممن أظلتهم غير عابىء بما يقرب من تسعة عشر عاما مرت على آخر جلسة عقدت تحت تلك القبة· ومن تحت هذه القبة يطالعنى ـ فى اتجاهى الى قادة الفكر ـ اسم عباس محمود العقاد عضو النواب ثم عضو الشيوخ كما طالعتنى أسماء أحمد حافظ عوض وعبد القادر حمزة ومحمد حسين هيكل وأنطون الجميل ممن أظلتهم هذه القبة ·

وفى تقديرى أن الكتابة عن العقاد أشق من الكتابة عن بقية الزملاء ·· فهى تحاول دائما أن تخرجنى من تحت هذه القبة الى خارجها ·· لان اسم العقاد ارتبط طوال حياته بمعارك ضارية كان هو الطرف الاعنف فيها ·· وكان الكثيرون من الاعلام وجملة الاقلام ممن لا علاقة لهم بالبرلمان أطرافا أخر ·· فى تلك المعارك ·· واذن فكل الحديث أوجله عن العقاد الكاتب لا عن العقاد النائب ·· وان كانت نيابته قد أعطتنى جواز المرور الى العقاد الكاتب والعقاد الشاعر والعقاد الانسان ·

العقاد المحارب

واذا ذكرت المعارك ـ أى معارك ـ تبادر الى الاذهان اسم العقاد فحياته كلها عراك ·· ويبدو أن العناية هيأته للقتال قبل أن تهيئه لاى صفة أخرى من صفات الرجال ـ وهو شعور لا غرابة فيه حتى

على مستوى الابطال فى الحروب ·· فنابليون بونابرت اذا ذكر اسمه أمامك أنت الملم بسيرته وتاريخه ·· توارى عنك كل جهد له فى مجال العلوم والفنـون ·· وتوارت عن ذاكرتك كل جولة من جولات الحب والزواج ·· ولم يخايلك من تاريخـــه غير الجانب العسكرى منه ·· وغير الغزوات التى قام بهـــا ·· وغير فنون الحرب التى ابتدعها فتلقتهـا الكليات العسكرية من بعده قواعد وأصولا ·· لابد للطلاب فيها من أن يدرسوها ·

والامر هكذا بالنسبة للعقاد فى ساحة الفكر ·· وفى دولة الشعر والنثر ·· وفى مجالات السياسـة والصحافة ·· بل الامر هكذا بالنسبة لكل ما مارس من شـــئون الحياة وفى كل ما عاناه فى عالم الحب والعاطفة ·· فقد عاش حياته فى كل هذه الســاحات جنديا شاك السلاح ·· يطالب دائمـــا بحقه فى القيادة فاذا لم تسلس له ·· حارب وحده وتحت راية شخصه ·

ولو أن الاقدار التوت بالعقاد عن المدارس الفكرية الى أى كلية من الكليات العسكرية واستبدل بالبدلة والطربوش والكوفيـة ·· زى الجندى والمعدات العسكرية لطالعتك منـه كل خصائص الغزاة ·· ليبدو أمامك بطلا من أبطال الحروب ·· بالمنكبين العريضين ·· بالطول الفارع ·· وبالذراعين الطويلتين وبالقامة الباســقة وبالنظرة المتعالية وبالخطى المسموعة ·· وبالثقة التى لا حد لها تنتهى اليه ·· وبالتحفز للهجوم يطل عليك من عينيه المليئتين بالحزم والاصرار والعناد والاعتداد ·

العقـاد والمازنى

وأدع القبة جانبا لاقول شيئا عن العقاد والمازنى ·· وأدعهـا مكرها لان المازنى لم يكن يوما نائبا ولا كان شيخا ·· وأدعها مكرها وقد ركزت على العقاد الذى أوتى بسطة فى الجسم ·· فخفت أن يتبادر الى الاذهان اسم المازنى القصير الضامر ·· وقد تلازم الاثنان زمنا واقترن الاسمان بالاذهان كما يقترن بها التوأمان ·· فرأيت أن أبادر بكلمة عن الصديقين قبل أن يبعدنا عنهما الحديث عن القبة والبرلمان ·

والواقع أن الطبيعة خالفت بين الاثنين فى الخلق والابداع فجاء المازنى ـ على النقيض من العقـاد ، خفيف الظل باسم الثغر ·· ضئيل الحجم ·· ضامر العود يملأ منك الكف قبل أن يملأ العين ·· يتواثب فى الخطو كأنه الطفل ·· ويعانى العرج بسبب حادث وقع له ·· وفى عينيه نظرة نافذة تسبر الغور ·

وصحيح ـ وعلى الرغم من هذا التناقض ـ انك اذا رأيت أحدهما فى أى مكان وثبت الى ذهنك صورة الآخر وتعذر عليك ابعاد الذهن عن تلك الصورة ٠

وفى تقديرى ـ وللاقدار حكمهـــا وحكمتها ـ أن القدر خالف بينهما فى الخلق على هذا النحو ليعطيك من هذا التناقض الجسدى الصارخ تكاملا غير مسبوق فى تاريخ العباقرة ٠٠ يثرى هواة البحوث اذا طاب لهم أن يبحثوا مثل هذه الظاهرة ٠٠

ومع ذلك ٠٠ فان الاقدار بعـد أن سنحت لهـواة البحـــوث بهذا الطراز الغريب عادت فاستردته فى غير ضجيج ٠٠ ولم يعش هذا التلازم أكثر من عشر سنوات أو تزيد قليلا ٠٠ والعجيب أن أحدا ـ حتى من هواة البحوث ـ لم يتنبه على هذه اللعبـــة من جانب القدر ٠٠ وظلت الصـــورتان متلازمتين فى الاذهان ٠٠ حتى الآن ٠

تلازم ٠٠ وتباعد

ولقد أتيح لى أن أعمل مع الاثنين فى شـــبابى فشرفت بزمالة العقاد وأنا فى العشرينات وكان هو قد تخطى الاربعين فى جريدة (كوكب الشرق) ٠٠ ثم التقيت به مرة أخرى فى (البلاغ) وكنت فى الثلاثينـات ٠٠ وكان هو قد تخطى الخمسين ٠٠ وقد التقى أخيرا بالمازنى فى هذه الفترة ـ حيث جمعت « البلاغ » بينهما بعد طول التنـــائى وكان المازنى يقارب سن العقـــاد ولكن كان قد اشتعل رأسه شيبا برغم مرحه فبدا أكبر من سنه ٠

ولم أستطع أبدا أن أكون صديقا للعقاد ٠٠ فقد كان مفرطا فى الاعتداد بنفسه وبحق وكنت معتدا بنفسى ـ الى حد ـ وبغير حق ٠٠ وكان كل ما ظفرت به شيئا من الود أرده الى عنايتى بمقاله اذا اعتراه التعب وتخلف عن الحضور الى الكوكب فأقوم بتصحيح المقالة أو أرده الى عنـايتى بمقاله من حيث (الاخـراج) وكنت يومها سكرتيرا للتحرير ٠

وعندما التقيت به فى (البلاغ) ـ بعد عودته اليه وكان ذلك فى سنة ١٩٣٨ كانت حبال الود بينـه وبين المازنى قد رثت على مر الزمن ٠٠ وكانت قصة التلازم الذى دخل التاريخ جامعا بين الاخوين ٠٠ قد توارت خلف أبواب التاريخ ٠٠ وتاهت فى منعطفاته ، وكانت نظرة المازنى الى شبابه مع العقاد قد اتخذت لهـا مسارا غير مسارها القـديم ٠٠ وكنت أحس بشىء من المرارة تجاه ذلك التاريخ يعاود المازنى بين الحين والحين ٠٠ تخفيه فلسفته الساخرة

وبسماته الراضية وانصرافه عن « أمجاد الحياة » انصرافا صوفيا غير مفهوم ، ولم أستطع رغم الصداقة الخالصة التى شرفنى بها المازنى أحد عشر عاما ـ والى آخر يوم من حيـاته الغالية ـ أن أعرف أسباب تلك المرارة ·· وان كنت قد استطعت أن أحزر وأن أخمن ·

كان العقاد قد وثب الى الصدارة فى الصحافة وفى السياسة ·· وكان الناشرون الذين لم يبالوه ـ أو لم يقدروه ـ عبر الشـباب وعبر الكفاح والضنى والعذاب قد عادوا يحتفلون بأى انتاج أدبى له ـ شأن الاخلاق فى الاسواق ـ بل يحكمونه فى كل ما يعـرض عليهم من « بضـاعة » المؤلفين الآخرين ·· وسعت « المكتبـة التجارية » ـ رحم الله صاحبها الامى الداهية ـ الى احتكار العقاد فأفردت له كرسيا فيها يباشر فيه مهام الفكر ·· ويتخذ من المكتبة مقهى وندوة ·· ومكانا للراحة ومكانا للحلاقة ·· ومطعمـا اذا طاب له أن يتناول طعامه فيها ·· وأصحابها من حوله خـدم له أو كالخدم وفى الجزء الاخير من حياته انتقل كرسيه الى « مكتبة الانجلو » بعد أن زالت دولة « المكتبة التجارية » ·

كان العقاد قد وثب الى الصدارة فى الصحافة والسياسة ·· وكان يتقاضى أكبر مرتب فى الجريدة التى يعمل فيها وكان محل الرعاية والاكبار من الحزب الذى ينتمى اليه وكان له من البرلمان مكافأته وكانت كتبه ـ بدءا من العبقريات ـ تدر عليه دخلا طيبا ·· وأمسى فى شيخوخته شابا بعد أن لاح لنا شيخا وهو فى شرخ الشـباب ·

أمسى ـ وهو يمشى الى الشيخوخة ـ شابا كما قلت فبرىء من مرض الصدر الذى كان يشكو منه فى الشباب لاسباب لا أسـتبعد أن يكون منها نقص الغذاء ·· أمسى شابا أو كالشاب وبدأ يمارس شئون العاطفة ويشتد عنفه فيما يثير من الحروب وتخف اليـه الاذاعة والمجلات هذه تطلب منه مقالا وتلك تجرى معه حديثا والاجر كبير والمقام محفوظ ·

كان هذا هو حظ العقاد أو حقـه بعد الاربعين أو بعد الثلاثين ببضع سنين وبعد حياة مفعمة بالكفاح والمرارة ·· فماذا كان حظ زميله المازنى ·· فى تلك الفترات نفسها ؟

كان قد نفض يده من ثورة الشباب ·· ومن صداقة العقاد ·· وفلسف حياته على نحو يرضيه ·· فزهد فى مغريات الحيـاة ·· وسخر من كل صنوف الامجاد ·· وعاف كل ما خاضه من الحروب

مع العقاد وأنكر على نفســـه ـ وهو الشاعر الفحل ـ أن يكون شاعرا ·· بل أنكر شعرا له منشورا ودواوين له مطبوعة ·· وكل رأى أبداه فى الآخرين ·· وكان يعمل فى الصحف (ليأكل الاولاد) ·· وكان يسخر أيضا من كل ما يسمونه المبادىء والاحزاب ·· ولا يرى فيها الا مسرحيات يمثلها أبطالهـا على خشبة البلد ·· ليثرى من يثرى ويستوزر من يستوزر ·· وتفاقم الشعور فيـــه بالسخرية حتى جنح أخيرا الى السخرية من نفسه وحياته وماضيه وجنح الى الاسلوب القصصى يسرى به عن نفسه أو يتنفس فيه ·· واحتفظ للمقال السياسى بالقلم المقنع والاسلوب الممتع ·· كمـا يحتفظ النجار بالفارة والمسمار والمنشار ليصنع لكل عميل مايرغب فيه من نوافذ أو مناضد أو مقاعد أو أبواب ·· وليأكل الاولاد ·

واعترفت بعد كل ما ربط بينى وبينه من ود يرقى الى مرتبـــة الحب انى عاجز ـ حتى الآن ـ عن عرض وجهة نظره فى الحيـاة ·· لقد أحسست بها وتصورت أحيـانا أنى فهمتها ·· وثبت لى أخيرا ·· أنى مازلت كما كنت جاهلا بها ·· ولا تزال كما كانت أكبر من قدرتى على فهمها ·

وحديثى عن هذه المرارة فى أعماق المازنى ·· لا يعنى أن أترجم للمازنى وانما أنا هنا لاترجم للعقاد ·· وأطمع من وراء هـــذه المحاولة أن أرى (من خلال المازنى) أشياء فيه ·· لم يهتد اليها الذين كتبوا عنه ·

الفرســان الثلاثة

وما أزال أواصل الابتعاد عن القبة ·· وأرانى مشدودا ـ على كره منى ـ الى البحث عن العقاد فى أى مكان ·· ومن غير قيد ··

والحديث عن العقاد والمازنى ·· يجرنى حتما الى الحديث عن الثالث ·· فلم يكن المازنى وحده رفيقا للعقـاد فى الشباب ـ بل كانوا فرسانا ثلاثة ·· وكان الثالث زعيما لهما ـ وأكثرهم نضجا وأوسعهم اطلاعا ·· وأروعهم شعرا وأقدرهم على التجديد بعد أن استكمل دراسته فى انجلترا وعاد منها مليئـــا ·· وأعنى به عبد الرحمن شكرى ·

وهدفى من الوقوف عند هذا « الثالوث » ·· أن نجد فيه بعض الاضواء نلقيها على ما خفى من العقاد ·

لقد كانت هناك أحداث جرت على كل شاب منهم قبل أن تنعقد أواصر الود بينهم وقبل أن يقيموا « مدرسة الديوان » التى هزت دعائم المجتمع الفكرى فى ذلك الزمن ·

ولقد كان عجيبا أن تتوثق عرى الود بين المازنى والعقاد وكان أليق بهم أن تتوثق بين المازنى وشكرى ·· فالاثنـــان تخرجا فى « مدرسة المعلمين العليا » ·· والاثنان يقولان شعرا ·· والاثنان ثقافتهما انجليزية ·· والاثنان أقرب الى التماثل فى الطباع أو فى « الانطواء » والبعد عن الاقدام أو الالتحام ·

ولعل وجهين آخرين من أوجه الشبه بين الاثنين يستحقان التسجيل ·· الاول : أن كلا من الصاحبين ميال بفطرته الى فضح نفسه قبل أن يفضح الآخرين وهو طريق سلطانى يلوذ به طلاب السلامة من المفكرين ليستروا به عجزهم عن طلب الصـدارة وحروب البطولة ويأباه أهل الكبرياء وأنصار القتـال ·· والفارق بين الاثنين فى هذا المجال أن شكرى بدأ حياته بهذا اللون وأن المازنى اختتم حياته باللون نفسه ·· والفارق أيضا أن شكرى قد عرى نفسه هذه التعرية فى سنة ١٩٠٩ وكان شابا فى العشرين من عمره ·· وفى صورة « الاعترافات » كتاب تأثر فيه على ما يلوح بجان جاك روسو وأمثاله ·· وأن المازنى جنح الى تعرية نفسه بعد أن بلغ الكهولة أو الرجولة فى صورة نقدات ساخرة لنفسه وبيئته ونشأته وأسراره يضـحك منها أو يسخر ·· ويشترك القراء معه فى الضحك أو فى السخرية ·· وفى نقدات أقرب ما تكون الى « الاعترافات » ·

أما الوجه الآخر من أوجه الشبه بين الاثنين فهو مولد شكرى فى الاسكندرية فى أسرة يزدهر فيها الادب وتموج مكتبة أبيه بعيون المخطوطات والمطبوعات ودواوين الشعر وتحفل دار أبيه بالاصدقاء من رجال السياسة والفكر فى مقدمتهم عبد الله النديم ·· ومولد المازنى فى أسرة « مستورة » ومن الطبقة الوسطى ليجد فى بيت أبيه مكتبة عامرة نماها هو ·· حتى أمست مكتبة يتباهى بها ·

وقد تكون هناك ملاحظة أخيرة قد يضعف أثرها أن العقاد شارك الاثنين فيها ·· ولكن الفارق يظل أيضا قائما بينه وبينهما ·· وهو حرفة التعليم أو التدريس التى احترفها الثلاثة فالمازنى عين بعـد تخرجه مدرسا فى السعيدية الثانوية بحكم مؤهله العالى ·· وعاد شكرى من انجلترا مدرسا ممتازا بمؤهله الاعلى ·· أما العقـاد فتولى التدريس فى المدارس الثانوية لقدرته الذاتية ·· وبعد كفاحه الطويل فى تثقيف ذاته ولم تكن هناك قوانين تضع أى قيـد على هذا النوع من المدارس ·· ومع أن العقاد فى هذه الناحيـة أولى بالتقدير ـ ومؤهله الشهادة الابتدائيـة ـ من الاثنين ومؤهل كل منهما عال وأعلى ·· الا أننا نبحث الآن أوجه الشـبه ولا نبحث

مواطن التفوق أو مقاييس التقدير لنثبت أن عرى الود كان أولى بها أن تتوثق بين شكرى والمازنى ·· ولكنها توثقت ـ برغم أوجه الشبه بينهما ـ بين المازنى والعقاد ·· بين اللذين خالفت بينهما الاقدار ·· حتى فى الخلق والتكوين ·· والتحم المازنى بالعقاد كل الالتحام ولا أقول أنه استسلم كل الاستسلام ·· وانتهى الالتحام بينهما الى تكتل الاثنين ضد الثالث أو ضد الرائد ·

وقد يكون صحيحا أن مدرسة الديوان قامت بالثورة الشعرية الجديدة على الاوضاع القديمة فى سنة ١٩١٣ عندما صدر الديوان الاول لشكرى ·· وتلاه ديوان المازنى ثم تلاهما ديوان العقاد فى سنة ١٩١٦ ·· ولكن الاصح أن تلك الفترة ·· شهدت مولد الثورة على القديم والدعوة الى التجديد أو الى المذهب الجديد على يد أولئك الفرسان وقدمت نماذج من الشعر لا عهد للبلد بها قبل أن تقدم على مهاجمة شوقى رأس الشعر القديم ·· والاصح أيضا أن شكرى كانت له دواوين بدأ يصدرها من سنة ١٩٠٩ وقبل مولد هذه المدرسة وأخذت دواوينه تتوالى حتى فرغ من آخر ديوان له على مشارف الثورة السياسية فى سنة ١٩١٩ فهل أكلت الغيرة قلب العقاد ·· وانتقلت العدوى الى قلب المازنى بسبب هذا الفيض فى الانتاج أم أن هناك أسبابا أخرى لم يحدثنا التاريخ عنها حديثا يبرىء ساحة العقاد والمازنى من تهمة التآمر على شكرى ·· لست أدرى ·

وكل الذى أدريه ـ من خلال مطالعاتى ـ أن العقاد والمازنى أصدرا كتابا أسمياه « الديوان » يهاجمان فيه زميلهما ·· وافتتح المازنى الحملة على شكرى بمقال نارى عنوانه « صنم الألاعيب » وتوالت الحملات ·· ولم يصدر من الكتاب الذى أعلن أنه : كتاب فى النقد والادب يتم فى عشرة أجزاء غير جزأين اثنين ·· تناول العقاد والمازنى فيهما شوقى والمنفلوطى والرافعى وشكرى ·· وكان أعجب ما قالاه فى المقدمة أن مهمة الديوان « اقامة حد بين عهدين ما يسوغ اتصالهما والاخلاط بينهما » وان التاريخ مضى « بسرعة لا تتبدل وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناما عبدت قبلها » وكان أعجب من قولهما هذا ··ادخالهما شكرى رائد الاثنين ـ أو شريكهما فى التجديد والثورة ضمن عهد رجعى قديم حافل بالاصنام خليق بالهدم ·

هذه الكارثة الخلقية ·· هل يفيدنا طرحها والبحث فيها ·· فيما نحن بسبيله من رسم شخصية العقاد ·

أعتقد أنها مفيدة أو أنها تهدينا الى مفتاح شخصية العقاد ·· ومفتاح الشخصية أهم أدوات البحث فى الباحث ·· وفى وسعه أن يدير المفتاح فى الباب ويدخل ·

مفتاح شخصيته

وفى رأيى أن « الصدارة » هى مفتاح شخصية العقاد ·· سمها الصدارة أو الزعامة أو الغلبة أو السيطرة أو الاستعلاء أو التفوق ·· ومع أن هذه المترادفات لا تؤدى معنى واحدا وأن بينها فروقا دقيقة ·· فان خيطا يجمع بينها ويحمل لنا المفتاح الذى نبحث عنه ·

ولقد أضفيت على « الصدارة » كل هذه المترادفات ولم أسمها « القتال » وان كانت قد أسميته هو « المقاتل » ــ ذلك أن كثيرين من قواد الحروب هواة للقتال يمارسون الهواية اشباعا لها ·· لا بحثا عن ثمارها ·· حتى اذا انعقد لاحدهم لواء النصر ·· تخلى عن الطريق للامبراطور أو الملك أو الامير أو الحاكم ·· ليجنى ثمار انتصارات القائد ·· أما العقاد فكان يقاتل فى سبيل اعلاء ذاته واعلان سلطانه ·· وكان من حق طبيعته عليه أن يكون « نرجسى الاتجاه » فى قتاله ·· وأن يولى نفسه كل حبه ·· وأن يعلو بها الى الذروة لاكثر من سبب وبأكثر من دافع وحافز ·· فالدم الذى يجرى فى عروقه من ناحية أبيه دم صعيدى ·· بل أسوانى ·· والمواهب التى أوتيها كان من حقها أن تشق طريقها فى و جه مجتمع وضع أمامها السدود بغير حدود ·· والجهود التى بذلها فى تثقيف نفسه كانت جهودا خارقة ومن حقها وقد استوت على سوقها وحملت ثمارها أن تثأر لنفسها ·· والامراض التى تكالبت عليه وتكاتفت على هدمه وحاربها ببسالة وقرأ الطب ·· لمواجهتها ·· حتى انتصر عليها ·· هذه المعارك أورثته تشبثا بالحياة وتعاليا على الاحياء ·· وحدة فى الشعور بالكرامة الشخصية ·

الصدارة اذن مفتاح شخصية العقاد والصلابة درع من دروعها ·· أما المازنى ــ والرجوع اليه هنا محتوم ــ فرجل رقيق الحاشية لطيف المعشر ضئيل الحجم ·· وكل هذه الصفات فيه دروع لطبيعة الانطواء فيه يقابلها عند العقاد شموخ وكبرياء وتعال على الكبرياء ·· ومن أدوات الوداعة عند المازنى الطفولة والشغب والفكاهة والسخرية والمجاملة والبساطة ·· وما أسهل اذن أن يطوى العقاد العملاق طفله الصديق ·· أو صديقه الساخر ·· وأن يستعدى الشغب فيه لتسليطها على الآخرين ·· ولو من باب الوفاء للصديق

العملاق ·· وهكذا كان من نصيب المازنى أن يفتتح الحملة على شكرى بمقال « صنم الألاعيب ·· ووقف العقاد يتسمع للصدى القريب والبعيد ·· ويقتفى أقدام المقال على الطريق الشائك قبل أن يأخذ هو الزمام من صاحبه ·

ولقد عنيت العبارة وأنا أسمى الواقعة بالكارثة الخلقية ·· لا من حيث الدوافع أو الاسباب وما أزال أجهلها ولكن من حيث النتائج التى أسفرت عنها ·· عنيت العبارة وفى يدى القرينة ، ذلك أن المازنى قد اكتشف الحقيقة بعد فوات الوقت ·· وأدرك أنه كان « كبش الفداء » فى معارك العقاد ·· وتوالت الاحداث تؤكد هذه الحقيقة الرهيبة فغص بها وقنع بالصمت أو بالكبت بدلا من الثأر ·· ورأى أن الثورة لابد منها بعد أن ضاق بالصمت أو بالكبت ·· وهو غير مهيأ للثورة على العقاد ·· والخير اذن أن يثور المازنى على نفسه ·· وثار على كل شىء فيه ·· وعلى كل الزيف الذى يجرى من حوله فى الحياة فالتحق بكل ألوان الصحف (ليأكل الاولاد) ·· وأعلن فى سنة ١٩٣٠ ـ وهو الشاعر الكبير ـ أنه ليس شاعرا ·· وأنكر كل بيت قاله أو نسب اليه ·· بل أنكر كل حملة شنها أو شارك فيها على شوقى أو حافظ أو المنفلوطى أو شكرى ·· وابتسم العقاد ورضى عن هذا الانسحاب ·· وتفرد بمدرسة الديوان ·· ليكون علما عليها ··

ولم يفت العقاد أن الثبات على المبدأ من صفات العمالقة ·· فثبت فى غير تردد على مبدأ الوفد ·· ولم يكن فى هذا الثبات منافقا ولا تاجرا ·· وانما كان صادقا وكان مقاتلا ·· ووجد الراية الوحيدة التى يرضى أن يمشى تحتها فمشى تحت راية سعد ·· وكانت أسواق الفكر قد ركدت تحت هدير الثورة ·· فركب العقاد ـ كما ركب كل الادباء ـ هذه الموجة العالية فلمعت أسماؤهم ·· ورددت الجماهير هذه الاسماء وكان العقاد فى الصدارة ·· بعد أن أسماه سعد (الكاتب الجبار) ·· وانهارت الجسور فى تلك الفترة بين الكاتب الصحفى والكاتب الاديب ·

ولكن شكرى ·· ما مصيره بعد ائتمار الصاحبين به ؟

لقد اتجه العقاد فى بداية الثورة الى (الاهرام) محررا من محرريها ·· واتجه (المازنى) الى (الاخبار) واحتل مكانا مرموقا فى النضال السياسى ·· واستخدم الاثنان مركزيهما الجديد فى هدم شكرى ·· والعقاد أعرف الناس بأن شكرى لا يخوض قتالا ·· وأن كلمة جارحة توجه اليه تملأه تقززا ونفورا ·· وتهبط به

الى ظلام المخابىء ويرفض بعدها أن يرى نورا ·· وهكذا اعتصم شكرى بمنصبه الصامت ولم يحر حراكا فنفض الاثنان عنهما غبار المعركة وغسل الصاحبان أيديهما من دم الضحية ·

ولقد كان فى وسع المازنى ـ عندما اكتشف أنه كان كبش الفداء ـ أن يستغل مكانته فى (الاخبار) ليهاجم العقاد ·· ولكن الوقت كان قد فات الا أن العقاد كان قد أصبح ناطقـــا بلسان الزعامة وانفض الشعب عن (الاخبار) بعد أن اختلفت مع سعد ·· فضلا عن طبيعة المازنى الذى لا يقوى على مقاتلة العقـــاد وهو أخبر النـــاس به ·

ويبدو أن العقاد كان بعيد النظر أيضا فلم يشأ أن يثير ثائرة المازنى ·· فارتضى الصاحبان وقد فرق العمل الصحفى بينهما ·· أن يمضى كل منهما فى طريقه من غير أن يعرض لصاحبه بكلمـــة سـوء ·· ولا بأس أن يكتب المازنى مقالا (مطلوبا منـــه) فى السياسة) أو فى (الاتحاد) يهاجم به الوفد ·· ولا بأس أن يكتب العقاد المقال المضاد فى صحف الوفد ·· ولا بأس أن يعتبر المقالان لونا من ألوان النضال بين الاحزاب لا بين الاصحاب ·

ومشى الزمان بالكاتبين على هذا النحو ·· حتى ألقاهما معـــا محررين فى (البلاغ) على مطالع الشيخوخة يتصافحان ويمزحان اذا تلاقيا على درج السلم أو فى ممرات الدار وكما كان الصاحبان يمزحان فى شرخ الشباب ·· فاذا مر يوم أو يومان ·· بل عشرة أيام ولم ير أحدهما الآخر وهما يعملان فى دار واحدة ·· فالحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه ·

ولعل خير ما نختتم به هذا البحث عن العقاد من خلال المازنى ـ ودع عنك شكرى ـ أن العقاد مشى فى طريقه ثابت الخطو ·· وأصر على طرائقه مؤمنا بصوابها ·· وكتب فى البلاغ الاسبوعى مرة مقالا بدأه بقوله « منذ بضع ســـنوات نشرت كتاب الديوان فذاع ذيوعا لم يسبق له مثيل فى مصر ونفدت طبعة الجزء الاول منه فى أقل من أسبوعين » ولم يشر العقاد الى اســـم المازنى مع أن الجزء الاول الذى يشير اليه ازدان بمقال « صنم الألاعيب » بقلم المازنى ·

وكانت فرصة للمازنى يهاجم فيها هذه الخطيئة أو هذا الجحود فى صاحبه ويؤيده القراء جميعا ولكن المازنى ·· كان قد مشى هو الآخر فى الطريق المضاد فلم يشأ أن يزاحم صاحبه على أمجـــاد الحياة ·· وانما رأى أن يسمع التاريخ كلمة حق مثخنة بالجراح

ـ فقال فى مقدمة كتابه (حصد الهشيم) وهو يتحدث عن الديوان والاسى يقطر من المداد أو من الريشة ·· قال ما يأتى بحروفه :

« ما مصير كل هذا الذى سودت من الورق وشغلت به المطـابع وصدعت به القراء ؟ انه كله سيفنى بلا مراء ·· فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ·· وأن يشتغل أبناؤه بقطع الجبـال التى تسد الطريق وتسوية الطريق لمن يأتون من بعدهم ·· ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الارض ومهدوها ورصفوها ؟ ومن الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟ وبعد أن تمهد الارض وينتظم الطريق ·· يأتى نفر من بعدنا ويسيرون الى آخره ·· ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة بانخة ويذكرون بقصورهم ·· وننسى نحن الذين أتاحـوا لهم أن يرفعوها سامقة رائعة والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد فلندع الخلود اذن ولنسأل : كم شبرا مهدنا من الطريق ؟ » ·

أسى لا شك فيه ·· أودعه المازنى كل جراحه وودع به كل ماضيه ·· وعند هذا الحد وقف المازنى ومعه بضعة كتب لها البقـاء من غير شك ·· تركها من غير ضجة ·· تراثا لبنيه ·

العقاد فى طريقـه

أما العقاد فلم يقف عند هذا الحد ·· ولم يكن ممكنا أن يقف عند أى حد ·· وكان قدره أن يظل يقاتل الى آخر قطرة من دمه أو الى آخر لحظة من حياته ·· ولم يسأل العقاد « كم شبرا مهدنا من الطريق » كما سأل المازنى ·· وانما مشى فى الطريق مشـية المقاتل مدججا بالرأى وبالقلم ·· يعلن الناس أنه هو الذى مهـد وهو الذى يشيد ·· ويرسل صرخاته كلما قطع شـوطا : اما من مقاتل ؟ ·· يتحداهم جميعا مفكرين وزعماء وساسة ·· حمل على هيكل ·· وحمل على طه حسين وضربت الامثال بالعراك بينه وبين صادق الرافعى وكل من حاول أن يزاحمـــه على الطريق ·· من أولئك المعتزين بدراسات جامعية ومنهجية تلقوها فى جامعات أوربا ·· بفضل أبائهم أو بفضل بعثاتهم ·

كان العقاد يرى أنه متفرد بقمة لا ينبغى لهم ـ ولا يحق ـ أن يتطلعوا اليها ، لانه لم يهبط عليهـا بطائرة الهليوكبتر ولا بمظلة تحمله ·· وانما ارتقى اليها عبر الجبل الوعر ودميت أظفاره وهو يفتت الصخر ·· حتى بلغ هذه القمة وتربع فوقهـا ·· كان لكل أديب من منافسيه مكتبة ورثها عن جده أو أبيه أو اشتراها بمال

سهل تدفق عليه ·· أو امتدت اليه يده بغير الحق فاستولى عليه ·· أما هو فكان يحصل على الكتاب ·· بثمن اللقمة واصيب بمرض الصدر بسبب سوء التغذية حتى اذا اكتملت له مكتبة ·· طارده الدائنون فبيعت فى المزاد وبدأ من الصفر يبحث عن الكتاب ·

ولقد التزم كل أديب منهم مادة بعينها تخصص فيها ·· وحصل على اجازتها ·· أما هو فلم يختر مادة ·· ولا عرف نهجا ·· ولا تخصص فى شىء يؤهله لاى شىء ·· انه عبقرى ·· وعبقريته عبقرية شمول لا يرضيها أن تجهل فى هذا الوجود موجودا ·· وعليه اذن أن يواصل طريقه نهما لا يشبع ·· وأن يلتهم كل ما يجده فى هذا الطرق ·· لا فرق عنده بين يسير يغرى بقراءته ·· ووعر يصده عنه ·· لا فرق عنده بين الادب والعلم والفلسفة والفن ·· وأى لون من ألوان المعرفة ·· عليه أن يدرس اللوغاريتمات وحساب المثلثات وتذكرة داود فى الاعشاب ·· وكل ما قاله الطب من قبل أبو قراط الى ما بعد تفتيت الذرة ·· وأحدث ما اكتشفه العلم فى تربية الدواجن وتفريخ الكتاكيت ·· وكل ما قاله علماء الدساتير فى نظم الحكم ·· وكل ما اتحفنا به الدين من فقه وتوحيد وأصول وعلم كلام ··

وامتلأ وطاب الرجل فى ظل الشمول ·· وأحس أن من حقه أن يعلو ·· وأن يعلن الناس بهذا العلو وأن يدعو لنفسه اذا لم يقم الأخرون بالدعوة له ·· وأن يفرض هذه الحقيقة على المجتمع بالعصا أو الهراوة ·· اذا لم تفد فيه الريشة أو لم يفد القلم ·

هل كان شجاعا

وهنا يعترض الباحث فى العقاد سؤال يكاد يشكل معضلة : « هل كان العقاد شجاعا كما بدا لنا فى أكثر من موقف ·· وهل كان فى مخبره مثلما كان فى مظهره أخا كبرياء وعبوس ؟ » ·

الاجابة ليست سهلة ·· وقد يسهل الحديث بغير قيود ·· ولنتحدث اذن وقد نهتدى الى الاجابة من خلال الحديث ·

فى تقديرى أن العقاد وهو يحاول أن يصنع من نفسه عظيما ·· أعد لاقامة الصرح أدواته ·· وأحسن الاعداد ·· وكان لزاما ـ لكى يكون عظيما ـ أن يكون شجاعا وأن يبدو دائما متحفزا للهجوم الا متأهبا للدفاع ·· والا يغشى مكانا ·· ولو كان مسجدا ·· الا شاك السلاح ·· وأن يبدو دائما لرائيه عسكرى المشية عابس السحنة متحديا بالنظرة وكأنه طالب ثأر أو باحث عن فريسة ·· ومن مجموع هذه الادوات ·· كانت شجاعة العقاد ·· اصطنعها

لنفسه ·· ولازمها وعاشها فلازمته وعاشت فيه حتى توارى فيها الاصطناع ·· وتبدت فى شعورنا بها طبعا من الطباع ·

وقال لى أصدقاؤه أن العقاد فى حياته الخاصة على نقيض كل ما تراه وانه يفيض رقة وعاطفة ·· وانه أخو مرح ونكتة ·· وان كان يحتفظ بينهم دائما بكرسى الاستانية بما يفيض عليهم من ثمار المعـــرفة ·

وهذا الوصف لتلك الحياة الخاصة لا ينافى الصفات التى تلازمه فى المجتمع ولا ينفى صفة الشجاعة عنه ·· ولكن الذى هال عارفيه ·· ذلك الذعر الذى أفقده كل رشاد ـ أو كاد ·· عندما أشيع فى ربيع سنة ١٩٤٢ أن روميل فى طريقه الى احتلال الاسكندرية وعرف أن السفارة البريطانية أحرقت أوراقها ورئى الدخان يتصاعد من مبناها يومها ترك العقاد القاهرة بالطائرة بل فر من القاهرة فرارا الى الخرطوم تاركا خلفه كل شىء ·· حتى كتبه وهى أغلى ما يملكه ·· ولم يفعل هذه الفعلة أديب آخر ·· بل ان الحاكمين أنفسهم ـ وهم المرشحون للمشانق قبله ـ ثبتوا فى أماكنهم وكانوا شجعانا ·· فما الذى يدل عليه ذلك الحادث ؟ ·

اختلفت الآراء فى تعليل ذلك الذعر ·· أو ذلك الجبن أو ذلك الفـــرار ·

وقال فريق أن العقاد فى حقيقته جبان ·· وأن كل من يتظاهـر بالشجاعة هو فى حقيقته جبان يعرف جبنه ويعيه ·· ثم يتظاهر بنقيضه حتى يستره ويغطيه ·

وقال فريق أن العقاد كان حكيما ولم يكن جبـــانا ، وأنه كان عدوا للنازية ملأ فجاج الاوراق حملات عليها أوغرت صدرى الفوهرر والدوتشى عليه ·· وكان رأسه مرشحا للمشنقة قبل كل الرؤوس فمن الجهل أن يمكن لعدوه من نفسه ويظل فى مكانه والعدو يطرق باب الاســكندرية ·

وأنا أميل الى الرأى الثانى وأرجحه ·· وللسبب الذى قالوه ·· وبسبب آخر لعله يدعم قولهم ولا ينافيه ·

فى تقديرى أن العظمة التى بناها العقاد عبر عمر كامل بالعرق والدموع ·· وبالضنى والجوع ·· وبالمرض يفتك به ·· من حقها عليه أن « يحجبها » ·· وأن يبيعها ان وجب البيع بثمن لا يقـــدر عليه أحد ·· اما أن يمكن لمجنون كهتلر ـ وكان هذا هو رأيه فيه ـ أو لمهرج كالدوتشى ـ ولم يكن يحترمه ـ فى تقويض هذا الصرح العبقرى المرد برصاصة من يد جندى مخمور ـــ فتصرف قد يوسم

بالجنون وان تساهلنا فانه الجبن بعينه ·· أما الشـجاعة كل الشجاعة ـ والشجاعة يحدوها العقـل بعكس الجرأة ـ فهى أن تحمى الصرح بتصرف نابه وحكيم وسريع لا خور فيه ولا تردد ·· ومن هذا المنطلق اتجه العقاد الى المطار وأخذ طريقـه الى قلب السودان ·· تاركا كتبه ـ والكتب تعوض ـ حاميا صرحه والصرح اذا ذك عز بانيه ·

لقد كان العقاد شجاعا عندما « فر » من وجه البربرية ليحمى بهذا الفرار مؤسسة فكرية أقامها فرد ولم تقمهـا دولة ·· وأقل ما يقال فى ذلك الفرار انه كان دفاعا عن النفس بالطريقـة التى قدرها المدافع ·· ولم يقل مشرع أن الدفاع عن النفس تصرف غير شرعى أو غير مشروع ·

ويؤيد رأيى أن بينت ـ فى حديثى عن عبد القادر حمزة وكان شجاعا ـ الحيل الثانوية ـ بما فيها شهادات الاطباء الكبار ـ التى كان يلجأ اليها ليتفادى التحقيق معه والسجن عندما علم اتجـاه خصومه الى التخلص منه داخل السجن ·· فكيف يطلب الى العقاد الا يدافع عن حياته بطريقته وهو على ثقة أن حياته الغالية.لا تكلف عدوه اذا هو دخل القاهرة الا رصاصة واحدة ·

ولقد أعلن العقاد من فوق منبر المجلس النيابى أنه يحطم أكبر رأس فى البلد رأس الملك فؤاد ـ وحوكم وسجن ولم يجبن ·· ثم عاد فهاجم الزعيم فى جريدة (روز اليوسف) اليومية وهاجم مكرم وكان طاغية لا يقدر عليـه أحد ·· ولم يجبن العقـاد لا فى الاولى ولا فى الثانية ·

وبسبب كل ما قلته أميل الى الاعتقاد ان العقاد كان شجاعا ولم يكن أبدا جبانا بالمعنى الذى تعنيه كلمة الجبن ·

العقـاد والمرأة

ونظلم العقاد العبقرى اذا وضعناه على بساط البحث كاتبـا أو مفكرا أو شاعرا ولم نعرض له رجلا ·· يحمل قلبا ·

وقال خصومه أنه لم يكن يشعر للمرأة بأى حنين ·· ولم يكن فيه بالنسبة لها ما يحمل كل رجل على الاهتمام بها ودليل الخصوم أنه لم يتزوج ·· وأنه كان يهش لاى غلام وسيم ·· حتى لقد ذهبوا فى هذا السبيل بعيدا واستغلوا عطفه على شاب أديب ·· يحمل الآن الدكتوراه ·· وزوجته الشابة القصصية (التى تعمل الآن فى احدى المؤسسات الصحفية) وللاديب الآن من هذه الزوجة ابن شاب ·· استغل الخصـوم عطف العقاد على هـذا التوأم الزوجى الروحى

فأدعوا أن الابن الشاب ، انما أنجبه العقاد من الشابة القصصية ونسب بغير الحق الى زوجها الاديب ·· لا لشيء لان الزوجين من مدرسة العقاد وتلاميذه والمترددين على ندوته فى بيته ·

ومع ان مثل هذه الجريمة المزعومة يمكن أن تقع فى أرقى مجتمع ·· ومع أن الزوجين فيما أعلم أقرب فى ارائهما الى « التحـــرر الخلقى » ولا أستبعد على أى منهما أن تزل له قدم ومع ان الجريمة المزعومة يمكن أن يرتكبها أى أديب ذائع الصيت فى أى زمان وفى أى مكان ·· مع هذا كله ·· أستطيع ـ فى كثير من الطمأنينة والرضى وفى حدود معلوماتى المتواضعة عن حياة العقاد وفى حدود فهمى لشخصيته ـ أن أنفى وقوع هذه الجريمة ·

لقد مارس العقاد الحب ·· وتورط فى العاطفة ·· واستغفلته بعض النساء فغفل ·· شأن أى طفل ساذج ··ولكن هذا كلهشيء ·· ومثل هذه الجريمة شيء آخر ·

ولا أستعين بشيء من آراء العلماء فى الاجـــرام ـ ولا داعى للاستاذ لامبروزو وأترابه ـ ولا داعى لفرويد وتلاميذه ·· والمسألة فى بساطة وبلغة مفهومة ·· يمكن أن يقال أن العقاد كان أكبر من أن يهبط الى مثل ذلك المستوى ·

والعقاد لم يكن يشرب الخمر ولم يكن يتناول أى مخدر ·· لا فى صدر الشباب ولا فى عصر الامجاد ·· لا فى أيام الصحة ولا فى أيام المرض ·· ولم يكن هذا بسبب تدين ·· فقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن معنيا بأحكام الدين وانما كان يرتفع بنفسه وبكرامته وبضميره وبعقليته عن ممارسة أى تصرف يؤدى الى الهوان أو المهـــانة ·

كان كبير العقل وكان عالى النفس وكان يملك ارادة بغير حدود ·· وكان يعتصم بالعفة عن مواطن الخسة حتى يظل عظيما ·· أما مثل هذه الجريمة المزعومة ·· ففى وسع أى انسان أن يأتيها بجهد يسير أو بغير جهد ·· عندما تكون صفاته على النقيض تماما من صفات العقاد ·· وحتى اذا هفت نفسه الى مثل تلك الشـابة القصاصة ·· وحتى اذا كان قد افتتن بها ـ ولم تكن فاتنة ـ فقد كان بوسعه أن يرد نفسه عنها وهى فى عصمة تلميذ من تلاميذه ·

وعزوفه عن الزواج

أما ذلك العزوف الذى اتخـذ منه الخصـوم دليلا على انعدام الرجولة فيه ـ فقد كانت له أسباب هى أبعد ما تكون عما نسـبوه اليه ·· ولو كانت الطبيعة قد حرمته من الرجولة لكان الذنب ذنبها

·· ولم يكن هناك معنى لمحاولة التشهير به ·· ولكن الامر لم يكن هكذا أبدا ··

ولقد ذكر هو نفسه بعض الاسباب فى رفضه الزواج ·· وفى تقديرى أن هناك سببا واحدا يغنينى عن تلمس كل الاسباب ·· فالزواج عادة يكشف حقيقة الزوج ويعرى نقصا فيه ·· والزوجة عادة لا تشعر بميزات زوجها كما يشعر بها الآخرون ، وحتى اذا هى عرفتها بل تزوجت منه تقديرا لها فانها على الزمن تتوارى فى ناظريها ولا تعترف تحت طرقات الخلافات بأى ميزة منها ·· ولكى تستمر الحياة الزوجية الى نهايتها يتحتم على الزوج أن يستعير صفات ليست فيه ·· وأن يكون لين الجانب باسم الثغر وأن يتساهل ولا يتشدد وأن يتساهل عما أخذ به نفسه أيام العزوبة ·· وأن يكون مجاملا لاسرة الزوجة مجاملة ترضيها ·· فاذا هو استجاب لكل ما يرضيها ·· فسرت هذا كله بالضعف من جانبه فباهت بسلطانها عليه وملكيتها له ·· فاذا جاء الاطفال ـ وما أشد ضعف العقاد أمام هذا الصغار ـ فقد وقعت الواقعة ·· وسقط القناع الذى لازم وجهه عمرا حتى أمسى جزءا من عظامه ولحمه ·· فعرفه به العدو والصديق ·· وانهار البناء الذى أقامه العقاد بالعرق والدموع ·· وبالضنى والجوع ·· لا لشىء الا ليصبح زوجا ·· الا ليصبح شيئا من الاشياء ·· يمارسه القطيع من بدء الخليقة ·· لا يضيف انضمامه الى ركبه ·· شيئا الى حقيقة ماله هو ·· وهذا الهدم وهذا الويل ·

نعم هى سنة الكون ·· ولعنة البقاء ·· ما فى هذا شك ·· ولكن العباقرة اذا قيسوا بهذه المقاييس وحوسبوا على هذا النحو ·· انهارت الفروق بينهم وبين القطيع ·

قد تسأل : « والعاطفة ؟ ألم يكن لها على العقاد سلطان ؟ » ·

وفى تقديرى أن حظه منها كان كبيرا ·· ويا طالما حاول أن يكون سلطانه عليها أكبر ولكن لنبدأ القصة من أولها كما يقولون ·

العقاد كان فنانا ·· قبل أن يكون أديبا ·· كان رقيقا قبل أن يكون عبوسا ·· كان عاطفيا قبل أن يكون عقلانيا ·· وكان للحب عنده مكانة فوق المشاركة الزوجية ·· وكان الحب هو الذى ينشده ويرتفع به فوق المشكلات اليومية ومطالب الطهى وأسعار الخضراوات ·

ولكن المصيبة أن الحب لم يكن ميسورا للعقاد عبر الشباب ·· والشباب هو الشكل الامثل والاوحد لاحتواء هذا المضمون الذى نسميه حبا ـ كان العقاد يصر على الصدارة وهو صغير ·· وهو فقير ·· وهو محروم من المؤهل ومن النصير ·· كان يحاول أن يفرض شخصيته على الاقوياء وهو ضعيف ·· وكان يكافح مرضا

بكر فى مهاجمته ·· والمرأة تنكر هذه الاوضاع كلها ·· والمرأة لا تعرف فى حبيبها فقرا أو ضعفا أو مرضا ·· المرأة لا تعرف غير الذى يتضرع لها ويهتم بها ويكذب عليها ·· ويضحى من أجلها ·· وينفق بسخاء ·· وكل ما كان يملكه العقاد أن يقول لها شعرا ·· وهو بضاعة غير رائجة فى سوق الحسان ·

ولقد اصبح العقاد اهلا لمطلب الحسان وقادرا على الاتصال بهن سلطانا ومالا بعد فوات الوقت ·· ومن خلال الكهولة ·

كان يدرك أن الفتاة فى العشرين أو ما دونها أو ما فوقها ·· انما تنظر اليه بعد الاربعين نظرها الى (بابا) أو (عمو) ·· وهى حقيقة مرة تكسر الخاطر ·· وتهبط الى مستوى الاهانة ·· وتنكأ كل الجراح ·

لقد رضى العقاد أن يخدع من الحسان كصديقات ولم يرض أن يخدع فيهن كحبيبات أو زوجات ·

حادثة

كان لى فى الثلاثينات صديقة أهداها الى نزق الشباب وقد عاشت معى فترة ملؤها الخداع والكذب ـ وتلك كانت طبيعتها ولا حيلة لها فيها ·· وعرفت الحقيقة ونفضت يدى عنها وان ظلت تطاردنى على مستوى الصداقة المكشوفة لا أكثر ·

كان اسمها قد بدأ يعرف فى وسط الصحافة بعد أن فرضت نفسها على هذا الوسط ووقع اختيارها على العقاد كطير جديد يحلق بها الى سماوات تتطلع اليها وليست أهلا لها وألقت شباكها ·· ووقع العقاد فى الشباك ·· وكانت تجيد التمثيل وكان خيرا لها أن تحب المسرح ولكنها أحبت الصحافة ·· وكانت لهما خلوات غرامية ·· ولكن العقاد كان ذكيا وكان يدرك ـ برغم التهاب عاطفته ـ أن الوضع غير طبيعى وأن وراء الحسناء أشياء ·

وذات مساء وبعد انتهاء سهرتها التقليدية رافقها فى (حنطور) الى بيتها فى حى الصاغة وكان الشارع مظلما وكنا فى أوائل الحرب العالمية ·· وانتظر حتى صعدت الى شقتها وأطلت عليه من الشرفة ليطمئن عليها وينصرف ·· وانصرف فعلا ·· ثم خطر له خاطرا فعاد بالعربية الى مقربة من البيت ·· وتسلل الى مدخل البيت ووقف فى (بير السلم) المظلم ·· وظل واقفا مرهف الاذنين ·· واذا الذى توقعه يحدث ·· غيرت الفتاة ملابسها المحتشمة ولبست الفستان السيواريه ·· وبدأت تهبط السلم ·· واذا شبح يخرج لها من الظلام وهو يقول لها (على فين يا شقية ؟) وخرجت الفتاة ·· وبعد الـ « اخص عليك يا عباس ·· » قالت فى صراحة

« أصلك محرج على أقابل حد ·· وادجار عامل حفلة هايلة الليلة دى لجلالة الملك ·· ودعانى وألح وخد منى كلمة شرف وأنا عارفاك ·· تكره الاصناف دى علشان كده خبيت عليك » ·

وصدق العقاد روايتها وحذرها من أن تعود لمثلها ·· ورأى أن توفى بكلمة الشرف ما دامت قد أعطتها ·· وأركبها الى جواره فى (الحنطور) واتجه بها الى نادى الضباط حيث تقام الحفلة بكامل تبرجها ·· وما كاد أنصار الملك يرونه متفضلا بزيارته المفاجئة حتى خفوا اليه بكامل طاقمهم ـ وكان قد خرج على الوفد طبعا ـ ورأت الفتاة فى تلك الحفاوة نصرا لها بغير حدود ·· وأدركت أى صيد ثمين وقع فى الشباك ·

ولا يهمنى أن أقول لك أنه كشف بعد تلك الليلة حقيقتها وعافها ·· ولكن المهم أنه ظل يحاول أن يستظل بالعاطفة بعد الخمسين وبعد الستين ·· ولا أستبعد أن يكون قد استمسك بتلك الظلال الى أن ارتحل ·· أو الى الخامسة والسبعين ·

وعلى الرغم من ذلك الحرمان المرير من الحب والشباب ـ أو من الحب فى الشباب فقد عاشه عيش العباقرة ـ وأنجب لنا قصة « سارة » ·· اذا لم يكن الفن قد ضرب فيها بجناحيه حرا وخفاقا وعاريا ·· فقد اقترن فيها العمق بالسطح اقترانا غير مسبوق ·· والتقى فيها العقل الكبير بالقلب الكبير ·· فجاء الينا شاهقا ومشمخرا · معقل واحد لم يدخله العقاد ·· وأسف عليه ·· هو المسرح ·

واذا كان قد أسف على انه لم يكتب له ·· فقد كان عالما به ·· وناقدا له ·· وكان من تلاميذه المؤمنين به ·· والملازمين لندوته ·· الممثل الكبير المرحوم أحمد علام ·· ورغم ما عرف به علام هو الآخر من الكبرياء والشموخ ·· وسعة الاطلاع ·

والعقاد كالكتاب ·· يعرف من عناوين كتبه ·· وجلها يدور حول (مطالعات) و (مراجعات) و (ساعات بين الكتب) ·· ولم يكن غريبا وقد أمضى العمر يقرأ أن يغدو كاتبا موسوعيا ·· ولقد كان فعلا ·· وانتهى اليه ـ فى يومياته فى جريدة (الاخبار) أخيرا ـ زمام الجواب على كل سؤال يوجه اليه من القراء ·· فى العلم أو فى الفن أو فى الادب أو فى الطب أو فى الدين ·· أو فى أى شأن من شئون الحياة ·· لم يكن هذا كله غريبا ·· وانما كان غريبا أن يبلغ من فقه اللغة الانجليزية وأسرارها ما بلغه من فقه اللغة العربية ·· ولم يبرح مصر يوما ·· ولا زار جامعاتها ·· ولا استمع الى لهجاتها ·· وكان قادرا على أن ينقد الشعر الانجليزى قدرته على نقد الشعر العربى وهكذا قال لى حواريوه ·

الكاتب والسياسى

أما العقاد ككاتب صحفى ـ ككاتب مقال حزبى أو سياسى ـ فلا يعرفه غير معاصرية والحديث عنه فى هذه الناحية يطول ·· وعصره الذهبى هو من غير شك عصره الوفدى ·· فقد تجلت عبقريته والريح مواتية ·· والقلم يكتب للشعب زهوا بالكفاح ضد القصر والمحتل وأعوان الاثنين ·· ومقالاته ضد اسماعيل صدقى كان الكثيرون يحفظونها كما يحفظ السور ·· وكان يختار أى عنوان للمقال ·· فيتحدث القراء عن العنوان قبل المقال ·· وتجرى تسمية (المحتسب الاعظم) على كل لسان ·· لا لشىء الا لانها عنوان لمقال « سخر فيه من صدقى » ·

وعندما تمردت (روز اليوسف) اليومية على الوفد ·· واشتد العقاد الوفدى كاتبها الاول فى نقد بعض التصرفات ·· اجتمع الوفد وقرر تحت ضغط مكرم ·· تجريد الصحيفة من صفة الوفدية وفصل العقاد من الهيئة الوفدية ·· وخف المرحوم كامل الشناوى الى العقاد يحمل اليه المفاجأة غير المعقولة ·· وكان هدف كامل أن يثور العقاد أو يتخاذل ·· ويفوز كامل بالوصف الممتع للثورة أو للتخاذل ·

ولكن العقاد لم يثر ولم يتخاذل ·· وانما استمع الى كامل وهو يقرأ عليه نص القرار حتى اذا انتهى من القراءة قال له العقاد فى هدوء (هات الاستيكة ·· امسح الكلام ده واكتب ·· لقد قررت أن أمسح الوفد) ·

وخاض العقاد معركة ضارية ضد الوفد ·· وكان مكرم يرد عليه فى الصحف الوفدية وكان هواة المعارك يتخاطفون جريدة الهجوم وجريدة الرد ·

وللتاريخ ·· لم يستطع العقاد أن يمسح الوفد وهذا طبيعى ·· ولكن الوفد نفسه لم يستطع أن يمسح العقاد وكان هذا هو الغريب ·

لقد انتقل العقاد الى المعسكر المضاد الذى يضعف أقوى الاقوياء ·· وانتقل الى مقاعد مجلس الشيوخ ليعارض الوفد تحت القبة من المعارضين ·· وقد عارض ولم يوفق كثيرا فى اثبات وجوده ·· ولكنه لم يلتمع ·· كان على النقيض من صدقى ·· هذا تتجلى عبقريته اذا هو حارب الشعب ·· وذلك تتجلى عبقريته اذا دافع عن الشعب ·

وكانت النهاية واضحة ·· كان لا بد أن ينتهى مجد صدقى وأن يطوى كل ماضيه ولكن مجد العقاد لم ينته وماضيه استرد كل مجد فيه ·· لان العقاد كان مفكرا ولم يكن سياسيا ·· والفكر لا تقوى عليه السياسة ·

وفى تقديرى أن العقاد بخروجه عن الوفد قد فقد ظله ·· أو أصبح غير ذى موضوع ككاتب سياسى ويبدو أنه أحس بهذه الحقيقة فى حينها ·· وكان حسبه من السياسة أو من الصحافة أنهــا حملته على أمواجها وأصبح اســمه مدويا ·· فى أرجاء الشرق العربى كله ·· وبدأ الرجل يفيق من تلك الغاشية ·· ويبحث عن الجوهر الكامن فيه ·· عن الفكر والانتاج الفكرى ·

وكانت مجلة (الرسلة) قد ظهــرت ·· وكان ظهورها ايذانا بتحول كبير ·· لا من جانب العقاد وحده ·· بل من جانب الكتاب الكبار وأعلام الادب جميعا ·· وبدأ العقاد يتسلل الى المجد الجديد ببعض العبقريات ·· وبدأ الجميع يتسللون ·· وانتهى التسلل الى انقــلاب ·· وشهد البلد تحول الجيل الرائد كله ·· العقاد وهيكل وطه وأترابهم من الفتنــة الى الجنة ·· ومن الامجــاد التى كانوا يرومونها ·· الى الاسلام وأبطال الاسلام ·

وكان قد سبق التحــول الكبير الذى اقترن بالاســماء الكبيرة تحولات صغيرة اقترنت بأسماء جديدة ··

كان العقاد قديما ــ وبمدرسة الديوان ــ أقدم الثوار على القديم وأقدر الرواد على التجديد .. ولكن مدارس التجديد بعد الحرب العالمية الاولى بدأت ترفع رأسها ·· أو تعلن مولدها ·· وأصبحنا نواجه فى كل عام طائفة من المجددين يسخرون بأسلافهم فبعد أن ظهرت حريدة (السياسة الاسبوعية)تحاول أن تفرض مفكريهــا على المجتمع المثقف وتجهز على (مدرسة الديوان) ·· رأينا سلامة موسى يروج لاسلوب التفكير فى الغرب وينادى بفرنجة الفكر العربى واهدار التراث القديم كله ·· لقد نادى باحلال القبعة محل الطربوش ·· ثم لم نلبث ان واجهنا افتتاح مسرح رمسيس وقيام مقهى الى جواره يجتمع فيه طائفة من الشبان يرون فى كتاب جريدة السياسة رجعية قبيحة ·· وينــادون باتجاهات فنية أكثر حــداثة ·· ومن هؤلاء الشبان الذين أسموا أنفسهم (المدرسة الحديثــة) حسين فوزى وتوفيق الحكيم وأحمد خيرى سعيد ومحمود عزمى (مترجم غادة الكاميليا) وابراهيم المصرى (الذى رأس تحرير مجلة التمثيل) وأصدر بعضهم مجلة (الفجر) ثم ظهر (حسنى العرابى)بحزبه الشيوعى يتقــــدم تلك الثورات الفكرية ·· ويرى فيهــا ما يراه الماركسيون فى البرجوازية ويسخر من انتاجهم حتى قبض عليــــه وحوكم وسجن ·

ماج الجو اذن بالمدارس الحديثة ·· ولم يعد العقاد سيد الموقف ولم يعد لمدرسة الديوان ما كان لها من شأن ·· وكان محتوما ·· أن يتوارى العقـاد وجيـله ·· وأن يدخلوا متاحف الفكر مشيعين بالاحترام كرواد أول المراحل ·· ليخلوا طريقهم أمام الشباب الثائر وأمام الجيل الصاعد ·· أو ليحترفوا السياسة ويأكلوا العسـل المصفى من ورائها ويدعوا دولة الفكر الحديث للمفكرين الثائرين وجلهم عائد من أوربا أو دارس فيها أو فى طريقه اليها ·· ولكن شيئا من هذا كله لم يحدث ·

حشد العقاد هجومه على كل هذه الجبهات ·· وقاوم معرفتها الجديدة بما يثبت أنه مهتم بهذه المعرفة وأدرى بهـا منهم ·· وأنه على أهبة الاجهاز عليهم وعليها ·

ظل العقاد فى الميدان شاك السـلاح ·· لم يلقه أبدا ·· ولم يستسلم مرة ·· وظل نتاجه جديدا دائما ·· وظل يملأ مكانه فى الصحف وفى الكتب ـ وعلى الرغم من تقلبات السياسة من حواليه « حتى بعد قيام الثورة الناصرية الاخيرة وكان المفروض أن ترى فيـه الصنم الاكبر من أصـنام العهود البائدة ·· لم يتحرك أحد لمصادرة قلمه ·· ولم يتملق هو أحدا ليؤمن قمته ·· وانه انصرف عن السياسـة الى الفكر ·· وظل يثريه حتى اعترفت الثورة به وقدمت له جائزة الدولة التقديرية ·· وتلقاها شامخ الانف عالى الرأس كريم الوقفة فلما مات لم يستطع أحد من خصومه أن يغض من خلاله ·· وحتى مدفنـه الى أسوان لايزال ينتظر مستقبليه كمزار تحج اليه الاجيال وظل اسمه منارة عالية فى سماء الفكر ·· ولعلنا نمسك بالخيط الرئيسى فى تحوله الكبير اذا نحن أسقطنا من فوق صفحات (الرسالة) ·· ثم من بين صفحات الكتاب التى اتجه اليها ذلك التحول ·

التحـول الكبير

لقد تحول العقاد مرتين فى تاريخه ·· أو كانت المرتان أظهـر ما شهده تاريخه من تحولات ·

تحول من الجانب الشعبى فى المقال السياسى الى جانب الاقليات ·· فكان رصيده يتبدد ·· وعلقت النقط السوداء الضخمة بتاريخ ناصع البياض فكانت تدمغه بالتوصية فسخر الشعر مرة ·· وكانت غلطة رهيبة تلوح لفاروق بالاعتذار له عن ماضيه مع أبيه ـ أى ماضى العقاد ـ لا لشىء الا ليغيظ الوفد وليعطى دائرة انتخابية فى الصحراء الغربية يدخل على متنها فى البرلمان ·

وتحول مرة أخرى فى عالم الفكر من جانب الغـــلو فى التجديد بحيث قارب الامجاد أو كاد وهو يقسو على مصطفى صادق الرافعى وكل من اتخذ الدين هراوة فى يده أو سلاحا يحارب به ·· تحول العقـاد الى قدسية هذا الدين وحنى رأسه الشامخ ليدخل الى ذلك القدس ·· راكبا موجة (الرسالة) وفصوله فيها ·· فاذا الرجل يجد طريقه ·· بعد نصف قرن فى التيه الخادع ·· واذا العبقريات تضفى عليـه من التخليد ما لم يدركه عبر العمر الطويل ·· واذا العقاد يقود كما كان يريد ·· ولكن فى ساعة الطهر ·· لان ظهور « الرسالة » أحدث تحـولا أكبر من تحوله ·· وشهدت مع شقيقتها « الثقافة » سبقا اسلاميا رائعا ·· فكتب طه فى « السيرة » وكتب هيكل فى « حياة محمد » وصحبه ·· وكتب العقاد العبقريات ·

كلهم بدأوا حياتهم بالهجوم على المتشبثين بالدين وكلهم عادوا اليه خاشعا ·· وكان هيكل فى الميدان رائدا وجمعت (الرسالة) بين المتخاصمين وحتى الرافعى بدأ يلبس أثواب الاصلاح الاجتماعى ليتقدم الى الامام ·· ويلتقى بهم ·

عرف العقاد طريقه ·· وكالعهد به مشى فيه شاك السلاح أيضا ·· واذا نحن أمام جلال لا يطاوله جلال واذا العملاق يحطم القيود ·· ويصل بين العلم والروح فى (الفلسفة القرآنية) على نحو غير مسبوق ·· وكأنه يقول للدنيا هنا مكانى وهذه حقيقتى وهذا أنا ·

عدو المـرأة

وقد تسألنى لماذا أسقطت من حسابك آنسة وسيدة من ألمع نجوم الفكـر احداهما نشـأت فى فلكه العاطفى والاخرى دارت فى فلك الخصومة الفكرية ·· الاولى هى الآنسة مى والثانية هى السيدة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » ·

والحقيقة انى أرجأت الحديث عنهما الى الخاتمة لاعطرها بذلك الحـديث ·

أما (مى) فقصة الحب بينها وبين العقـاد ما يزال الغمـوض يكتنفها وفى تقديرى أن (مى) لم تكن المحبوبة السهلة ·· بل لعلها لم تكن الانثى السوية ·· ولم تكن ملكة للجمال الصـارخ أو للجمال الصاعق أو للجمال الساحر ··وانما ملكت جمالا من نوع آخر ·· جمالا هادئا وجمالا جاذبا وجمالا حائرا ومزيجا من جمال الفكر وجمال النفس وجمال الروح ·· وملكت (صالونا) لم يضق بأحد من قاصديه ·· ورحبت بوجود الشيوخ والشبان فيه ·· ولم يكن العصر يأذن فى يسر بالتقاء المـرأة والرجـل (اذا استثنيت صالون الاميرة نازلة فاضل وكانت له ظروف أخرى) فحمل الشيوخ

قلوبهم الواهنـــة الى تلك النـدوة ·· وحمل الشـــباب قلوبهم الثائرة ·· الى نفس الندوة ·· وتقاتلوا جميعا فى هذه الساحة قتالا صامتا ·· وانتشت بالقيادة فطاب لها أن توجه المعارك ·· بعصا المايسترو لا بسيف المحارب ·· حتى لقد خيـل لكل مرتاد أنه هو وحده الـذى فاز باللقب ·· ولم يثبت أبدا أن أحـدا منه فاز بهذا الدور الذى نعنيه ·

ولقد قيل الكثير ·· ولكن أحدا لم يستطع أن يغربل كل ما قيل ·· ومضى القائل والمقول فيهم ·· ودخلت القصة عالم الاسطورة ·· أو تركت لذمة التاريخ ·· قيل أن خليل مطران كان رجلها المفضل ·· وقيل أن مصطفى عبد الرازق الوقور كان يبادلها الحب بكل وقار ·· وقيل أن مصطفى صادق الرافعى كان يبثهـــا اللواعج فوق الورد ·· وكان يسمعها بكل عينيه ·· وقيل ·· وقيـل ·· ولكن الذى قيل عن العقاد أنه كان أقرب اليها من سواه وكان ملء عينيها بالرجولة الطاعنة فيه بالرقة العادية من معاملتـه لهـا · وقيل أنها بادلته عاطفته بتحفظ ·· وقيل أن لهب العاطفة فيها كان يندلع ·· ولكن (مى) لم تكن تريد أن تحترق ·· وكانت متعتها متعة رجل المطافىء ·· لكن ·· عـزا الناس الجنـون الذى ماتت فيـه أو رموها ظلما به الى الكبت الذى أخذت به نفســها ·· على أن المجمع عليه أن الحب بين العقاد ومى كان له وجود ·· وكان له جذور ·· وأن الخبث لم يطف على سطحه قط ·

على أن للعقاد أكثر من (حب) ·· أو أكثر من (صنف) منه ·· ذلك أن العقاد لم يمارس الحب فى حينه كما قلت لك ·· فكان حبه مرحليا ·· يقتضى خطى صـاحبه وقدره فى كل مرحلة من مراحل حياته ·· فمرة يقطف زهرة ·· ومرة يشمها ويقنـع ·· ومرة يملأ عينيه منها من بعيد ·· فاذا تعذرت عليـه ملكة الحب ·· زحف الى ملكة الروح ·· فاذا لم تستجب الروح لزحفه ·· لجأ الى الورق وحياته كلها ورق ·· حتى لقد اختلف أصحابه على شخص (سارة) فى قصته كمـــا اختلفوا على جاسوسة فكرى أباظة الحمقاء وكان من رأى العقاد دائما أن العاطفة تخص صاحبها وقانون الاخلاق يرفض تطفل الآخرين عليها ·

فى شعر العقاد

على أن هذه العاطفة تضـع الناقد فى مأزق اذا هو حاول أن يبحث عنها فى شعره والعقاد بدأ مدرسة الديوان ـ هو وصاحباه ـ

بالشعر وكانت أمنيته أن يجهز على شوقى ليتربع هو على امارة الشعر ·· ولم تتحقق الامنيـة وتربع على عرش النثر ·· وظلت الامنية تطارده حتى مات شوقى · فأقيم مهرجان بايعه فيه بعض الوفديين بالامارة ·· ولكنها بيعة حزبية لا خير فيها وانتهت حياته وهو رئيس أو مقرر للجنة الشعر فى مجلس الفنون فذاد عنه بعصاه أنصار الشعر الحديث فلم تقم لهم قائمة الا بعد وفاته ·

وأعتقد أن انصراف الناس عن مبايعته بالامارة مرده الى شعورهم بأنه يضحى بالشكل دائما فى سبيل المضمون ·· وكان شـعره ـ مثل نثره ـ مثقلا دائما بالثمار الغالية ·· تحمل أطيب الغـذاء الى الجسم ولا تحمل أطيب المذاق الى الفم ·

أما قصة « بنت الشاطىء » فلا تستحق الوقفة الطويلة ·· فرأى العقاد فى المرأة معروف من قديم ·· ويبدو أن للخلاف ـ أو هـذا تقديرى ـ خلفية أبعد ما تكون عن رأى كاتب يجب احترامه ·· وتجوز مناقشته و « بنت الشاطىء » زوجة أمين الخولى نفسـه ومن مدرسته وتلاميذه ·· والعقاد لم يكن يعرف غير مدرسة العقاد ·· والخصومة ـ كما يبدو ـ تحمل هذا الطابع ·· حتى لقد ظن بعض المفكرين أن صلاح عبد الصبور قد أبعد عن مجلس الفنون هو والشعر الحديث كله لانه من تلاميذ الخولى ·· والخولى نفسه لم ينج من قلم العقاد و « بنت الشاطىء » ـ وهذا حقها ـ لا تغتفر اهانة توجه الى أستاذها وزوجها ·· مثل هذه الخلفية كانت هى الدافع المستور وراء الخلاف المثير الذى نشب بين العقاد والاديبة ·· أو هذا ما قيل ·

وبعـــد

وأيا كان الرأى فى العقاد فان اثنين بعد وفاته لما يختلفا على أن العقاد كان كبيرا ·· وكان مفكرا موسوعيا لا يعرف الفكر العربى له نظيرا وكان تجسيدا لا شك فيه لعبقرية الشمول التى تجرف أمامها أى تخصص وأى نبوغ فيه ·

ولا تسألنى عن العقاد البرلمانى نائبا تحت القبـة ·· لاننى أردت أن أحدثك عنه مفكرا لا لاحدثك عنه نائبا ·· وهو لم يترك بصماته الا على رأس الملك ·

ولست أشـك فى أن عبقرياته وحدها لو وضعت فى ميزان الحسنات ووضعت كل أخطاء العقاد فى الكفة الاخرى ·· لكان الرجحان للعبقريات ·

ولفتحت أبواب الجنة أمام هذا العبقرى اللهم ·

فهرس

الموضـــوع	الصفحة
ـ ســـعد زغلول	٧
ـ عبد العزيز فهمى	٢٠
ـ على شعراوى	٣١
ـ طلعت حرب	٤١
ـ مصطفى النحاس	٥٧
ـ مكرم عبيد	٧٢
ـ لطفى الســيد	٨٩
ـ أحمد ماهر والنقراشى	٩٨
ـ على ماهر	١١٦
ـ دكتور محمد حسين هيكل	١٣١
ـ عباس محمود العقــاد	١٤٤

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٩٧٦/٤٩٦٩

الترقيم الدولى ٣ ـ ٣٢ ـ ٧٠٤١ ـ ٩٧٧ ISBN

١٠٩٧ و ١٠٩٨ ـ طبعة عام ١٩٧٦

كتاب اليوم القادم

الانسان وشيطانه

بقلم الكاتب الكبير

ابراهيم المصرى

هاهى ذى شياطين الناس مصورة أمامك فى هذا الكتاب ، وممثلة فى عنف قسوتها الضارية وبطشها الابدى .. لا ترتجف . لا تقل انك ضعيف ، وانك أنت أيضا تنجذب الى شيطانك ، وأن شيطانك أقوى منك .

لست مخلوقا فقط من ماء وطين . ولست جمادا .

اما أنت فلك عقل وارادة وحرية . ولك النسمة المقدسة التى نفخها الله فيك ..

يصدر أول ديسمبر

هـــذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب بعض أقطـــاب مصر بين الثورتين : ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢ ٠

وشبابنا الذى عايش ثورة ٢٣ يوليو ، قد لا تعرف غالبيته أنها امتداد لثورة ١٩١٩ ٠٠ كما أن ثورة مايو ٧١ التى قادها الرئيس محمد أنور السادات هى تصحيح لمسار ثورة ٢٣ يوليو نحو الحرية الشخصية والكرامة والديمقراطية ٠٠ واستطراد طبيعى لنضـــال الشعب المستمر وطاقاته المتجددة وآماله البعيدة

وهؤلاء الاقطاب الذين تحدث عنهم المؤلف كانوا اما أعضاء فى مجلس الشيوخ أو فى البرلمان ، وقد عرفهم وعاصرهم كناقد برلمانى لجريدة البلاغ المسائية

والمؤلف الاستاذ محمد السوادى إناقد البرلمانى الكبير منذ نحو ثلاثين عاما ٠ كان يتميز باسلوب روائى فى وصفه للجلسات ٠ فقد كان يصحب القارىء معه من باب المجلس حتى الكواليس ثم الى الجلسة ، ويضفى عليها طابعا خاصا به ٠٠ فيه الدعابة ، وفيـه الرأى ، وفيه الصورة الفنية

الثمن قرشا